M351mA

محاضرات مختارات

في الدين ، والفلسفة ، والاجتماع

892.75:M35A

مرمرجي ، أ. س. (الأب)

892.75
M35A

محاضرات مختارات

في الدين ، والفلسفة ، والاجتماع .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY OF BEIRUT
892.75 M35m
210 M351mA C.1
Cat. May 1948
Exchange
67893

بقلم

الاب ا. س. مرمرجي الدومنكي

احد اساتذة المعهد الكتابي والآثاري
في القدس الشريف

مطبعة المرسلين اللبنانيين — جونية (لبنان)

١٩٤٧

ОК ВЕЛИКІ ГІВЧИЧКА ГІВЧИЧКА ВЕЛИКІ ОК

محاضرات مختارات

في الدين، والفلسفة، والاجتماع.

كلمة للمؤلف

نزف الى جمهرة القرآء المفكرين هذه الطائفة المنتخبة من المحاضرات والخطب، تتناول مواضيعها ابحاثاً شتى في الدينيات، والفلسفيات، والاجتماعيات. وقد أُنشئت بطريقة عصرية، يعتمد فيها على البراهين المنطقية. وكانت قد أُلقيت في الاندية والاجتماعات الرسمية، ثم نشرت في عدة مجلّات. واذ كانت متفرقة لا يصل اليها اهل المطالعة الا بعد العناء، رأينا من الملائم ان نجمعها في سفر خاصّ، عاقدين الامل انها تكون أقرب منالا واجزل فائدة للجمهور المثقّف، في ما ينوط بحياتهم العقلية، والادبية، والاجتماعية، والدينية.

الدين والروح العصرى

من شتى الوجوه ، حياة الجماعة كحياة الفرد ، لما هو معهود من ان الجماعة ليست سوى مجموع افراد . فغالب ما اختص به عضو من اعضاء الجماعة ، اختص به المجموع كله . وكما ان الفرد يتأثر بما يحيط به من الاحوال ، فالجماعة ايضاً تفعل فيها المؤثرات التي تكتنفها ؛ مما ينشأ عنه ، في الافراد والجماعة ، مزية خاصة يمتاز بها الفرد من اقرانه ، وتتفرد بها الجماعة عن غيرها من الجماعات . ومن جملة هذه التأثيرات ، في الآحاد والجماعات ، تأثيرات الزمان الصادرة عن تطورات العصور المتعاقبة ، التى اتسم اهلها بسمة فريدة . وبقوة هذه المفاعيل ، يتولد في الافراد ، ومن ثم في الجماعات ، عقلية فارقة ، ترجع الى ذاك العصر ، دون غيره . وهذه العقلية هي ما ندعوه « روح العصر » او « الروح العصري » فاذا كان ذلك كذلك ، فما هو روح عصرنا ؟

قلنا ان الروح العصري صادر عن التطورات الحاصلة على كرور الايام . فبدون الاستفاضة في المقدمات ، نقول قولا سنده الاختبار ، وهو ان روح عصرنا وليد تقدم الانسان في عالم المحسوسات ؛ ذاك التقدم الآتي من توسع نطاق معارفه في العلوم الوضعية ، وقبضه على ناصية الامور في الصناعة المادية . مما كانت مغبته ابهار العيون ، واذهال العقول ، والاخذ بمجامع القلوب . فما كان من البشر الا ان مالوا الى السعي ورآء الرغد في العيش ، والاخلاد الى الرفاه في الحياة ، هذا ما بلغ اليه القوم في الاصقاع الغربية ؛ فكان منه في مجتمعهم ما كان .

اما نحن اهل الديار الشرقية ، فمذ زاد اتصالنـــا بالامم الاجنبية الراقية هذا الرقي المادي ، انتعشت منا النفوس ، بعد خمودها ؛ وتولّدت

في القلوب رغبة السير في ذا السبيل ، اسوة بتلك الاقوام — فاخذ يتشرب افرادنا وجماعاتنا هذا الروح العصري ، الروح المادي .

على ان الحكيم لا يسلم في صحة امر ، الا بعد ان يسبر غوره بمبادىء الخالدة . واذ كان مسبرنا مسبر كل عاقل فطين ، اي مسبر الدين ، تحتم علينا ان نضع هذا الروح العصري تحت محك الدين العزيز ، لنرى اي حكم يبرز فيه — واذ كان الدين دينين : ديناً فطرياً يضيء علينا نوره باشعة العقل البشري ؛ وديناً فائق الطبيعة ، انزله الله على يد ملائكته وانبيآئه ، واكمله بابنه الوحيد ، ونشره بواسطة كنيسته المقدسة ، كان من الملائم ان نجعل محور هذا البحث يدور اولا : على الروح العصري في حكم الدين الفطري ، او العقل المستقيم ؛ ثانياً : على الروح العصري في حكم الدين المنزل ، وهو الدين المسيحي القويم .

١

الروح العصري

في حكم الدين الفطري ، اي العقل المستقيم

مما لا مشاحة فيه هو ان عصرنا عصر رقيّ ؛ لانه قد سار ولا يزال سائراً ، على سنة البشرية ، بل على ناموس الكون العام ، وهو ناموس الارتقاء من كمال الى كمال . الا ان كمال عصرنا عابر في سبيل كل محسوس ، وجائل في عالم الماديات ؛ مما نشأ عنه عمران مادي ، ومن ثم روح عصري ماديّ — فما قدْر هذا التقدم ، وهذا الروح العصري في نظر الدين الطبيعي او العقل السليم ؟ الجواب ان المزية الخاصة بالنُهى مزية الحكمة التي من شأنها ابراز الاحكام السديدة ؛ وما الحكم السديد الا

ذاك الذي يتوسط الطريق دون الزيغ ، لا الى جانب الافراط ، ولا الى جانب التفريط . وعليه ، فاستناداً الى مبادىء العقل الصوابية ، يمكنا ان نقدر الروح العصري ، روح الرقي المادي ، بهذا الحكم وهو : مما لا يجوز نكرانه هو ان للفلاح المادي قيمة حقيقية ، ذات مقام ممتاز في جملة الظواهر العمرانية . الا ان هذه القيمة ليست مطلقة بل نسبية . ولذا فطالما سارت المادة وكمالاتها طبقاً لما وضع لها رب الكون من النواميس بقيت معتبرة ، ذات قدر سامٍ ؛ لانها ، بجريها هذا الجريان ، تتجه نحو الغاية المقصودة من وجودها ، وهي خدمة الالفة البشرية . وهذه القضية تزداد جلاءً بنور حقيقة مقررة ، وهي حقيقة طبيعة الانسان ، المركب من مادة وروح .

فكما ان المرء مفتقر ، في مزاولة اعماله الروحية ، الى قوة ورفاه في بدنه ، بموجب المبدأ الفلسفي القائل : « العقل السليم في الجسم السليم » ، لزم بفعل هذا المبدأ عينه ، ان يتم هذا التقدم ، في المجتمع البشري ، ببعض الكمالات في الماديات ، وذلك مساعدة لافراد البشر في اكتسابهم الخواص النفسية . وعلى هذا النمط تتدرج الشعوب في ذا السبيل ، اي بتوسع الماديات وبلوغها الى حد تستطيع معه القوى البشرية ، والهمم الاجتماعية ان تصل الى غايتها المتوخاة — مما ينجم عنه تقدم النظام الادبي ، وتفوقه على النظام الماديّ ، مقدار تفوق الروح على المادة ، وعلى هذا متوقف الرقي الحقيقي ، والحضارة المثلى ، والروح العصري المرغوب فيه —

فاذا تقرر هذا ، قلنا : ان نحن اجلنا رائد التبصر والتدقيق في عالم المحسوسات ، فلا مندوحة لنا من الاقرار بان مسير الماديات ، وتبسطها في النجاح ، ان هو الا مفعول من مفاعيل تسلط الانسان ، يوماً بعد يوم ، على الطبيعة الهيولية . وهو ، الحق يقال ، تقدم مقبول ، وعمران مفيد جاء ملائماً غاية الملائمة حالة البشرية ؛ فهو اذاً من مطلبات الحياة .

الا ان الخطر كل الخطر في الذهاب الى ان كمال البشرية قائم في هذا الرقي وحده ، وذلك لان البون شاسع بين الرقيين المادي والبشري، الواجب ان يتوق اليه الانسان ، والا ينشأ عنه روح الافراد والجماعات، اي الروح العصري ، في كل آن ومكان . والسبب في هذا ان الترقي المادي هو خارج الانسان ، اي في الاشياء المحسوسة الملموسة التي تظهر فيها مظاهر قريحته الوقادة — واما التقدم البشري ، اي الرقي في العقليات ، والادبيات ، والاجتماعيات ، فمجاله الانسان ذاته ، بكامل طبيعته ؛ والغاية منه اعلاء شأن البشرية عينها ، بصفتها البشرية . اجل اننا لأبعد القوم عن القول بوجود مناقضة بين العمران المادي ، والعمران الادبي . بل زد على ذلك اننا من الموقعين بان ارتفاع درجة الكمال في الماديات لدليل ساطع على تكمل قوى الانسان وامتداد سلطانه في عالم البرايا ، على تضارب انواعها . الا ان هذا لا يقيم الحجة الراهنة على ضرورة اتحادهما ، وسيرهما كتفاً لكتف . اذ الخبرة تطلعنا على امكان وجود المرء في حال الانحطاط ادبياً ، وهو ساعٍ ، لا بل ناجح في ترقية احوال الماديات . وقد يشاهد ، بعض الاحيان وفي وقت معاً — كما هو الامر واقع في مجتمعنا اليوم — الانسان متسلطاً على المادة ، من جهة ، والمادة مسيطرة على الانسان ، من جهة اخرى . وسببه ان كمال المحسوسات . مهما علا وسما ، فهو ادنى من ان يتوقف عليه فضل الانسان وقدره . ولادراك هذه النظريات حق ادراكها ، من اللازم ان ترسخ في عقولنا هذه الحقيقة السامية وهي : ان البشر لم يخلقوا للمادة ، انما المادة اوجدت لاجلهم ، لا كغاية يقصدون اليها ، بل كوسيلة يستخدمونها في سبيل تقدمهم البشري ، الصادر عنه العمران والروح العصري الامثل . اما اذا عمدنا الى استطلاع كنه الرقي الانساني ، فقد توجب علينا التقصي في كيان الحياة البشرية . ولمعرفة هذه الحياة، ينبغي استبطان ماهية الانسان . فما ادراك ما الانسان ؟

الانسان ، بموجب ما حدده الفلاسفة القدماء ، حيوان ناطق . اجل ! الانسان حيوان ، بيد ان الحيوانية مزية مشتركة بينه وبين ذوات الاربع . اما الصفة الخاصة التي تفرقه عن الخلائق الدنيا ، وتدل على حدّه ومقامه ، وسلطانه على الطبيعة ، فهي خاصة النطق . الانسان عُوَيلَم يحوي في بدنه جميع كمالات الطبقات السفلى من المبروءات . وبعقله يتوقل ذرى الاعالي ، فيحل مقام الكائنات العاقلة ، اي الارواح المنفصلة ، التي هي ارقى درجة منه ، في سلّم الوجود — الانسان كائن حي مركب من مادة وروح ، فهو الاخير في فريق العاقلات ، وهو الاول في صنف المجسمات ؛ مما انزله منزلة الصلة بين العالمين : المادي والروحي ، الانسان متصف بخاصة الحرية التي تجعل في وسعه ان يقبض ، بتوقد ذهنه على ناصية الحق قبضاً ؛ وان يعشق بلبّه الجمال عشقاً ؛ وان يهيم بارادته نحو الخير الاعظم هياماً . الا انها ، لاعتسافها ، قد تهوي به من حالق الى الاسافل ، فيتيه في بيداء الباطل ويطلق لنفسه الامارة عنان الهوى العاطل ، حدث ولا حرج عن الجسم وما اجتمع فيه من البدائع والغرائب خِلقة وقواماً ، غير ان هذا كله لم يكن ليرفعه الى درجة اسمى جزء في الانسان ؛ اذ الانسان بجسمه هابط الى السفليّات ، ميّال الى الماديات ؛ وقد قوى شدة ذلك الميل تأثيرات الضعف المتوارَث ، مما زاد في طينة انحطاطه بلة .

فاذا كانت حياة الانسان وكمالاته ليست بقائمة في الجسد وحواسه ، ظهر ان التقدم الصادر عن الماديات ، التي يطبل ويزمر بعلو قيمتها ارباب المبادىء المعوّجة ، واهل الروح العصري المنحرف . ليس ذا شرف وقدر مطلق في هذه الحياة البشرية ، اذ ليس فيه كمال الانسان بتمامه ، ونجم ايضاً ان الرقي هذا ليس له من الرقي الحقيقي سوى الدرجة الدنيا — وشأن هذا الامر في المجتمع كشأنه في الافراد ؛ اي ان فلاح الجماعة وتبسطها في الماديات لا ينزل الا المنزلة السفلى

من منازل عمرانها على وجه الاطلاق.

هذا ما يثبته العقل السليم، الخالي من الاوهام، والخالص من عمل تأثير الاغراض والاهواء المنحرفة. هذا ما يتطلبه الحق والعدل والنظام. اذ عليه قائمة القضية الاساسية، التي لا يسوغ لامرىء نكرانها دون جحد حقيقة الحياة الانسانية، والشرف البشري، الحاتم على الفلاح المادي ان ينزل الى مقامه الطبيعي الذي انشأه له الخالق، اي المقام الاخير بين مقامات العمران المقبول. فالدين الطبيعي اذن يعلمنا ان كمال الافراد والجماعات في هذا العصر، وفي كل عصر، خليق ان يستند الى الكمالات النفسية والعقلية والادبية؛ وان يستخدم المرء الكمال المادي آلةً، لا غاية. ومن ينبوع هذه الكمالات يتحتم على اهل هذا العصر ان يستمدوا الروح اللائق بان يسمى الروح العصري.

٢

الروح العصري

في حكم الدين المنزّل، اي المسيحي

لقد كان للدين اعداء في كل زمان ومكان، وذلك لان الدين نور، واهل الضلال، كاليوم يحبون الظلام، لكلل في ابصارهم، يقعدهم عن النظر الى النور والتمتع به، ولذا يبغض الضالون الدين؛ ولبغضهم له، لا يألون جهداً في استخدام كل ضرب من السهام ليرشقوه بها، حتى لا يبقى في قوسهم منزع. ومن جملة سهام اعداء الدين، في هذا العصر المادي، هو افتراؤهم بان الدين والروح العصري على طرفي نقيض. لان الدين، على زعمهم، قائم في اعلاء شأن الروحيّات، والحط من قدر الماديات، التي سعى العصر فنجح في ترقيتها. وان الدين يعظم

النفوس ، وبذل الاجساد ، التي اتّضح للعقل العصري ان الحياة راكزة فيها ، فمن ثم فلا يرى الدين في الروح العصري سوى هلاك البشر ، وخراب العالم .

هذا البهتان هو سلاح خصوم الدين . اما نحن ، فباسم الدين العزيز ، نردّ هذا الكيد الى نحر اصحابه ، معلنين على رؤوس الاشهاد هذه الحقيقة الساطعة وهي : ان الدين لقصي عن كره التقدم والروح العصري قصاء الشرق عن الغرب . فهذا التاريخ ، فليستنبؤه ، يروا فيه خير شاهد على ان الدين كان ، ولا يزال ، اول واكبر نصير للعمران ، على اختلاف انواعه ودرجاته . فهو اذن من المحبذين للترقي حتى ماديّه . والبرهان العقلي على صحة ذلك ، فضلاً عن النقلي ، هو ان الدين ، اذ كان حقاً وصلاحاً ، فهو عاجز كل العجز عن ان يرذل ما هو صالح بذاته ، وحق في مبادئه ، ومفيد في نتائجه . والحال ان التقدم المادي ، كما سبق التبيان ، ليس فيه من الشر شيء ، بمطلق القول ، اذن ما ارفع الدين عن ان يناقض ذاته بذاته ؛ وما اجله عن كره التقدم .

من المقررات التي نوهنا بها في مطلع الكلام ان الرقي المادي قد نضج بفضل العلوم والفنون الوضعية ، التي نجم عنها توسع الصناعة المادية ، والخلاصة من هذا كله هي انتصار العقل على المادة ، وتسلط الانسان على الطبيعة ، واستخدامه اياها ، لمنافعه ، طبقاً للسلطان الذي خوله اياه البارىء في صدر البشرية ، اذ قال لابوينا : « انموا ، واكثروا ، واملاوا الارض واخضعوها . تسلطوا على طير السماء ، وسمك البحر ، وجميع الحيوان الداب على الارض . » فاذاً الانسان ملك الطبيعة ، وهي خادمته قد وضعت لفائدته . والحال ان اول مطلبات الدين حض البشر ، لا بل اجبارهم على استغلال هذا الانعام الالهي .

فالشغل قد نشأ وظهرت منافعه ، مع نشوء الانسانية . الا انه

تغيرت صنعته دون تغير جوهره . فقد صدر الانسان من يد خالقه كامل الخواص . فكان له الشغل اوان ذاك ، بمنزلة حق وسلطان ، يتصرف به في المخلوقات . الا انه لم يعتم ان عصا ربه ، فسقط عن عرش مجده ؛ وبسقوطه ، فقد تلك المزايا ، مزايا الصحة والبرارة ، فاصبح العمل منذئذ ، شريعة محتومة في حياته . في حالة البرارة ، كانت الطبيعة كالعبدة الذليلة بين يدي سيدها الانسان . اما في الحالة الساقطة ، فقد قامت رافعة عليه لوآء العصيان ، في حالة البرارة ، كان المرء متمتعاً بسلطانه ، براحة وطمأنينة ، واما في الحالة الساقطة ، فقد اضطر الى ان يدافع عنه بسلاح الشغل ، وتجشم الاتعاب ، وتجرع الغصص والآلام . في حالة البرارة ، كانت الارض تنبت له مختلف الاثمار اليانعة ، بوفرة وغزارة ؛ واما في الحالة الساقطة ، فلم تعد تخرج له سوى القرطب ، والشوك ، والحسك . كل ذلك لان الارض لُعنت بسبب معصية آدم ؛ فلم يعد له مندوحة لاستثمارها الا بشديد العناء ؛ كما جاء في الكتاب العزيز : « ملعونة الارض بسببك ؛ بمشقة تأكل منها طول ايام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ؛ وبعرق جبينك تأكل خبزك ، حتى تعود الى الارض التي اخذت منها . »

هذا مصدر العمل الناجم عنه التقدم المادي والروح العصري . على اننا من اي وجه لاحظناه ، فلا نرى الدين مناهضاً له ؛ بل بخلاف ذلك ، نجد الدين مكرماً له ، لكونه سلطاناً وحقاً ؛ وآمراً به لكونه واجباً محتوماً . حتى ان اشد الرذائل مقتاً في عين الدين رذيلة البطالة . فانه يرى فيها ام الرذائل ، ومنبع الشرور ، ومهواة الانسان في دركات الانحطاط ، وسبب الخراب في المجتمع .

ولذا فالدين يلزم ابن آدم ؛ بالشغل طول حياته ، دافعاً اياه الى ان يقهر ، بقوة عقله وحريته ، مقاومة الطبيعة ، فيسترجع بذلك السلطان الذي خوله اياه رب الكائنات . ومن هنا يظهر جلياً حق الانسان

وواجبه ، فاذا كان هذا شأن الدين ، كيف يُعقل انه يشجب الشغل ، ويرذل السعي والاجتهاد ، هو العارف والمثبت بان العمل منتجة للخصب ، ومجلبة للرغد في المجتمع ، وعنوان حق الانسان وقوته على استخراج الخيرات المكنونة في قلب الطبيعة . اجل ! ليس من غاية الدين الخاصة تمكين الانسان من بسط سيادته على الكون بسطاً تاماً وشاملاً . الا انه عوض ان يشجب هذا الاستيلاء ، نراه يحبذ فوز البشر وانتصارهم على المادة ، بل يستفز هممهم للتولي على الارض تولية كبرى .

ولذا فيحق لدعاة الدين ان يخاطبوا ، باسمه ، ابناء جلدتهم ، قائلين : « الا يا معشر الانام ، ها نحن اولاء نجاهر بانكم ارباب الارض وما فيها من المخلوقات . لان البارىء قد اوجدها لاجلكم . فسيروا في طريقكم سير الفاتحين المدوخين ، اخضعوا الطبيعة ، مهما استطعتم الى ذلك سبيلاً . اشفعوا النصر بالنصر ، والقهر بالقهر ، اشحذوا القرائح ، استنهضوا الهمم ، شمروا عن السواعد ، واسعوا متكاتفين ، متضامنين ابحثوا متقصين في دواخل الكائنات ، اهتكوا اسرارها ، استطلعوا نواميسها ، اكتشفوا ، اخترعوا ، اقبضوا على زمام الماء والبخار والهواء . والكهرباء . شقوا عباب البحار ببواخركم ، غوصوا في اعماق اللجج بغواصاتكم ، اقطعوا المسافات الشاسعة بقُطُركم . انهبوا الارض نهباً بسياراتكم ، حلقوا في الجو مزاحمين الطيور بطياراتكم . انيروا البيوت ، والقصور ، والمدن ، بنور كهربائكم ، تفاوضوا وتراسلوا ببرقياتكم ولاسلكياتكم . قصارى الكلام ، اوتوا كل عجيب . اظهروا كل غريب ، مما لم يحلم به اسلافكم ، ويعود بالطائلة الكبرى على اخلافكم ، فلن تجدوا في الدين لا مستهجناً ، ولا مثبطاً ، ولا معادياً : بل بالعكس ، تروه محبذاً ، ومشجعاً ، وناصراً . » هذا هو اعلان الدين الذي يفتري عليه المفترون بانه مناهض للتقدم ، والرقي ، ومن ثم للروح العصري .

على ان الدين يرى ما لا يراه البشر ، لوقوفه على مظنة الشر ، حيث يتوهم القوم وجود الخير – ولذا فبينما نسمع صوت الدين محرضاً الناس على اتباع طريق الحق ، نسمعه في الوقت عينه ، يحذرهم مما يقوم في سيرهم من العقبات ، وما لعلهم يتدهورون فيه من الدركات . فهو القائل لهم : « شجاع ! شجاع ! » يضيف الى ذلك : « حذار ! حذار ! » هو الذي نراه من الجهة الواحدة ، مستحسناً ، مادحاً ، راضياً ؛ نجده من الجهة الاخرى ، مقبحاً ، قادحاً ، رافضاً . وان خيل الى احد ان هناك مناقضة ، فليعلم انها ليست الا ظاهرية ، لان الدين ، في القضية عينها ، يقر شيئاً ، ويعارض في شيء اخر ، يمدح الامر بذاته . ويذم الافراط في استعماله ، او إتيانه من غير بابه – الدين يبيح لنا ان نكون من ابناء العصر ، وان نقتبس الروح العصري ، وان نسير نحو التقدم والتمدن العصري . لكنه يحذرنا من التقهقر والانحطاط في حالتنا البشرية . اي حالة الآداب . في العيشة الفردية ، والعيشة الاجتماعية ، يوافق الدين على استيلاء الانسان على الطبيعة ، غير انه ، في الحين ذاته ، يشجب استيلاء الطبيعة على الانسان . يقبل الدين التقدم ، وان كان مادياً ، ويقدر مقامه وخطورته ، على انه لا يسعه الا ان ينكر عليه الحق في قلب النظام الذي وضعه الخالق في طبيعة المخلوقات . صفوة القول ، ان الدين يرضى للمجتمع بالرقي المادي وسيلة ؛ الا انه يرفض رفضاً باتاً ان يكون للالفة غاية .

ولذا فيناشد خدمة الدين اخوانهم محذرين قائلين : « الا يا قوم ، فاعلموا ان لكم السيادة ؛ وعلى المادة الخدمة ، لانها امة . فان ربّعتم الأمة في دست السيدة ، فايقنوا انكم لحق العقل لباخسون ، ومن قدر النفس لحاطون ، وتاج الشرف الانساني لمهينون ؛ فتضحون سوقة وعبيداً ، بعد ان كنتم اشرافاً وسادة – على كل ، ان كان هذا التقدم تقدمكم ، وهذا الروح روح عصركم . فاعرفوا ان الدين كان في

الامس ، وهو اليوم وغداً ، يرذلكم ويرذل عمرانكم ؛ يخذلكم ويخذل روح عصركم ، لكونه مخالفاً لاحكام العقل السليم ، ومضراً بالمصالح الانسانية ، اذ حاشا للدين ان يرضى بتقويض اركان النظام في الالفة الاجتماعية ، اي بتقديم الماديات على الروحيات ، وتفضيل الاجسام على الارواح ، وجعل الرذيلة في مقام الفضيلة ، وتسليط الشر على الخير — فادركوا يا ناس ، انكم ملوك وعبيد معاً : ملوك على الماديات ، وعبيد في خدمة رب العباد ، فحافظوا على سلطانكم ، وقوموا باعباء عبوديتكم : اجروا حقوقكم مع الطبيعة ، وادوا ما لله من الحقوق عليكم وعلى الطبيعة . واذكروا قول مؤسس الدين الالهي ، الملخصة فيه كل هذه المبادىء وهو : « اطلبوا اولا ملكوت الله ، وهذا كله يزاد لكم . »

هذا هو حكم الدين ! هذه هي الفلسفة المسيحية ، في شأن مقام الماديات في الحضارة ، وهذا نظرها في كيفية تكوّن الروح العصري ، المقبول ، وعليه يمكننا ان نلخص هذا المقال فنقول : « ان الانسان مخلوق مركب من مادة وروح ، اي من جسد ونفس ، وهو كائن حي . ومن شأن الحي ان ينمو ويرقى ؛ والانسان اذن نامٍ وراقٍ ومن ثم فمتقدم ، ومتمدن — الا ان العقل والدين يقضيان بان تجري الصنائع مجرى الطبائع — ومن طبيعة المرء ان يمتاز بالجزء الاشرف فيه ، وهو النفس المدركة ، المريدة ، الحرة — واما الجسم وما يتعلق به ، فليس له سوى المقام الادنى ، ولهذا فيليق بابناء البشر في هذا العصر ، وفي كل عصر ، ان يسيروا في سبيل التقدم على هـــذا النمط ، اي بالترقي البشري ، وهو الترقي العقلي والادبي ، المتخذ وسيلة للحصول عليه الرقي المادي . ومن هذا الينبوع الصافي ، ينبغي لاهل هذا العصر ان يستمدوا روحهم العصري . فان كان هذا الروح سائداً في حياتهم الفردية ، والاجتماعية ، كان الدين نصيرهم ، والنجاح والفلاح حليفهم : في كلا الدارين والسلام .

الدين والحرية

من اسبغ ما غمّر به الخالق عبده الانسان من الآلاء هو تلك الهبة المنقطعة النظير، والعاجز عن وصفها كل لسان، الا وهي الحرية، الممكّنة صاحبها من تخير الاشياء، واتيان اعماله بما خوّله من سلطان. وما احسن صنع البشر، لضنّهم بهذه الدرة الكريمة، وافتخارهم بهذه المزيّة الفردية. وما كان اضل القوم المدّعين ما لا يقبله العقل، ويمجه الذوق السليم، وهو خلو المرء من هذه الصبغة الجزيلة القدر والفائدة.

على ان كثيرين من ابناء هذا العصر، ان لم ينكروا الحرية نكراناً تاماً، فقد حادوا عن جادّة الصواب في ما يرجع الى ماهيتها وطريقة استعمالها. وقد استدرجهم الى هذه الوهدة التعاليم الفلسفية الاجتماعية المعوجة، ونجاح المجتمع الحالي في الماديات، فطمحت النفوس المتهورة الى اساءة العمل، باسم الحرية؛ والمغالاة في ادعاء الاستقلال الذاتي، او الاباحية.

ولذا، فالجدير بذوي الحجى والنهى ان يستطلعوا كنه هذه المزية الفارقة بني البشر عن بقية الخلائق الارضية، ليقفوا على ما هي عليه من الكمال، فيحسنوا ممارسة اعمالها، غير مفرطين ولا مفرّطين، متذكرين ان خير الامور الوسط، وحب التناهي غلط. وما من وسيلة انجع لبلوغ المرام، في هذا المقام، من تمحيص نظرية الحرية وحقيقتها بذاك المحك الفعّال، محك الدين القويم. واذ كان اعداء الدين قد تاهوا في بيداء الضلال، منهم بنكرانهم وجود الحرية، وبعضهم بجهلهم او تجاهلهم ماهيّتها؛ وغيرهم بادعائهم ان الدين مناهض لها؛ لاق بنا ان نستفتيء الدين في كل قضية من هذه القضايا.

١

وجود الحرية

بين معتقدات الدين المسيحي حقائق فائقة الادراك البشري ، يجب ان يؤمن بها المرء ، استناداً الى علم الله غير المتناهي وصدقه ، قولا وفعلا . وهذه العقائد هي ما ندعوه اسراراً . بيد ان هناك حقائق متفقاً على اعلانها الدين الطبيعي والدين العُلْوي . ومن جملتها قضية وجود الحرية . فانها عقيدة من عقائد الايمان ، وحقيقة من الحقائق الفلسفية ، ولذا تتضافر في ايضاحها الادلة اللاهوتية . والبينات المنطقية . وفي مقدمة المستمدات ، في ذا الشأن ، هو الكتاب العزيز . فان مختلف اسفاره يحوي الايات الجمة التي ترينا الله عز وجل متشكياً ، غالب الاحيان ، من انصراف البشر عن خدمته ، ومقاومتهم لمشيئته . فتارة يتوعدهم بالهلاك ، ان هم اصروا على العصيان ؛ وطوراً يعدهم بالغفران ، ان هم عادوا اليه تائبين . وهو امر يفرض دون ريب وجود الحرية في هولآء العباد . اذ لولا الحرية ، لما كان من معنى للوعد والوعيد ، ولا من داعٍ لكل الوصايا المسنونة لدفعنا الى الخير ، وصدّنا عن الشر ؛ ولا مسوغ لانزال القصاص الزمني والابدي في من يخالف الشريعة ؛ والمكافاة بالخيرات والجنة الخالدة لمن يسير بموجبها ، لانه حيث تسود الضرورة والاجبار ، فلا محل للثواب والعقاب ، لا في هذه الدنيا ولا في الاخرة .

فضلا عن شهادة الكتاب ، هناك شتى الشهادات العقلية . اولاها مستمدة من طبيعة نفس الانسان ، وهي اتصافها بالروحانيـــة ، والتنزه عن المادة ، اي عدم الاختلاط بها والخضوع لاحوالها ، كالكمية ، والحركة ،

والقياس ، اذ غير ممكن ان يقال ، الا بطريق المجاز ، ان النفس ، او العقل ، او الفكر مدوّر او مربّع ، اسود او ابيض ، بارد او حار ، عـالٍ او واطىء ، واقف او جالس ؛ اذ ان خواص المادة ليست بخواص الروح . واذ كانت النفس غير منحصرة في دائرة المادة ، فهي ممتدة القوى ، ومتجهة نحو الاشياء العامة او غير المحـدودة . ولذلك اتسعت سلطتها على الكائنات ، وهذا الاتساع مصدر حريتها ، لان النفس تشرك العقل بغزارة حياتها ، مما يمنحه القدرة على معرفة الاشياء المختلفة منزهة عن المادة ، وقوة الارادة تابعة لقوة العقـل . وبذلك تتصف بهذه الصفة ، اي الميل الى الموجودات المطلقة ميلا ينجم عنه حريتها ، زد على ذلك ان قوانا البشرية جارية اعمالها بنظام لا يشوبه ادنى تنافر او اضطراب ، اجل ! اننا لسنا بجاحدين ان هناك مجالا فيه الانسان معدوم الحرية ، وهو مجال الحقائق البديهية ، التي لا مناص للعقل السليم من قبولها ؛ ومجال الخير العام الذي تميل اليه الارادة تائقة هائمة دون منة منها . لكن خلا هذا ، هناك ميدان فسيح الارجاء ، هو ميدان الامور الحادثة ، والخيرات الجزئية ، فيه يُرى الادراك سارحاً ، والمشيئة مارحة ؛ فلا العقل يحكم احكاماً متضارعة ؛ ولا الارادة تعطف ، ضرورةً ، الى خير دون غيره من الخيرات . وداعي ذلك هو ، على ما جاء به مار توما اللاهوتي ، ان القوة المدركة ، اذا جالت بين الحقائق النسبية الجزئية ، لا تشعر بذاتها مقيدة بحكم واحد ؛ اذ لو كان الامر كذلك ، لقضى جميع البشر ، في كل الشؤون ، قضاء واحداً ، مهما تباينت احوالهم ؛ مما ينشأ عنه ، حتماً ، تماثل اعمالهم ؛ كما نشاهد ذلك جارياً في افعال الحيوانات الغريزية . وما يقال في شأن العقل يقال في شأن الارادة ، لانها تميل الى ما يحكم العقل بخيريته ، طبقاً للمبدأ المنطقي القائل : « لا يرغب في الشيء ، الا بعد عرفانه . » فاختلاف اميال الارادة وحريتها مستند الى اختلاف احكام العقل وحريته .

وهذا الاختبار مما نتحققه في ابسط الاشياء واكثرها مزاولة بين الناس . فان كلاً منا يشعر ، عند رفعه يده ، ان في استطاعته ان يعليها او ينزلها ، او يميل بها يمنة او يسرة ، او ان يدعها دون حركة . وكذا القول في بقية حركات الانسان او سكناته ، من مثل القيام والقعود ، والسير والثبوت ، والتكلم والسكوت ، الى غير ما هناك ، مما يتعلق بمشيئة المرء ، دون ان ينفذ فيها فعل محرك خارج منها . ومـــا نجده في نفسنا نراه في غيرنا . ودليله شعورنا بعجزنا عن دفع اقراننا في البشرية الى فعل ما نريده ، الّم يرضوا به ، ويميلوا اليه ، من تلقاء نفوسهم .

ومَن مِنا لا يدله وجدانه على ثبوت هذه الحقيقة ؟ اذ لا ندحة لامرىء من ان يحسّ من نفسه براحة واطمئنان ، عقيب فعله الخير ، وبأسفٍ وحزنٍ وقلقٍ ، بعد اتيانه الشرّ ؟ وهذا امر يفرض المسؤولية فينا ؛ والمسؤولية تفرض الحرية ؛ لما هو معلوم من انه حيث لا حرية ، فلا مسؤولية . وما اصوب كلام فينلون الخطيب الفرنسي الذي جآء به في احد تحاريره على الدين ، قال :

« ائتوني برجل متفلسف ، ناكر الحرية ، فاني أجادله ، بل امتحنه في فرصة اكثر الفرص حدوثاً في الحياة ، لأخجل نفسه بنفسه . فافرض ان امرأة هذا الرجل لا تحفظ له الامانة ؛ وان ابنه عاصٍ عليه ومحتقر له ؛ وان صديقه يخونه ، وان خادمه يسرقه . فان تشكى منهم ، اجبته : « الا تعلم ان لا واحداً من هولآء مذنب في ما يأتيه ، لكونهم ليسوا احراراً لان يتصرفوا غير هذا التصرف . وانت مقر بانهم مدفوعون الى ارادة ما لا يريدونه ، كما يميل الحجر الى السقوط حين لا يسند . » او تظنون ان هذا الرجل يرضى بهذا البرهـــان ، فيعذر خيانة امراته ، وجسارة ابنه وكنوده ، وغدر صديقه ، وسرقة خادمه ، او ليس من المحقق ان هذا المتفلسف الجاحد وجود الحرية

عند الجدال على مقاعد المعاهد يفرض وجودها فرضاً اكيداً في بيته ؟ فلا تحقيق من شدة صرامته نحو هولآء الاشخاص ، كما لو كان كل حياته قد آمن بعقيدة الحرية التامة ؟ فالواضح اذن ان هذه الفلسفة ليست بفلسفة حقيقية ، وانها تضاد نفسها دون حياء . »

فالناجم من هذه البراهين الساطعة انه لولا الحرية ، لاضحت حياة الانسان دون معنى ولا غاية . فقوّضت بذلك اركان الالفة ، ودُرست معالِم التاريخ ، ومُحيت الآثار المخلدة اسماء عظماء البشرية . اذ لا يعذُب عن ذي نهى ان هناك اناساً ، وان طُوي بساط حياتهم في هذه الفانية ، فهم لا يزالون احياء بجميل ما خلدوه في المجتمع الانساني . والالفة تنشد محامدهم ، وتنشر ماثرهم ، وتعتز بهم مقرّة بفضلهم العميم ، واظهاراً لامتنانها ، تقيم لهم الانصاب والتماثيل ، وتشيد المباني الفخمة ، وترسم الرسوم الفتانة ، وترفع الاقواس العالية ، وتعمر الهياكل البديعة . وبالحق ان جميع هولاء الاعاظم قد رحلوا عن هذه الدار ، وصيتهم ذائع في اربعة اقطار العالم ، فمنهم من قد اشتهروا بالعلوم والفنون ، او بوضع الانظمة والدساتير ، او بالاختراعات والاكتشافات العجيبة ، المفيدة للالفة ، وغيرهم نزلوا في مقدمة الجيوش الجرارة . الى حومة القتال ، فسفكوا دماءهم في سبيل النصر ، والفخر لاوطانهم ، وفي جملتهم من قد وقفوا ذواتهم واموالهم على مؤاساة المساكين ، وخدمة المرضى والاعلآء . وفي عدادهم من تسابقوا في ميدان الفضل . ففازوا بقصب السبق في القداسة .

على ان هولآء كلهم لم يصبحوا اهلاً للمديح والذكر الحسن : الا لانهم اتوا هذه الاعمال الباهرة بحرية مطلقة . فان لم تكن الحرية عند هولآء الابطال ، ابطال البشرية ، فلنقر أن السلام على الامجاد والمفاخر ؛ فلنقر ان السلام على البسالة والشهامة ؛ فلنقر ان السلام على الفضيلة والقداسة . ثم لنعمد الى الاسفار التاريخية فنمزقها ونخرقها ؛

والى الانصاب والتماثيل فنسقطها ؛ والى الاقواس النصرية ؛ فنحطمها ؛ والى القصور الشامخة ، فندكها ؛ والى المباني الاثرية الفخمة ، فنقوّضها ، والى الكنائس والمعابد فنخربها وندمرها . اجل ! لتمحُ آثار الاقدمين ، اذ لا معنى لها ولا صواب ؛ ولان كل ما ندعوه مفاخر ومآثر ، انما هو مضاحك ومهازىء ؛ ولان الذين ننسب اليهم الفضل والكرامة ، لم يكن لهم فخر ، لانجازهم اعمالهم مضطرين . فهل يا ترى للشمس فخر واجر ، اذا اضاءت على المعمورة ؟ وهل للارض فضل باخراجها الاشجار والاثمار موفورة ؟ وهل للاسد مجد اذا ارعد بزئيره فرائص حيوانات البقاع المهجورة ؟ فكذلك ، لا فضل ولا قدر لكبار الرجال — بمعزل عن الاصاغر — في ما جاءوا به من المفاخر ، ان لم يكونوا احراراً .

أضف الى ما تقدم اننا اذا ازلنا الحرية ، اصبحت المحاكم باطلة ، والعدالة ظالمة جائرة . اذ ما الحجة على اصابة رأينا في تحبيذنا افعالا وتقبيحنا افعالا ؟ لِمَ يا ترى نذم الكبرياء ، والبخل ، والحسد ؛ ونمدح التواضع ، والسخاء ، والمحبة ، ان كان الانسان خلوًا من الاختيار ، خاضعاً لحكم الضرورة والاقدار ؟ ، باي حق ننزل القصاص في من ندعوهم مذنبين ، اذا كان اعتقادنا انهم مقدمون على اعمالهم مضطرين ؟ ما الفرق والحالة هذه ، بين السارق والحيوان المفترس ؟ ما الاختلاف بين القاتل والنمر الضاري ؟ ما المميز بين العصاة الثوار ، وبين العواصف القالعة الاشجار ، والزوابع المغمرة السفن في البحار ؟ اننا لا نتأخر عن قتل الوحوش ، وكسر شوكة العواصف ، بما لدينا من الوسائل ، وسائل القوة القاهرة ، كلما وجدنا الى ذلك سبيلًا . ونعم الفعل فعلنا ، اذ المقصود منه صيانة حياتنا . الا اننا ، ان لم نستطع كبح جماح هذه القوات ، بقوة اشد منها ، فلا نرافعها الى المحاكم ، طالبين القضاء عليها بالعقاب ؛ لانه لم يرد قط في تأريخ الدواوين العدلية ان رُفعت اليها دعوى نهب ، او هجوم ، او جرح ، او قتل ، على احد الحيوانات

الضارية ، او الطيور الكاسرة ، او الحشرات السامة . كل ذلك لعلمنا اليقين انها تنزل المضار عن غير اختيار . اما الانسان — والانسان وحده — فنعامله غير هذه المعاملة ؛ لاننا واقفون على ما يترتب عليه من المسؤولية ، الفارضة الحرية . فلولا هذه الخاصية ، خاصية الحرية ، لما اقيمت المجالس والمحاكم ، ولا مُنحت مكافآت على المكارم . ولا انزل القصاص في مقترفي الجرائم .

ومن هذا كله يظهر ، باجلى بيان ، ان في الانسان وجوداً للحرية ، شاء ام ابى المكابرون . واذ قد اثبت الدين والعقل وجود الحرية ، ساغ لنا التخطي الى استطلاع ماهيتها .

٢

ماهية الحرية

في صدد هذا ضلال قل من لم تزل قدمه في وهدته ، وهو ضلال الذين يظنون ان حقيقة الحرية متوقفة على تخير المرء بين الخير والشر ، او في قيام الارادة متوازنة بينهما ، شاعرة بالقدرة على الميل الى احدهما ، دون اضطراد . وهذه هي الطامة الكبرى . لكون قابلية الجنوح الى الشر ليست من مقومات الحرية ، بل من توابع حالتها الحاضرة ، اي الساقطة ، التي فيها يجد المرء نفسه اميل الى الشر منها الى الخير . اما حد الحرية ، من باب الاطلاق ، ولا من باب النقصان والوهن ، فهو قابلية العمل ام تركه ، او المقدرة على اختيار احد خيرين متساويين او متفاوتين . ولذا يمكنا القول عن الرجل الحائز هذه الحرية انه عائش على الارض كما يرفرف الطير في الهواء ، او كما يسبح

السمك في الماء . افيجوز ، والحالة هذه ، الادعاء بان الطير حبيس في في الهواء ، او ان السمك سجين في الانهار ؟ كلا ! بل الاولى قولنا بان السمك مائت ، لا محالة ، اذا اخرج من الماء ؛ والطير بائد ، دون شك ، اذا حُبس عنه الهوآ . وهذا الشأن هو شأن الانسان . فانه اذا عاش منعطفاً الى الخير ، تمتع بحياة الحرية ؛ واذا جنح الى الشر ، مات موت العبودية .

ومما يزيد في مبلغ بيان هذا مبلغاً هو المغبات السيئة الناشئة عن انكاره وفي طليعتها حصول التناقض ، لا بل التنافر ، بين طبيعة الانسان ، وطبيعة الحرية . لانه ، لو كان كمال الحرية قائماً في اختيار الشر ، لكان كلما ازداد المرء صلاحاً ، نقص حرية ، والحال ، من المقررات ، بدليل الاختيار ، ان ابن آدم ، كلما قمع اهواءه المنحرفة ، جادت اعماله ، وتحسنت صفاته . وبقدر ما يكسر من شوكة رذائله ، يضعف فيه ميله الى الشر ، ويقوى انعطافه الى الخير . مما يمكن الجزم معه بسابق علم ادبي ، ان الرجل الذي تدرب في طريق الفضيلة ، اذا عرض عليه الخير والشر ، في وقت من الاوقات ، اندفع غاية الاندفاع الى الخير ، نافراً من الشر النفور كله . فاذا كان الامر كذلك ، افيا ترى من الصواب ان يقال عن هذا الرجل الهائم بالخير انه خال من الحرية ، وان الرجل المائل الى الشر حاصل عليها ؟ كلا ثم كلا ! بل يسوغ لنا ، بعكس ذلك ، ان نطلق القول بان اوفر الورى حريّة اسماهم فضيلة وقداسة . ودونك بعض الامثلة ، تعزيزاً لهذه القضية التي هي من الخطورة بمكان :

نحن النصارى نعلم ، من تعاليم ديننا ، ان طائفة من اولياء الله قد عصموا من الخطيئة ، واثبتوا في حال البرارة ، بانعام ربّاني خاص ، مما جعلهم يميلون الى الخير ميلاً ، جاز لنا معه التأكيد بعجزهم عن الهيام في اودية الضلال ، وركوب متن المعاصي ، فهل يا ترى جآء هذا

الانعام سبباً لحرمانهم من مزية الحرية ؟ امنا العذراء مريم ، عليها اشرف السلام ، لم يكن الشر ليفعل في ارادتها ادنى فعل ، مهما كان طفيفاً ! فهل كانت لذلك غير متمتعة بالحرية ؟ ويسوع ربنا ، لاسمه السجود ، لم يكن قادراً على اتيان اي عمل شابه من القبح ولو ظله ؛ فهل قام ذلك حائلاً دون مطلق اختياره ؟ والله رب العز والجبروت ، المجتمعة كمالاته في وحدة طبعه ، والعاجز عجزاً مطلقاً عن الشر ، مهما كانت صبغته ، فهل من قائل بعدم حريته ؟

فاذا اتضح ذلك ، قلنا : كلما اقترب الانسان من مُثلى الكمالات الالهية ، فقد اقترب من مثلى الحرية المطلقة . ومتى وجدنا رجلاً مائلاً الى الخير ميلا ينفر معه من مجرد تصور الشر ، نفوراً يكاد يكون غريزياً ، لزم ان نقضي جازمين انه قد حقق في نفسه مثال الحرية البشرية الكاملة ؛ وانه جدير ان يلقب بالحر حرية مطلقة . فاذن قابلية اصطفاء الشر ليست من كمال الحرية ، بل هي من نتائج حالتها الحاضرة ؛ هي من حاصلات ضعفها وكللها . ولا من مفاعيل قوتها وشدتها ؛ هي من افاتها ، ولا من منافعها ؛ هي مبدأ انحطاطها ، ولا عنوان تقدمها ورقيها ، وان رمنا دليلا حسياً ، واقعياً ، فوق هذه الادلة ، وجدناه في الذين ينكرون هذه الفكرة ، وهذا الناموس ، ناموس الحرية الخيرية ؛ فان حال شرهم وانحطاطهم ، لاقوى شهادة على ما نحن في صدده . وذلك لان صانع الشر من تلقاء نفسه . وبتعمد منه ، ينقص فيه الحرية بدل ان يزيدها . وكلما تمرد المرء في ارتكاب المساوىء ، واعتاد الرذائل ، قعدت به حريته ، وهذا ، قد حصر الكتاب العزيز سر حقيقته ، بقوله « من ارتكب الخطيئة . فقد صار عبداً للخطيئة . »

على ان الله خلق الانسان متصفاً بالنطق ، فجعله نطقه اليفاً ؛ وصيرته الفته عضواً في جسم الانسانية ، فكان له حياتان : حياة انفراد ،

وحياة اجتماع ، مما انشأ فيه حريتين : حرية فردية ، وحرية اجتماعية . فالفردية هي التي رايناها . فما عسى ان تكون الحرية الاجتماعية ؟ هي عين الحرية الاولى ، مع هذا الفرق وهو ان الحرية في الفرد سير ارادة واحدة في سبيل الخير ، واما في المجتمع ، فهو سير ارادات متعددة ، في تلك الطريق ، باشتراك وتضامن . وكما ان الفرد كلما ازدادت حريته ، تضاعفت خيريته ، فالمجتمعات الاكثر حرية اجتماعية هي المجتمعات الاسبق جرياً في مضمار الخير ، والاقوى سلاحاً لصد هجمات الشر .

قلنا « لهجمات الشر » لان من حقوق الخير ، بعد وجوده ، ليس العمل دون عائق وحسب ، بل الوقوف في وجه الشر ، منعاً له من انزال المضرة فيه ، وهذا الحق مصدر كل حرية صادقة وعدلة . فان اهتضمت ، تقوّضت اركان الحرية الاجتماعية . وعليه ، فالقاعدة الاساسية لحياة الشعوب الحرة ، هي ان يسير القوم في محجة العدل ، طبقاً للنظام ، وبروح المحبة ، دون ان يلحقهم ادنى اذى من قبل الظلام ، واعداء السلام ، ارباب الثورات الهدّامة المشؤومة . وحيث تصان الحقوق وتراعى الآداب ، ويعيش المرء بمأمن من كل سوء ، فهناك يهنأ الناس بنعمة الحرية ، الا ان هذه الحالة ، حالة جنة الخلد ، لم تفضل بها الطبيعة علينا ، ولا رضيت بها العناية نصيباً لنا ؛ لما لا نزال نراه من مهاجمة الشر للخير ، في هذه الدار الفانية . وهذا ما كان سبباً في انشاء المحاكم ، على اختلاف اصنافها ، وكل جماعة خلت من سلطة تقيم قسطاس العدل امست مسرحاً للظلم والجور . وما الغاية من القوة الحاكمة سوى صون الحقوق ، ونشر لواء الحرية . مما دلت عليه آية التنزيل العزيز القائلة على لسان الرسول المصطفى : « ان الملوك هم خدام الله للخير . »

هذا واذ سطعت انوار حقيقة الحرية الصادقة ، هان علينا ان نبدد باشعتها ظلمات الاباحية ، اي الحرية الكاذبة الفاسدة التي قوامها الضلال ، وغايتها تضليل العقول ، وافساد القلوب . تلك الاباحية التي يحاول بها

ناشرو لوائهـــا مساواة الحق بالباطل ، والرذيلة بالفضيلة ، والنجاسة بالقداسة . تلك الاباحية القاضية بان تعتبر السلطة الشرعية هذه المتناقضات على حد سواء في الالفة ؛ اي ان تمنح حقوقاً متعادلة للدين والالحاد ، للآداب الصالحة والآداب السيئة ؛ او بكلمة واحدة ، للخير والشر ؛ وان تبيح لارباب الكفر والخلاعة تضليل الناس بارائهم السقيمة وافسادهم باقوالهم وافعالهم السمجة . هذه هي المبادىء الوخيمة التي يبذل اهـل الضلال العصري قصاراهم في تنفيذها بين الورى ، باسم الحرية . الا ان هذا لا يقبله العقل السليم ، ويشجبه الدين القويم ، وينفر منه كل امرىء فيه بقية من شرف الانسانية . وذلك لان الشر لا حقّ له بالوجود ، لانه غير موجود ، وليس هو سوى نفي الخير ، وعدم الوجود .

هذا وعلى فرض اننا سلمنا بالاباحية ، ومنحنا للشر ما نمنحه للخير من الحرية ، افيقف الشر عند حده ، ويرضى بنصيبه ؟ كلا ! فان الاختبار والتاريخ دليلان واضحان على ان الشر من طبعه قاهر ظلاّم . لا يكتفي بما قُسم له ؛ ومن فطرته الاعتداء على الخير ، وهضم حقوقه . ولكان محا الخير ومحقه لو بلغته الى ذلك ذريعة . ولذا فحيث ضربت الاباحية اطنابها . تفرقت مبادىء الخـــير ايادي سبأ ، وتشتت شمل النظام ، والعدل ، والحرية ، فقرىء السلام على الالفة الاجتماعية .

٣

الدين نصير الحرية

ينجم مما تقدم ان اعظم الحريات ينبت زرعها في تربـة اعظم الخيرات وفي اصلح المجتمعات . اذ ان مَربَى الحرية الصلاح ؛ ومـا

الصلاح الا فضل من افضال الدين الذي من اركانه الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فالدين اذن نصير الحرية، لكونه ينبوع الخير، والضروري وجوده لسير الحرية، بأمن من كل ضير. وهذا مفصله:

من مطلبات الصلاح المرغوب فيه لحياة الحرية، في الالفة الاجتماعية، ان يقوم كل فردٍ من الافراد، وكل فئة من الفئات، باعبآء ما يحتمه عليهم الواجب الاجتماعي. فمن كانت بيدهم مقاليد الامور، ينبغي ان يكون العدل شعارهم، واساساً لحكمهم؛ والظلم مكروها في عيونهم، وخارجاً عن اعمالهم. واما الباقون، فيلزمهم الخضوع لأوليائهم، وادآء الخدم المفروضة عليهم، للمصلحة العامة. بيد ان هذه العلاقات، بين الحكام والمحكومين، لا تعود بالفائدة المنشودة، الم يكن لها ضابط يضبطها، خشية ان يجنح اوليآء الامر الى الاستبداد، او يرفع الشعب لوآء العصيان؛ اي يجب ان يكون هناك، فوق الادنين والاعلين، شرائع وقوانين يحترمها الجميع، كل في مقامه، وبذلك تحصل المقدمات للحرية الاجتماعية الحقة. والحال، ليس من كفيل يحقق هذه المطلبات، سوى الدين. اذ انه، بفضل تعاليمه الآلهية، يرقى بكل شريعة الى مصدرها الاول، وهو ارادة الله، واحكامه الازلية، المدبّرة الكائنات، مها كان نوعها، ولانه يفصل بين النواميس فصلاً ناشئاً عن الحكمة، باعلانه ما فيها ازلي، ثابت، غير مشوب، على تعاقب الادهار، وتطور الاحوال، اعني به النواميس الطبيعية، والسنن الآلهية؛ وببسطه ما فيها وضعي، بشري، تابع لمقتضيات المكان، وظروف الزمان، كالشرائع والقوانين المدنية. فان الدين لا يجزم فيها بشيء البتة؛ بل يدع الحرية جائلة، عاملة، في حمى السلطة الشرعية. وتراه في ما ينوط بنظام الحكم، لا يظهر مأثرة طريقة على طريقة اخرى؛ ولا يحدد عقيدة لا مرد لها. فلا يأمر بالحكم المطلق، او المقيد، او بالجمهورية؛ بل يفسح المجال لكل شعب، فيختار النظام الموافق لمشاربه الاجتماعية، او

مأثوراته القومية ، اضف الى ذلك ان الدين لا يتسرع في الامور ، بل يتربّص منتهزاً الفرص الملائمة ؛ خلافاً لروح الثورات المتهجم المتهور ، واذا كان الدين صادراً عن الله ، تجده متخذاً ، في اعماله ، طريقة الله ذاتها ، وهي ان يترك الامور تجري مجراها ، وسنن الاخلاق تأتي مأتاها . وعملاً بهذا المبدأ ، لا يضغط على حرية القوم ، بل يتوقع الازمنة المفيدة . ومثله في ذلك مثل البستاني الذي يصبر على الشجرة حتى ايام الموسم ، فيقبل عليها وقد نضج ثمرها ، فيجنيه ، ويأكله يانعاً ، شهياً . ومن خواص الدين ، في سنه الشرائع ، المقصود منها تحرير الشعوب ، انه يجتزىء بالنظريات العقيمة ، بل يبذل جهده في ايجاد الحرية المحسوسة ، في الحياة المألوفة . وهي الحرية المدنية المتوقفة على ان يباح لكل احد اتيان الاعمال المشروعة التي لا تجحف بحق الغير ، ولا تنزل المضرة به .

اما ارباب الحكم ، فان الدين يدرّبهم في مسالك الصلاح ؛ وبذلك يجعلهم لائقين بمقامهم ، وقائمين بفروضهم احسن قيام . اذ معلوم ان افضل الحكام مَن تحاشوا الشر والظلم ، ومهدوا للامة سبل الخير ، والحرية المرغوبة . والحال ان هذه الصفات الحسنة لا تتحقق في اولياء السلطة ، الا اذا كانوا سائرين بموجب احكام الدين . فان روح الدين يدفعهم الى معاملة الرعية ، لا معاملة السادة للعبيد ، بل معاملة الآباء للبنين . تعليم الدين ان الرؤساء وكلاء الله . فنعم الوكيل من تشبه بموكله . والحال ان ربنا مع كونه خالق الاكوان ، ومالك رقاب العالمين ، قد اراد ان تكون صلتنا به صلة البنوة بالابوة ؛ فعلمنا ان ندعوه : ابانا الذي في السموات . واذا كان الرؤساء الاباء والمرؤوسون بنين ، فاحرى بالامة ان تصبح بمثابة عائلة . وهل يا ترى من شيء اخلق بالحرية من حالة الابناء الخاضعين لسلطة ابائهم . وتلك السلطة التي منشأها المحبة ، فضيلة السعي في خير القريب ، وخدمة مصالحه ؛

وهي التي قد وضعها السيد المسيح اساساً لتحرير الشعوب بقوله : « من اراد ان يكون فيكم كبيراً ، فليكن للكل خادماً . » هذا وان كان بعض ذوي الشوكة والصولة ، من تبعة الدين ، قد اساءوا التصرف بما سُلم لعنايتهم ، فلم يكن ذلك من نتائج الدين ، بل من وهن الطبيعة البشرية ، واعتساف الحرية . وما من ملك ، او امير ، عَدَل عن محجة العدل والحق ، وتمادى في اعمال الظلم والجور ، الا وقد سبق فنبذ ورآء ظهره شرائع الدين المقدس .

ثم ان من شأن الدين ان ينشىء احسن المرؤوسين ، باعداده الافراد لقبول السلطة والخضوع للقوانين ، خضوعاً مصدره اليقين ، وطيب السريرة ، وحسن السيرة ، وبهذا يمهد لهم السبيل الى عيشة الحرية الحقة ، الفارضة وجود سلطة حاكمة ، في كل الفة خليقة بهذا الاسم ، اذ ليس من شعبٍ حرّ ، حرّية صادقة الا اذعن لرئاسة ، لان النظام الضروري لحياة الحرية ، يتطلب ائتمار الادنين باوامر الاعلين ، وهذا ما نلاحظه في نفس الآلات الصمآء ، التي لو حاول احد دواليبها التمنع من الانقياد للدولاب الاعلى ، لنشأ الاضطراب ، ووقع العطل في الجهاز كله ، ومن ثم فلا شيء أضر بروح الحرية المقدسة من روح الاستقلال الموهوم ، او الاباحية المرذولة . وبالعكس ما من حرّية حقيقية الا جرت اعمالها ضمن دائرة السلطة الشرعية .

هذا والخبرة تفيدنا انه مهما كانت الحكومة مقتدرة ، وارباب ذوي حنكة سياسية ، فلا سبيل لهم الى قيادة شعب قد خلت منه الفضائل الادبية ، وفشت بين ظهرانيه الرذائل وليدة الاهواء الدنيئة . وعليه ، فمن اراد ادارة قوم ، تحتم عليه ان يعدّه لهذه الحالة ، وبذلك يهبه الحرّية . والحال ان هذا لا يحصل الا بفضل الدين وقوته . لانه ، كلما انتشر روحه بين امة ، حمل ابناءها على الاستسلام الى تدابير مدبريهم ، اذ يكون قد سبق فعوّدهم السلوك في طريق

الفضائل المطلوبة ، وعلمهم خاصةً ثلاثاً منها : لا مندوحة لشعب من امتلاكها ، والعمل بها ، وهي : المحبة للقريب ، والاحترام للرؤساء ، والاذعان للقوانين . واذا كانت هذه الحال الفضلى حال الجماعة ، هان الامر على اوليائها ، وكفتهم مؤونة العمد الى ذرائع القسر والعنف ، وبذلك يحصل النظام ، وتسود الراحة ، وتملك الحرّيـــة ، ويستتب السلام . مما يمكن القول معه ان لا حرّية اجتماعية الا بالانقياد ؛ ولا انقياد ، دون الفضيلة ؛ ولا فضيلة حقيقية ؛ دون الدين ؛ ولا دين ، الا بتملك رب الدين ، في حياة الافراد وحياة الجماعات البشرية .

زبدة المقال هي ان الحرية صفة من صفات الانسان ، خاصـــة بطبعه ، وضرورية لاعماله ، بيد ان الحرّية حرّيتان : حرّية كاملة حقة ، وهي تخير الارادة الاشيآء الخيرة ، في طريق الصلاح ، وحرّية ناقصة موهومة ، وهي الاباحة للفرد ، والجماعة ، باتباع الشر ، واقامته في الالفة ، بازآء الخير ، بل فوق الخير . وهو ضلال لا يقبله العقل ، ولا النقل ، ولا الدين ، اذ ان الدين نصير ، والمحـــامي عن حقوق الحرّية ، والمساعد للبشر على العيش باطمئنان ورفاهية ، مما ينجم عنه ان لا حرية الا حرية ابناء الله السائرين تحت ظلال الدين القويم ، وبهذه الحرية الصحيحة ، لا بالاباحية الممقوتة ، تقوم الحضارة المثلى والتقدم المفيد ؛ والروح العصري المقبول ، وهي كافلة النجاح والفلاح في سبيل الكمال المادي ، والمعنوي ، والمدني ، والديني . والسلام .

الدين وقوام الالفة الاجتماعية

الالفة الاجتماعية بمثابة جسم عظيم . فكما ان الجسم تتضامّ فيه الاعضاء ، متكاتفة ، مشتركة في ادآء الاعمال اللازمة لقوام الحياة ، فعلى هذا النسق ترى افراد الالفة مجتمعين ، متآزرين في القيام باعبآء ما تتطلبه حياة الاجتماع . وكما ان في البدن عضواً مهماً هو مركز القوى ، والقائم بادارة جميع الاعضآء ، ففي الالفة ايضاً نجد قوة مركزية هي بمنزلة الرأس من جسم المجتمع ، الا وهي السلطة التي من شأنها اصدار الشرائع المقصود منها الخير العام . وهذا امر طبيعي بديهي ؛ اذ غير بعيد عن فكر نبيه ان هذه السلطة لم تنشأ ، في كل زمان ومكان ، الا بقوة طبيعة الاشيآء . ولهذا فالسلطة ضرورية ، لانه بدونها لا ينجم الا الخراب ، وليد تنازع الافراد ، وتنافرها ، وتفرقها .

هذا ، وما من مراقب سرّح رائد الطرف في فضاء المجتمع الانساني ، الا لاحظ في افراده تبايناً في المقدرة ، وتراجحاً في المنزلة ؛ وهي حالة ملازمة الانسان ، دون انفكاك ، منذ نشأته نشأة اجتماعية . الا ان تلك الحالة ، مع ما فيها من الخواص الطبيعية لا تروق في عيون من يدّعون الاصلاح في هذا العصر ، ويرون لزوم قلب الاحوال من اهمّ الافعال ؛ واستئصال كل قديم ، وان كان مجتمع الكمال ؛ لظنهم ان الالفة سائرة على غير مـــا يرام ، وان قوامها الطبيعي في التوازن العام ، بين سائر الافراد ؛ وفي مطلق الاحوال ؛ وان التراجح المشاهد الآن ان هو الا نتيجة النظام القديم ؛ المتحتم تقويضه ؛ لاعادة الالفة الى الحالة الملائمة لطبيعتها .

اما الدين القويم ، فالواضح لديه ، وضوح الشمس في رائعة النهار ، هو ان بين البشر تشابهاً وتعادلا بالطبيعة . واما في حياة الاجتماع ، فقد كان ولا يزال بينهم تباينات جاءت وفق النواميس الطبيعية ، وبمقتضى الاحوال الانسانية . ولذا فما يجدر بنا اثباته في هذا المقال ، استناداً الى مبادىء الدين ، المعززة باحكام العقل والاختبار ، هو هاتان القضيتان وهما : الالفة قائمة على التوازن في المقامات والحقوق الطبيعية ؛ والالفة قائمة على التراجح في المقامات والحقوق الشخصية .

١

الالفة قائمة على التوازن في المقامات والحقوق الطبيعية

مما لا مرية فيه ان لكل خليقة طبيعة ، ولكل طبيعة مقاماً ، ولكل مقام حقوقاً . فاذا اختلفت الخليقة عن غيرها ، اختلفت طبيعتها ، ومقامها ، وحقوقها . وبالعكس اذا توحّدت الخليقة ، توحّدت بذلك الطبيعة ، والمقام ، والحقوق . والحال ، ان ما لا يفتقر الى دليل هو وحدة الطبيعة البشرية ؛ مما ينجم عنه وحدة مقامها ، ووحدة حقوقها . فالخلق اذن ، لتعادلهم في الطبيعة ، متعادلون في الخواص ، والمقامات ، والحقوق الطبيعية .

هذه هي الحالة حالة الناموس الفطري . الا ان البشر قد شوهوه بقلبهم نظامها . واستمر هذا الاختلال الى بزوغ شمس الدين المسيحي . فعند الهنود كان الناس ، ولا يزالون ، منقسمين الى طوائف او لفوق . ومن معتقداتهم ان طائفة الكهنة قد انبثقت من دماغ « براهما » كبير

آلهتهم ؛ مما جعلهم متأثرين بالاعمال الفكريّة ، كالعلوم والفنون . وغيرهم قد صدروا من صدر « براهما » وهم فريق المحاربين ، الذين من شأنهم الذب عن حياض الوطن . وآخرون خرجوا من جوف «براهما» وهم الحرّات والصناع . وادنى طبقة بين البشر ظهر اعضاؤها في الوجود عن طريق رجلي « براهما » وهم ارباب المهن الحقيرة . على انه مع ما في هذا التنسيق من هضم الحقوق ، فلا اقل من ان واضعيه او متخيليه قد حافظوا بعض المحافظة على المقام البشري وشيء من شرفه ، بعزوهم الورى الى اصل الهي .

اما اليونان والرومان ، فقد كان المجتمع عندهم مؤلفاً من طبقتين : طبقة السادات ، وطبقة العبيد . ومما يقضي بالعجب العجاب ان فلاسفتهم اعينهم كانوا موافقين على هذا الضلال الاجتماعي ، بل دافعين الناس الى السير بموجبه . حتى ان زعيمهم الاكبر ، ارسطو الفيلسوف الشهير ، قد جارى في هذا الشأن ، اهل عصره مجاراةً حملته على القول بان نفس العبيد ليست كنفس الاحرار . وهؤلآء العبيد ، وان اطلق عليهم اسم البشر ، فقد كانوا معدودين في جملة الانعام ، يُشترون ويباعون كالسلع ، ويُستخدمون لاشق الاشغال ، ويذاقون الوان العذاب ، بل يفتك بهم فتكاً ذريعاً . ولم يكن ذلك من باب الشذوذ ، بل كان قاعدة مطردة ، تثبتها الشرائع المدنية ، وتقرها الاحكام الدينية ، ويعتبرها الجمهور حالة طبيعية ، لا تُستغرب ولا ينفر منها .

اما الدين المسيحي ، فما كادت انواره تسطع على العالم حتى اخذ يناهض هذا الضلال ، باجهاره بين الناس انهم جميعاً اولاد اب واحد ، متشابهون في الطبيعة ، متساوون في المقام البشري ، متمتعون بحقوق واحدة .

على ان الدين يعلمنا ، فضلاً عن هذا ، ان مرجع البشر ايضاً واحد ، لانهم مدعوون الى غاية واحدة وسعادة واحدة . مما خوّلهم في

ذا الشأن حقاً واحـــداً ، حقاً من اهم الحقوق بتفوقه عليها خطورة وفائدة ، ولاستناده الى جودة الله وحكمته وعدله ؛ فانه عزّ وجل لأعدل من ان يحرمنا من نيله ؛ والا لنفيت هذه الصفات منه ، وهي صفة الجودة الراغبة في الخير لكل كائن ؛ والحكمة الجازمة بوجوب بلوغ كل مخلوق غايته القصوى ؛ والعدل القاضي باعطاء كل ذي حق حقه .

على ان التعادل بالمكافأة يتطلب التعادل في مكابدة القصاص . وبالحق ان البشر يعاملون في ديوان الله دون محاباة ، كل حسب اعماله . لا نجحد ان في العالم الحاضر لا يظهر عدل الباري كما هو ، لاننا نرى المنافقين متوشحين بجلباب الشرف والاعتبار ، راتعين في بحبوحة الهناء ، سالمين في عيشهم ، ناجحين في سعيهم ؛ مما يثير ثائر الناقصين راياً وايماناً ؛ فيحملهم على التذمر والتشكي من العدالة الالهية . بيد انه قد فات هولاء ان الله قد احتفظ له يوماً ، يدعى يوم الرب ، فيه يعاقب من اساءوا التصرف بخيراته ، وينتقم للمظلومين من الظالمين . وربما يحل ذلك اليوم ، يوم التعادل بين الخلق في كل شيء ، قد ساواهم الاب في ابنه يسوع الفادي . لان الحياة الحقيقية ، في نظر الايمان ، ما هي الا حياة المخلص فينا وحياتنا فيه ، وكما ان الاعضاء كثيرون والجسد واحد ، فهناك ايضاً مسيحيون كثيرون ، والمسيح واحد . هذا ما علمه الرسول المصطفى ، وما اعتقد به المؤمنون ، مما حمل هـذا الرسول العظيم على القول : « ليس بعد يهود ولا يونان ؛ ليس احرار ولا عبيد . » اجل ليس بيض وسود ؛ ليس كبار وصغار ؛ ليس اغنياء وفقراء ؛ ليس علماء وجهلاء ؛ ليس تفاوت بل تعادل ؛ لان الجميع قد اصبحوا واحداً بالمسيح ، لاصطباغهم بصبغة معمودية واحدة . واذ كان المسيح مساوياً لذاته ، فقد اصبح تلاميذه متكافئين . وكلهم عظماء ، لنيلهم العظمة من ابيهم الوحيد العظيم ؛ وكرامتهم واحدة ،

لكونهم ابناء اب واحد ، واخوة اخ واحد ، هو المسيح ؛ فلم يعد فرق بينهم ، ولا فضل لاحدهم على صاحبه . ولذا فالمسيحي المتشح بالثياب الناعمة ، والمسيحي المتزمل بالاطمار ، لابسان ثوباً واحداً ، لان ثوبهما هو المسيح .

وهذه الوحدة بالمسيح جعلت ان يكون الايمان واحداً للجميع ، خلافاً لما نراه بين علمآء هذا الدهر الذين يحتقرون عامة الناس ، معتبرين نفوسهم حكرة العلم ، وامرآء الفكر والكلام . في الدين المسيحي ليس تعليم للعلمآء ، وتعليم للجهال ؛ لان في دستور الاعتقاد من البساطة ما يهين تلقيه على العامة ، وفيه من السمو ما تستطيبه عقول الخاصة . فالتعليم واحد للكل ، لان الكل في عين المسيح على حد سوآء . وكذا القول في الرئاسة ، فهي في الكنيسة الكاثوليكية ، واحدة على الجميع وللجميع ، هي على سائر المؤمنين لانتشارها في العالم باجمعه ، وتناولها كل مسيحي ، دون استثناء . وهي ايضاً للكل ، لان المسيحيين قاطبة مهما كانت حالتهم ، ومنزلتهم المدنية — اغنيآء ام فقرآء ، اشراف ام خاملين ، من الخاصة ام من العامة — يسوغ لهم الانخراط في سلكها ، لا بل الرقي الى اعلى مراتبها ، اذا دعاهم الله الى ذلك . ومن ثم ، فاذا رأت الكنيسة ابن احد الفعلة اهلاً لان يتبوأ منصة اسمى الدرجات الكنسية ، رقته اليها ؛ فيصبح بذات الفعل اباً ، ومعلماً ، وملكاً للعالم الكاثوليكي باسره . وما قولنا الان في التوازن الذي انشأته في المعمورة تلك الفضيلة السامية التي جآء بها السيد المسيح ، وشمل بها البشر برمتهم ، وهي فضيلة المحبة . فان البشر من باب الاطلاق لا يمكنهم ان يحبوا احداً الا مالوا الى بغض الآخر . اما الرب الفادي ، فقد وجد طريقاً لحل هذه المعضلة برفعه جميع الناس الى مستوى محبة واحدة ، ترقى بهم الى قمة مجد واحد ، وسعادة واحدة . فانه لم يأت الى البشر اتيان السيد الى عبده ، بل نزل اليهم من سمائه ، نزول

الاب الى اولاده ، والاخ الى اخوته ، والصديق الى اصحاب متساوين في عينه . وهذه المحبة الشاملة كانت مصدر كل ما عمله الرب لاجل فدآء البشر .

٣

الالفة قائمة على التراجع في المقامات والحقوق الشخصية

لقد قيل : الامثال حكمة الشعوب . ونعم القول ! لان الامثال والحكم زبدة الخبرة المتواصلة . ومن جملة تلك الحكم حكمة فلاسفة الاخلاق القائلة : « خير الامور اوسطها . » وطبقاً لهذا المبدأ جاء الحق سائراً في محجّة الطريق ، غير زائغ الى احد الطرفين ، حيث الضلال . والحقيقة التي نحن في صددها قائمة في الوسط ، يكتنفها ضلالان : الاول هو الذي دحضناه باثباتنا حقيقة التوازن الطبيعي بين الورى ؛ والثاني هو ضلال غلاة ابنآء هذا العصر ، المحاولين نقل البشرية من التعادل الطبيعي الى التعادل الشخصي ؛ وهو ، كالذي سبقه ، ضلال ينكره العقل ، ويرده النقل ، وينفيه الدين .

يختلف اعتبار الانسان ، لاختلاف احواله . فان نظرنا الى المرء نظرنا الى فردٍ منفصل عن بقية اقرانه في البشرية ، جاز لنا القول بان صفته الانسانية دليل على تساويه بغيره . اما اذا لاحظنا الجماعة المنضم هو اليها ، اضطررنا الى الاقرار بان هولآء الاشخاص ، الذين

هو واحد منهم ، وان تعادلوا وهم منفردون ، فلا يلبثون ان يتراجحوا في المنازل والدرجات ، حالما يأخذون في الاجتماع . لان من المحال انشآء جمعية خالية من نظام وتنسيق . على ان من مطلبات التنسيق وجود التعاون في المقامات ، مما ينجم عنه ان التراجح الاجتماعي ليس من محسنات الاشيآء وحسب ، بل من جوهرها وقوامها . فان البشر كانوا وما يزالون ولن يزالوا متباينين في القوى البدنية ، والعقلية ، والادبية ، وفي الاحوال الشخصية ، والمالية ، والاهلية ، والقومية ، والامية . وقد بدأ هـــذا التراجح مع بدء العالم ، ولا يزال يتجدد بتجدد الجماعات والحكومات . وسببه بادٍ لكل ذي عين . فان الناس ، وان كانوا متوازنين من حيث الطبيعة — وهذا مجد الجنس البشري — الا انهم متفاوتون في الخواص ، والاقتدار ، والقيمة الشخصية — وهذا فخر الافراد ومجدهم واجرهم — وهذا الذي احدث في الالفة قوات متباينة ، كانت داعيـاً لوجود مقامات اجتماعية مختلفة .

على ان هناك من يقول : كفى تساوي البشر في البشرية ، ليعتبر كل انسان كصنوه الانسان . ان هذا القول لقول وجيه ، الا ان صوابه من وجه دون وجوه . فما رأي المعترض في من يدعي ان كل وردة كبقية الورود ؛ وكل شجرة كغيرها من الاشجار ؛ وكل نجم كسائر النجوم ، اي ان جميعها على حد سوآء ؟ اجل ! انها متعادلة في شيء ، وهو الطبيعة ؛ لكنها مختلفة في اشيآء اخرى وهي الخواص الفردية . لان كل وردة ليس لها رونق وعطر كل الورود ؛ ولا كل شجرة متصفة بما ازدان به غيرها من القوة والارتفاع ، والنضارة ، والثمرة ؛ ولا لكل النجوم حجم واحد ، ونور واحد ، وبعد واحد ؛ ولا كل حيوان حائز كمالات جميع الحيوانات . فكذلك البشر ، مع كونهم متعادلين في الطبيعة ، ليس لكل منهم ما لغيره من القوى البدنية ، والمزايا العقلية ، والفضائل الادبية .

زد على ذلك ان من مسببات هذا التراجح حالة الطبيعة الخارجة عن الانسان ؛ فان تصرفها نحو الواحد ، غير تصرفها نحو الآخر . فعلى هذا الرجل تظهر شفيقة رحيمة ؛ وعلى ذاك ، شديدة ، قاسية . تكلل بالخصب اتعاب هذا الفلاح ، فيعيش عيشاً رغيداً ؛ وتقطع آمال الآخر بالجدب والغلاء فيقع في البلاء .

وهناك ايضاً داعي اختلاف درجات المواهب الطبيعية في الناس . فان منهم من يخلقون كالنسور فيدنون من شمس الحق ، والجمال ، والعظمة ؛ ومنهم من يسيرون بخطوات بطيئة ، وبعد جهد وعناء كثير ، لا يتوصلون الا الى ما نزر . منهم من ينصب على تحصيل العلوم والفنون ؛ على حين ان غيرهم يقضون اوقاتهم بالبطالة والهذيان . وما يقال عن العقول ، يمكن تطبيقه على الاخلاق ؛ فان الناس يختلفون فيها اختلافهم في غيرها . اذ هناك انام يقدمون على صعاب الامور ؛ وهناك من يفشلون لمجرد وقوفهم على العقبات . منهم من يجدّون فيتوصلون الى قمع الاهواء النفسانية ؛ ومنهم من تخور عزائمهم ، فيسقطون ، مستسلمين لسلطان الاميال الدنية . وكم من الذين يقضون الايام والسنين ، تارة شجعان ، مقدمين ، غالبين ، مكللين ؛ وطوراً جبناء مدبرين ، مغلوبين ، مخذولين . وناهيك ما للجسد من نفوذ في هذه المعارك ، لما هو عليه من شدة التأثير ، ولما له من الدخل في مجاري الحياة . فيقف غالباً ، حائلاً دون الرغائب الصالحة ، بما يعتوره من الضعف والخور . هذا ومهما سمت القوى في البشر ، فهي ليست بكافلة لهم النجاح ، والتفوق الاكيد . اذ كم من رجل ذكي ، اديب ، شجاع ، نراه خاملاً وضيعاً ؛ وكم من غبي ، جاهل ، جبان ، نجده رفيعاً ، جليلاً ، مثرياً .

هذه حالة البشر الوضعية ، اي الطبيعية ، فمن اراد ازالة هذا التراجح ، والاستعاضة عنه بالتوازن في المقامات الشخصية ، تحتم عليه ، قبل ذلك ، ان يسعى فيتوصل الى محو كل اختلاف في الثروة ،

والعلم ، والفضيلة ، والاخلاق ، والاهوآء ، والقوى البدنية ، والعقلية ، والادبية ، والحرية . الخلاصة ، عليه قلب نظام الطبيعة ، وتغيير نواميسها واستبدال جوهرها . وهذا مـــا لا يغيب مستحيله على ذي بصيرة . اجل ؟ محال على شرائع الاجتماع مناقضة نواميس الطبيعة ؛ محال اخضاع اشخاص متفاوتي القوى والخصال والكمال لنير تعادل قسري . اذ من ذا الذي في وسعه اجبار رجل نبيه ، شجيع ، همام ، مقتصد ، عفيف ، متفانٍ ، على الهبوط ، في باب الثروة ، والمقام ، والشرف ، الى دركة رجل بليد ، جبان ، قُعدة ، مُسرف ، متهتك ؟ ولِمَ يا تُرى لا يحق للاذكيآء ، والافاضل ، والنوابغ ، التفوق في المنزلة ، والتمتع بما يتصل بها من الفخر والمجد ؟ واذا جاز ذلك للنابغة ، فَلِمَ لا يحـــل له ان يورثه لاعقابه اللائقين به ؟ ومتى حتمت الطبيعة وقضى العدل ان تضطر الاسرة الراقية اعضاؤها ذرى المجـد ، الى الهبوط في دركات الذل والهوان ، لتكون على مستوى العائلات الدنية السافلة ؟ فانت ترى ، ايها اللبيب ، ان هذا التعادل الذي يسعى في تحقيقه ارباب الاوهام ، باسم الطبيعة ، لتتبرّأ منه الطبيعة عينها . لان من شأنها الترقي ، ولاسيما الترقي الاجتماعي ؛ وهذا المبادىء المعوجة تلزمها بالانحطاط والتقهقر . وهو ، والحق يقال ، امر شائن بها ومنافٍ لكل تقدّم وعمران .

اضف الى ذلك السماجة التي يشوّه بها هذا التوازن الاضطراري وجه الالفة . اذ من الامور الواضحة ان لا جمال ، دون نظام ؛ ولا نظام ، دون تساوق ؛ ولا تساوق ، دون تفاوت ؛ ولا تفاوت ، دون اختلاف في الاحوال ؛ ولا اختلاف في الاحوال ، دون تباين في القوى والكمالات الفردية . وبزوال هذه التباينات يزول كل جمال . على ان حالة الكون باسره تناقض هذا الادعآء . فان المبروءات جمعآء ، سماوية كانت ام ارضية ، مزدانة بالنظام ؛ ومن ثم فمتلالئة بانوار الجمال . اذ ما بهآء الملائكة ، لو كانوا كلهم زمرة واحدة ؟ وما رونق النجوم ، لو

كانت كلها سديماً ؟ وما ملاحة الحيوانات ، لو كانت باسرها جنساً فذاً ؟ وما نضارة النباتات ، لو كانت جميعها طائفة منفردة ؟ وما صباحة افراد البشر ، لو كانوا بجملتهم قالباً واحداً ؟ فالذي رتبه الله ، لا يسوغ للانسان ازالته ؛ لما في ذلك من المنافاة للطبيعة ، والحط من قدر البشرية ، والامتهان للحكمة الالهية .

هذا ، وهب ان دعاة الضلال ساعدتهم التقادير ، فانشأوا في الالفة نظام التوازن القسري ، افتظن انه يثبت دون تزعزع ؟ كلا ثم كلا ! فان هذا الوليد ، وليد العقول الضعيفة ، والمخيلات الواهنة ، لا يعتم ان ينال حتفه في مهده ، بسيف الطبيعة ذاتها ، المتأصل فيها الاختلاف الشخصي ، والتراجح الاجتماعي ، اجل ! لا بد للطبيعة من استرجاع قواها ؛ لا بد للذكاء ، والشجاعة ، والفضيلة من استئناف التفوق على ما يعاكسها ؛ لا بد للاهوآء المنحرفة من استعادة ما فقدته من التسلط على المتقاعسين ، فتقعدهم عن اللحاق بالجادين في سبيل التقدم ؛ لا بد من ان تعود الثروة الى ايدي العارفين اكتسابها من ابوابها ؛ وبعودة الثروة ، لا بد من عودة الامتيازات ، ومن ثم فالاختلافات ، مما يزول به التوازن الصناعي ، ويحل ثانية التراجح الاجتماعي الطبيعي . وهذا ما ليس بخافٍ على دعاة هذا التعادل الوخيم . والدليل انه يوم تأجج نيران الثورات ، وحدوث الانقلابات في المجتمع ، بعد ان يصل الثوار الى غايتهم ، فيحين اوان اجرآء التسوية والتعادل بين الافراد ، تجد اولئك المكرة الخونة يحتفظون لذاتهم بالنصيب الاوفر ، فيغتنون وينعمون ، على حين ان الشعب المسكين الذي قادوه في وهاد الضلال فظلموه ، مستفيدين من عماه وغباوته ، تراه باقياً في حال الذل والهوان ؛ تائهاً حيران ؛ بائتاً جوعان عطشان ؛ ساكناً عريان بردان ؛ معترى بالاسقام والافات ، منهوكاً بالامراض والعاهات ، متجرعاً غصص الالآم ، الى ان يشرب كاس الموت الزؤام .

فعلى العاقل ان ينبذ وراء ظهره هذا الاختلال الممقوت . ويقبل ما رتبه الخالق ، وجرت عليه الطبيعة ، وحكم بصوابه العقل ، واقره الدين ، الا وهو التوازن في الخواص والمقامات والحقوق الطبيعية ، والتراجح في الخواص الشخصية ، الناجم عنها المقامات والحقوق في الالفة الاجتماعية . مما يرقى بـه المجتمع في معارج الفلاح ، وتتوطد اركان الحضارة المثلى . والسلام

نفوذ السيد المسيح

في حياتنا الادبية

قبل طرق باب هذا البحث ، نرى من اللائق ، لا بل من اللازم ان نحدد الحياة الادبية . فما ادراك ما هي ؟ لكلمة الادب او الآداب ، في اللغة العربية ، جملة معانٍ ، منها معنى حسن المعاملة والكياسة مع الناس ؛ ومنها دلالتها على مجموع نتاج القرائح في امة من الامم ، سواء كان ذلك في باب النثر او النظم ؛ ومنها اطلاقها على الاخلاق. وهذا هو المعنى المراد من لفظ الادب او الآداب في مـــا نحن في صدده . فما الاخلاق ؟ الاخلاق عادات ؛ والعادات مَلكات حاصلة فينا بتكرار الافعال ؛ والافعال نتاج القوى الانسانية . وطبقاً لهذه القوى ، تقسم الافعال الى انواع : منها الافعال البدنية ؛ ومنها الافعال العقلية ؛ ومنها الافعال الارادية . ولهـــذه الافعال الارادية ميزة خاصة في الانسان ، دون بقية الخلائق ، وهي ميزة الحرية .

على ان لكل حياة غاية ونظاماً . واذا كانت حياتنا ، على اختلاف انواعها مفعولا من مفاعيل قدرة الله الخالق الذي بحكمته السامية ، لا يصنع شيئاً عبثاً ، قد عين سبحانه لحياتنا غاية ونظاماً . فغاية هذه الحياة هي الحياة الاخرى ؛ ونظام هذه الحياة هو الشرائع والسنن التي وضعها ، عز وجل ، لنبلغ ، باتباعنا اياها ، الى غايتنا المقصودة . واذا كان الامر كذلك ، وجب على المرء ان يطابق اعماله ، ومن ثم اخلاقه ، لاوامر الله ونواهيه .

بيد انه ، اذ كان ، كما قلنا ، متصفاً بالحرية ، كان في امكانه ان يسير الى غايته عاملاً بهذه الشرائع الالهية ، او ان يحيد عن السبيل المؤدية اليها ، بمخالفته السنن المذكورة ؛ مما نجم عنه وجود الخير ، او الائتمار باوامر الله ؛ ووجود الشر ، اي معاكسة ارادته القدوسة . ونجم ايضاً وجود حياة ادبية صالحة ، وحياة ادبية طالحة ، مما يمكننا معه ان نحدد الحياة الادبية بعبارة واحدة : وهي انها حياة الاخلاق الفاضلة الدافعة صاحبها الى اتيان الاعمال الصالحة واجتناب الاعمال الشريرة ، بلوغاً الى الغاية المتوخاة من خلقه ووجوده في هذه الدنيا ، اي بالآخرة الخيرة ، والتمتع بالسعادة الخالدة .

فاذا تقرر هذا كان في وسعنا الان ان نبحث عن نفوذ السيد المسيح في هذه الحياة الادبية اي الاخلاقية . ولكي يكون البحث مفيداً ، لننظر اولا في ماهية هذا النفوذ ، ثم في نتائجه .

١

ماهية نفوذ السيد المسيح في حياتنا الادبية

نفوذ السيد المسيح في حياتنا الادبية نفوذان : نفوذ خارجي ، وهو نفوذ المثال ، ونفوذ داخلي ، وهو نفوذ فاعلية النعمة .

اما في شأن النفوذ الخارجي فنقول :

ان من اراد السير في سبيل الرقي والبلوغ الى الكمال ، في اي ميدان كان ، تحتم عليه ، بادىء بدء ، ان يتخذ له مثالا ، هو الصورة العالية ، او المثلى لحقيقة الكمال الراغب فيه . وطبقاً لهذه القاعدة ، ترى للفنان مثلى ، وللشاعر مثلى ، وللخطيب مثلى ، اي ان لكل امرىء

عامل بعقل وحكمة مثلى . فمن ثم وجب ان يكون للمسيحي ايضاً مثلى ، يسعى وراء تحقيقها في حياته الادبية . فما هي هذه الصورة المثلى ؟ هي صورة كل فضيلة وكمال ، هي صورة القداسة السامية ، هي صورة الاله المتأنس ، هي صورة ربنا يسوع المسيح . ان صورة المسيح لصورة طالما جدّ الاساتذة النوابغ في ان يرسموها على قماشهم ، او ان ينقشوها على رخامهم ، او ان يصفوها بفصاحتهم ، دون ان يتوصلوا الى ادراك مرغوبهم . على ان ما لم يستطع المصور تحقيقه على قماشه ، ولا النقاش ، على رخامه ، ولا الشاعر في قصائده ، ولا الخطيب في خطبه ، فمن دعوة المسيحي ان يسعى في ابرازه في شخصه .

اجل ! اننا نسمع المخلص عينه يحرضنا بقوله : « كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل » فكاننا به يقول : ايها المؤمنون ، عليكم ان تقتدوا بكمال الله ؛ لكن ، ان اردتم ان تعرفوا ما هو كمال الله ، فايقنوا انه انا هو بذاتي . نعم انا صورة الآب وجوهره ؛ انا ضياء مجده ؛ انا الكمال الالهي الآتي اليكم بهيئة بشرية . فانا اذن الواجب عليكم ان تقتفوا اثاري ، ان رغبتم في الحصول على الكمال . هذا هو المثال الذي ينبغي لنا ان نحققه في حياتنا الادبية . فمن شاء الاقتداء بغيره يمكنه ان يصبح فيلسوفاً ، او شاعراً ، او فناناً ، او خطيباً ، حتى عبقرياً ؛ واما ان يكون مسيحياً فلا ، ثم لا . ان المسيحي اللائق به هذا الاسم هو الذي يطبع في نفسه رسم السيد المسيح ، هو الذي ينشىء من ذاته صورة المسيح ، فيضحي مسيحاً آخر . ان الكلمة صار جسداً وحل فينا . وقد عرض نفسه بشكل بشري ، ليكون مثالا آلهياً لنا . فانه متصل باللاهوت من جهة ، لانه اله حق ، وهو متعلق بالبشرية من جهة اخرى ، لانه انسان حق . فما اعظم صورة الاله المتأنس ! ما اجلها ! ما اجملها ! ما اسطع بهاءها ! ولهذا فقد شغفت بها الشعوب ، فاحبتها واقتدت بها .

اجل ! ان وجه المسيح لهو كالشمس للناظر اليه ، لانه يهبه النور والحرارة والحياة . وفضائل المسيح قد اذهلت العالم ، فجذبت اليه النفوس ، فاخضعتها طوعاً لسلطانه . لانه لاسمه السجود ، قد علم الجهال ، وقاد التائهين ، وارشد المتغافلين ، وعزى الحزانى ، واشبع الجياع ، واروى العطاش ، وشفى المرضى ، واقام الموتى .

قد احب الصبيان وباركهم ، واشفق على الفقراء ، فدعاهم اليه ، فقبلهم في معشره ، فجالسهم ، فآنسهم ، فتواضع امامهم ، بل قل خدمهم .

التجأ اليه الخطأة ، فكان لهم كالملجأ الحصين ، اذ غفر لهم جرائمهم ، وحرضهم على التوبة وعدم الرجوع الى سيء حياتهم السالفة .

اتخذ النفوس رعية له ، فسار بها ، كالراعي الصالح ، الى المناجع الخصبة والمناهل العذبة ؛ ووقاها من هجمات الذئاب الخاطفة . قد اضحى اباً ، واصبح الورى اسرته الكبرى ؛ فقام بأود اولاده الامناء ، متوقعاً ، بطول اناة ، عودة الشطّر نادمين ؛ ليضمهم الى صدره ، ويرجعهم الى بيته . زاد حنوه على حنو الام الرأوم ، الحاضنة انجالها كحضن الدجاجة فراخها تحت جناحيها .

عامل اصحابه معاملة الخلّ المخلص الوداد ، الغاضّ الطرف عن السيئات ، غير مقابل الخيانة الا بانبساط الجنان وعذوبة اللسان ، ولم يكن ليمسّ الا بتوقّ القصبة المرضوضة ، خشية ان تنكسر ، والفتيلة المدخنة ، لئلا تنطفىء . وقد قضى سحابة عمره صانعاً المعروف ، مشرقاً شمسه على الاخيار والاشرار ، وممطراً على الابرار والظالمين ؛ بما حمل ، ولا يزال يحمل الناظرين اليه والمشغوفين بحبه على الهتاف قائلين : هـذا هو المثال الذي يخلق بنا ، بل يجب علينا الاقتداء به . وان لم يكن لنا مندوحة الى تحقيقه بكماله ، فلا اقل من ان نحقق شيئاً منه . فمن المؤمنين من يتأثره في تواضعه ، ومنهم في محبته ، ومنهم في

طاعته ؛ ومنهم في وداعته ؛ ومنهم في نقاوته ، ومنهم في تجرده ، ومنهم في تفانيه ، ومنهم في تضحيته . الخلاصة ، يجهد كل منهم في طبع رسمه في نفسه ، بطريقة من الطرائق . وكلما اشتد انطباع صورة المسيح في قلوب المؤمنين ، ازدادت مسيحيتهم ؛ وبازدياد مسيحيتهم ، تنمو فضيلتهم وقداستهم . وهكذا يظهر ان الحياة الادبية هي حياة الفضيلة وان اوج الفضيلة ، القداسة ، وان كليهما لا يتم الا بتقفي آثار المخلص الالهي . وهذا هو نفوذ السيد المسيح الخارجي في حياتنا الاخلاقية .

. . .

على ان نفوذ الرب لا يقف عند هذا الحد ، بل انه يؤثر في حياتنا تأثيراً له فاعلية داخلية . لان المسيح ليس مثال حياتنا فقط ، بل حياة حياتنا الادبية . وهي ليست بمتوقفة على حياتنا الطبيعية ، البشرية ، بل هي قائمة في ما يضاف الى تلك من حياة اسمى ، تفوقها تفوقاً عظيما . فهذا ما يجعل المسيحي متميزاً عن غيره . لانه ، فضلاً عن الحياة البشرية ، يحيا حياة فائقة الطبيعة ، هي حياة المسيح فينا : فانه مركزها وروحها ومحركها . مما ينشأ عنه ان المسيحي يعيش في المسيح ، والمسيح يعيش فيه ، طبقاً لقول الرسول المصطفى : « ان الحياة لي هي المسيح . » وقوله الآخر : « انا حي ، لا انا ، بل ان المسيح حي فيّ . » وان كنا جميعاً عائشين بحياه المسيح ، فنحن اذن اخوة ، وان كنا كثيرين ، فمع ذلك نحن واحد بالمسيح ، لانه هو الرابط الذي يربطنا ، فيوحدنا .

ونتيجة حياة المسيح فينا هي انها تولّد في نفوسنا حساً يجدر بنا ان ندعوه الحس الخاص بالمسيحيين . لما هو مقرر من ان كل حياة تنشىء في صاحبها حساً يطابق طبيعتها . وهذا الحس هو حس روحاني الهي ، هو حس الرب الذي نوه به الرسول المصطفى بقوله : « ليكن

فيكم من الافكار والاخلاق ما هو للمسيح يسوع . » وهو شعور يساعدنا على ادراك شرفنا الذي لا مثيل له ؛ ذاك الشرف الذي يلزمنا بالسعي وراء كل ما هو طاهر وسامٍ واهل بمقامنا ؛ ويثبت لنا اننا من ارومة وسلالة الهية ، هي سلامة القديسين ؛ ويوحي الينا واجبنا العظيم ، واجب بذل الجهد في تحقيق الكمالات الالهيـــة في شخصنا واعمالنا ، ويولّد فينا الكراهية لكل شرّ ، والميل الى كل خير ، ومن ذلك ينشأ في قلب المسيحي التوقان الى كل ما هو روحاني ، سماوي ، اي الى القداسة . اجل ان التوقان الى القداسة هو رغبة كل من يشعر في نفسه بنفوذ قدوس القديسين ، التوقان الى القداسة هو هيام الجنان ؛ هو اشتياق النفس ؛ هو اندفاع كل الحياة ؛ هو هتاف الانسان القائل : « اني مسيحي ، وبهذه الصفة احوي في داخلي حياة المسيح . اني مسيحي ، ولذا فلا يمكني ان انفصل عن المسيح ؛ ولذا مهما كلفني الامر ، اني عازم ان اضحي فاضلاً صالحاً ، قديساً . وكما ان النبات مفتقر الى الندى ، والزهر الى الشمس ، والصدر الى الهوآء ، فالمسيحي مفتقر الى حياة المسيح فيه . وهذا ما يفهمنا ان الثمرة الناشئة عن هذه الحياة هي ثمرة الفضيلة ، هي ثمرة القداسة . واينما القي بذرها ، سوآء اكان في فرد ، ام عائلة ، ام امة ، فهناك تنمو ، وتزهو ، وتزهر ، وتثمر ، وهذا نمو المسيحية الحقة . لان كلما ازداد المرء مسيحيةً ، ازداد فضيلة وقداسة . ولذا فالانسان المدعي امكان فصل حياته الاخلاقية عن حياته المسيحية يغش نفسه ويغش غيره . فمن اراد انمآء مسيحيته ، فعليه بانماء الفضائل في اخلاقه . وهذا لا يحصل الا بنفوذ المسيح الذي هو مثال حياتنا الادبية ، وحياتها ، ومحرك قواها واعمالها .

٢

نتائج نفوذ السيد المسيح في حياتنا الادبية

ها قد وقفنا على حقيقة نفوذ المسيح في حياتنا الادبية ، فلنر الآن هل تحقق هذا النفوذ بالواقع . ويمكننا معرفة ذلك باطّلاعنا على نتائجه في خلال تأريخ الدين المسيحي . فاننا اذا استنبأنا هذا التأريخ ، وجدنا فيه شاهداً جلياً ان ديننا القويم انشأ بين البشر ، في كل زمان ، وكل مكان ، وبفعل قوته الذاتية ، جماعات فجماعات من الافاضل والقديسين . وما تأريخ النصرانية الحقة سوى تاريخ السيد المسيح نامياً ، زاهراً على كرور الاحقاب ، مظهراً قوته ونفوذه ، ببواهر القداسة المتلالئة انوارها في جنوده المسيحيين ، وابطال الحياة الادبية . مما يسوغ لنا القول معه ان القداسة التي هي الفضيلة بالغة حد البطولة ، مزية خاصة بالدين المسيحي دون غيره .

اجل ان العالم القديم قد امتاز بعظائم ومفاخر ليس من شأننا انكارها ، فقد نبغ فيه شعراء فحول ، وادباء فضلاء ، وخطباء فصحاء ، وكتاب بلغاء ، وفنانون فتانون ، وفلاسفة جهابذة ، ومشترعون محنكون ، وقواد عظام ، وابطال مشاهير ، لا يزال نور عبقريتهم ساطعاً في فلك تاريخ البشرية . الا ان طبقة من الانام ، فريدة في جنسها ، قد خلا منها المجتمع القديم ، الا وهي طبقة القديسين . اننا لا نجهل ان الوثنية قد اصعدت على الهياكل رجالا كللتهم امام الجمهور باكاليل سماوية . لكن هولاء الرجال لم يتسنموا ذروة هذه الامجاد الا بفعل القوة والبطش ، لا بل بفعل الجرائم والقبائح ، اي بكل داعٍ ما خلا داعي القداسة .

ولم يكن هؤلآء « أنصاف الالهة » المتبوّؤون العروش في الهياكل الوثنية يشخّصون الانسان مرتفعاً نحو الألوهية ، بفضل كمالاته ؛ بل كانوا يمثّلون الألوهيّة هابطة الى درجة الانسان ، بفعل الانحطاط والمذلّة . وغنّي عن التبيان ان ذلك لم يكن مجلَبة مجدٍ وفخر للبشريّة ، بل مدعاة خزي وعار للالوهية .

هذه كانت حالة العالم القديم المحتاط بشعرائه ، وخطبائه ، ومشترعيه ، وابطاله ، وسائر كبار رجاله . وبينما هو على تلك الحال ، اذ ظهر فجأةً حادث اذهل ، منذ نشأته ، ذاك العالم الذي ، مع كل ما افتخر به من المجد والسؤدد ، لم يكن الا نازلا في دركات الفساد . فما يا ترى قد جرى ؟ الذي جرى هو ان الدين المسيحي قد ظهر وانتشر . وقد تجلّت فيه منذ فجره خاصّته الفارقة ؛ اي تجلّت فيه حياة مؤسسه الالهي في شخص اتباعه ؛ فاثبتت ألوهيته بالفضائل الفائقة الطبيعة ، اي بالقداسة .

وبالحق ان رسل المسيح وتلاميذهم لم يمتازوا بما اوتوه من صنع العجائب وحسبُ ، بل قد كانت مزيتهم الفضيله السامية هذا السموّ حتى ان جميع المؤمنين ، في تلك الحقبة ، كانوا يدعون قديسين . وبعد الرسل ومعاصريهم ، قام في الكنيسة ، منذ القرون الأوَل ، زمَر في زمَر من الأولياء ، وابطال الفضيلة ؛ فضلًا عن الوف في الوف من الشهدآء الذين بلغت منهم القداسة الى اقصى حدّها ، اي الى سفك دمهم من اجل ايمانهم ، وفي هذه الحقبة القديمة ، قد سطعت في سمآء البيعة الشرقية والغربية شمس آبائنا القديسين الذي اضحوا جهابذة في العلوم ، وفرساناً بواسل في مضمار الذب عن حياض الدين ، وابطالا في الفضيلة . نجتزىء بذكر اشهرهم :

اغناطيس النوراني ، اكليمنضس الروماني ، بليكربس ، ايريناوس ، اثناسيس ، باسيليس ، غريغوريس ، قورلس ، ايرونمس ، امبروسيس ،

اوغسطينس ، يوحنا فم الذهب ، افرام السرياني .

ولا تظنوا ان القداسة كانت مقصورة على زمن نشأة الدين والقرون الاولى ، بل ان مجراها لم ينقطع قط ، في طبقات المؤمنين ، على مرور السنين ، وتوالي العصور . لاننا اذا انتقلنا من الاجيال القديمة الى القرون الوسطى ، راينا القداسة في خلالها سائرة باطراد ، ونامية بازدهار عجيب . اجل ! قد تلألأت القداسة في تلك العصور التي لا يزال ينعتها بعض المتشدقين من اهل عصرنا بالعصور المظلمة ، اي عصور التقهقر والبربرة . اذ اننا نرى فوق تلك القمم العالية التي يطيب لله ان يرفع اليها القديسين ليرسلوا منها انوارهم الى اقاصي المعمورة ؛ اجل هناك نرى متشحين بجلباب القداسة اشخاصاً ذوي عظمة مذهلة ، منهم برنردُس ، انسلمُس ، دومنكس ، فرنسيس الاسيزي ، توما الاكويني الملفان الملاكي ، بونونتورا الملفان السرافي ، البرتس المعلم الكبير ، لويس ملك فرنسة ، منصور الفراري ، كترينة السيانية .

وبينما نشاهد هؤلآء الجبابرة ، جبابرة الفضائل وامثالهم يشرقون على العالم شمس الفضيلة والقداسة ، نرى ألوفاً فالوفاً من الرجال والنسآء يحققون هذه القداسة في اشخاصهم وان كان بدرجة أوطأ . كل ذلك لان روح الفضيلة المسيحية كان يرفرف فوق تلك العصور المضطربة بشعوبها المشتبكة ، كما كان روح الله يرفرف على المياه في بدء الخليقة .

واذا خامرك الشك ، بعد هذا ، في فاعلية نفوذ السيد المسيح في حياتنا الادبية ، فالقِ نظرة معنا على الاعصر الاخيرة . لاحظ ذاك القرن الذي جرى فيه الاضطراب الهائل ، قرن الاحتجاج الذي قلب العالم الديني ، وهيأ الانقلاب السياسي ؛ ذاك القرن السادس عشر الذي لقب فيه اولاد الكنيسة المردة اسمهم بلقب بابل الثانية . ففي هذا العصر وما يليه قد سطعت ، كما في القرون الخوالي ، انوار القداسة .

اذ قد اشتهر فيه قديسون وقديسات، من مثل تريزية الكبيرة، يوحنا الصليبي، اغناطيس لويولا، فرنسيس كسافاريس، فرنسيس السالسي، منصور دي بول، فيلبس نيري، وغيرهم كثيرون.

فالتاريخ اذاً شاهد ان الكنيسة لم تخلُ من القداسة على تعاقب الدهور، واختلاف الازمان، وتقلب الاحوال. وعصرنا هذا الحاضر، هذا العصر الذي قد اعترته امراض ادبيّة متنوعة، أوَ تتصوّر انه معدم من القداسة؟ كلا! اذ في عصرنا هذا قد ظهر قديسون عديدون نرى في مقدمتهم خوري أرس قدوة الكهنة وشفيعهم، وبنوا لابر صاحب القداسة المذهلة، وغير بعيد منا، لا بل في ايامنا الحاضرة، قد عاشت تلك الزهرة النقية، زهرة الكرمل، تريزية الصغيرة، التي لا تزال من علو السماء تمطر العجائب والبواهر على الارض. وهل تعبر سنة دون ان يرفع فيها الحبر الاعظم عدّة افاضل على هياكل الكنيسة يمجدهم المؤمنون، ويقتدون بفضائلهم؟ وهذا شرقنا العزيز، بعد ان كان مبعث القداسة، لان فيه ظهر الرب القدوس؛ وبعد ان اشتهر فيه مئات وألوف من النساك والمتوحدين القديسين، ومن الشهدآء والملافنة المعترفين، لم يخل حتى في ايامنا هذه، مع قلة المسيحيين فيه، من رجال ونسآء، نالوا نعمة الاستشهاد، أو بلغوا ذروة القداسة.

. . .

على ان هناك من الناس، حتى بين المسيحيين، من يقولون: اين هم القديسون؟ ألا أرونا القديسين؛ فاننا لم نصادفهم. فلمثل هؤلاء يحق لنا ان نجيب قائلين: اجل! يا قوم، انكم لم تلاقوا القديسين؛ فهذا ربما كان لتعس حظكم. ان لم تلتقوا بالقديسين، فهل يا ترى بحثتم عنهم؟ وفي اي طريق؟ انكم سائرون في طريق الامجاد الباطلة، والاطماع الممقوتة، والغنى والثروة والارباح المحرّمة، والافراح والملذات

الذميمة ، ولعلكم سالكون في سبيل الخلاعة . فلا عجب ان كنتم لا تصادفون القديسين ؛ لان شتّان بين طريقكم وطريق القديسين . لكن ولّوا وجهكم شطر الفضيلة : من مثل التفاني ، والكفران بالذات ، والتقشف ، والاماتة ، والصبر ، والوداعة ؛ الخلاصة ، اتّجهوا الى طريق الصليب والجلجلة ، فهناك ترون ما يعجب ويدهش ؛ هناك ترون القداسة زاهرة بين جميع الصفوف والحالات ، بين الافراد والجماعات ، في العائلات والجمعيات ، بين العلمانيين ، والكهنة ، والرهبان ، والراهبات . هناك تشاهدون اناساً يزهدون في المال والعيال ، ليخصّصوا ذاتهم لخدمة الله وعبادته . منهم من ينسون أرومتهم وكرم محتدهم ، فيتصاغرون متنازلين الى مداراة الضعفآء والسقمآء . منهم شبان وشابات ، من مصاف الرهبان والراهبات ، يضحون بحبّ الاوطان والاهل والخلان ، فيظعنون الى الاصقاع النائية ، لينزلوا ميدان حرب هي حرب الفضيلة ، هي حرب المحبة والرحمة ، هي حرب القداسة . هناك تلاحظون اناساً ، قاضين سحابة عمرهم ، في تربية الصغار ، وايوآء الايتام ، وتعليم الجهال ، واصلاح المغرورين ، وهداية الضالين . هناك ترون عيوناً تدمع ذارفة العبرات السخينة على كل نوع من انواع الآلام . هناك تجدون ايدياً ذات نقآء من جهة تهز الاطفال في المهود ، ومن جهة اخرى تعين الشيوخ والعجائز ؛ ثم تغسل الجروح النتنة ، وتضمد الكلوم المؤلمة . هناك ترون صدوراً نحيفة تستنشق الروائح الفاسدة في المستشفيات والملاجىء والدور الحقيرة . وما هو افضل من كل هذا ، وما هو روح كل هذه آيات الفضيلة ، انكم تجدون هناك نزاهة وتجرداً بالغاً اقصى حده ، واهتماماً برقة دونها رقة الأم الرأوم ؛ ممّا لا يتالك المرء بازائه ان يقف حائراً ، ويهتف صارخاً : ان هذا الحادث غريب ؛ ان هذا المشهد عجيب ، لم تألفه البشرية في القديم .

اجل ! ان هذا الحادث لغريب ! وهذا المشهد لعجيب ! لانهما حادث

ومشهد الدين المسيحي الذي كان في نشأته ولم يزل ، على كرور الايام ، وتعاقب الاعوام والعصور ، دين الاعمال المذهلة ، دين الفضيلة المثلى ، دين القداسة السامية ، دين الرجال العظام ، دين الابطال البواسل ، اي دين الاولياء القديسين . وما ذلك الا من تأثير ونفوذ مؤسّسه الالهي ، ربنا يسوع الذي هو مثال القداسة ، مؤتي القداسة ، مركز القداسة ، رب القداسة ، وهو باكورة القديسين ، زعيم القديسين ، قدوس القديسين . له المجد والحمد في كل آن والى دهر الدهور آمين !

نفوذ السيد المسيح

في حياتنا الاجتماعية

يليق بنا، قبل الخوض في هـذا البحث، ان نصنع ما صنعناه، توطئة للخطاب السابق، اي ان نحدد الحياة الاجتماعية، كما حدّدنا الحياة الادبية.

الحياة الاجتماعية هي عيشة الفرد بصحبة اقرانه في البشرية. وهي حالة واقعية، غير مفتقرة الى دليل. على انها ان كانت اليوم شائعة بين ابناء آدم، فهـل يا ترى كانت منذ نشأة الانسانية، وهـل هي حال طبيعية؟

قد ذهب بعض الفلاسفة العصريين، وفي مقدمتهم روسّو، الى ان العيشة باجتماع ليست من مطلبات الطبيعة؛ بل ان البشر، بعد ان كانوا منفردين، التأموا يوماً، وتعاهدوا بميثاق مجمعين على العيش عيشة الجمعيّة. غير ان جمهور الفلاسفة ينفون هذا القول متفقين على ان حياة الاجتماع ناشئة عن طبيعة الانسان، لمـا فيه من الحاجة الماسّة اليها؛ ولما هو مزدان به من الخواص الملائمة لها، من مثل العقل، وابراز الخواطر، والتكلم، وما اشبه ذلك. فالانسان اذاً أليف، اجتماعي من طبيعته، ومن اول نشأته.

على اننا قلنا، في المقال السالف، ان لكل حياة لا بد من غاية ونظام. فغاية الانسان الاجتماعية القريبة هي الخير العام، بالسعي في ايجاد السعادة الزمنية لمجموع الافراد؛ وغايتها البعيدة هي ان تكون وسيلة للبلوغ الى الغاية القصوى، المتوخاة من الحياة البشرية

الادبية . اما نظام الحياة الاجتماعية فقد اختلف فيه الفلاسفة المشترعون، باختلاف الازمان . اما في عصرنا الحاضر ، فالمشترعون المدعون الاصلاح يفتخرون بانهم وضعوا للالفة نظاماً كاملاً لخصوه بهذه الكلمات الرنانة الفتانة . وهي : الحريّة ، الاخوة ، المساواة . لكنهم نسوا او تناسوا امراً جوهرياً هو بمنزلة الروح لهذه المبادىء ، الا وهو امر السلطة القائمة عليها كل حياة اجتماعية ؛ وبدونها تتقوض اركانها ؛ ولولاها فليس من سبيل الى الحريّة والاخوة والمساواة الحقيقية . لان قوام المجتمع الداخل فيه افراد شتى ان يكون له نظام ؛ والا لسادت الفوضى والتنازع ، ومن ثم التباغض والتطاحن ، الناجم عنهما الخراب والاضمحلال . فمن قال بوجوب النظام ، قال حتماً بوجوب وجود منظّم . وليدعَ هذا المنظّم باي اسم كان ، فلا بأس ؛ ما دام لا تنزع منه خاصّيته الجوهرية اي التنظيم او الادارة او الحكم : فليسمّ اذاً رئيساً ، او زعيماً ، او أميراً ، او ملكاً ، او عاهلاً او مسيطراً ؛ فليطلق عليه اسم حكومة مطلقة ، او مقيدة ، او جمهورية . لان الامر الضروري فيه هو انه المبدأ الاساسي للالفة الاجتماعية الذي ينظمها ويدبرها ، قصد الخير العام ، بموجب الشرائع الطبيعية والالهية والمدنية .

وعليه ، فاذا كان المسيح قد جاء لانقاذ البشرية من وهدة الحالة المضطربة الساقطة فيها ، فقد وجّه نظره ، فضلاً عمّا اعاده الى الافراد من افضال الحرية والاخوة والمساواة الحقة ، اجل قد وجه نظره ، بنوع خاص ، الى وضع اساس مكين للالفة باصلاحه السلطة . فكان نفوذه فيها نفوذاً فعّالا اتى بالخير والبركات على المجتمعات . واذ اتضح لنا هذا ، فما علينا الآن الا ان نرى كيف جرى هذا النفوذ في السلطة ، ومن ثم في الحياة الاجتماعية .

***

لكي نوقفك حق الوقوف على كيفية هذا النفوذ، يجدر بنا ان نسرد لك اولا الكلام الذي انشأ في العالم السلطة المسيحية. يخبرنا الانجيل المقدس ان الرسل كانوا ذات يوم مجتمعين حول معلمهم الالهي، فسألهم قائلاً: «من تقول الناس ان ابن البشر هو؟» فقالوا: «قوم يقولون: انه يوحنا المعمدان، وآخرون انه ايليا، وآخرون انه ارميا، او واحد من الانبياء.» فقال لهم يسوع: «وانتم من تقولون اني هو؟» اجاب سمعان بطرس قائلاً: «انت المسيح ابن الله الحي.» فاجاب يسوع وقال له: «طوبى لك يا سمعان بن يونا، فانه ليس لحم ولا دم كشف لك هذا، لكن ابي الذي في السماوات. وانا اقول لك: انت الصخرة، وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي، وابواب الجحيم أن تقوى عليها. وساعطيك مفاتيح ملكوت السموات، وكل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما حللته على الارض يكون محلولا في السموات».

ويوماً آخر، قبل ان يصعد الى السماء، ظهر لرسله وقال لهم: «اعطيت كل سلطان في السماء والارض. اذهبوا الآن وتلمذوا الامم معمّدين اياهم باسم الاب والابن والروح القدس، وعلّموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به. وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهور».

هذا هو الكلام الذي، مهما حاول المكابرون، فلا مجال لهم لانكار حقيقته، او بالاحرى لانكار فاعليته التي غيّرت الاحوال. اما نحن الذين يطيب لنا ان نكرّر مع بطرس قائلين ليسوع: «انت المسيح ابن الله الحي». فلا يمكننا ان نتصوّر شيئاً اكثر جلالا، واشد حتماً من هذا الأمر بالنظر الى الرقي الاجتماعي.

فان هذه الكلمات وغيرها كثيرة قد انشأت في البشرية سلطة الهيّة هي سلطة المسيح القائل لرسله: «اعطيت كل سلطان في السماء وعلى الارض.» وهذا سلطاني الشخصي اريد ان اجعله سلطانكم؛

لانه كما ارسلني الآب ، ارسلكم انا ؛ وكما ان سلطتي هي سلطة ابي ، فسلطتكم هي سلطتي ، ومن يسمع منكم فقد سمع مني ؛ ومن يحتقركم فقد احتقرني .

اننا غير جاحدين ان هذه الكلمات تتضمّن سلطة متميّزة عن سلطة حكّام الممالك . لان الذي يهمّنا هو ان المسيح قد اسّس ، بهذه الاقوال ، جماعة جديدة في العالم ؛ وفي هذه الجماعة اقام رئاسة ، ليست هي الا رئاسته ذاتها . ومن سلطته هذه قد ارسل شعاعاً انار جميع السلطات المختلفة . وبذلك احدث انقلاباً تاماً في اصل السلطة وموضوعها وغايتها ؛ وبذلك كمّل النظام الاجتماعي برمّته . وتظهر فاعليّة هذا التأثير من مقارنة حالة السلطة قبل المسيح ، بما صارت اليه على يده .

* * *

كانت السلطة القديمة معيبة في أصلها ومصدرها ؛ وذلك لخلوها من الصفة الآلهيّة . انظر مثلاً الى السلطة الوثنيّة ؛ فانها كانت مستندة الى الانسان ، والى حقوق الانسان لا غير . امّا السلطة المسيحية فتعتمد على سلطة الله ، وحقوقه الالهية وحدها . وهذا هو التباين العظيم بينها وبين السلطة الوثنية القديمة ، او السلطة العصرية ، غير المسيحية ، التي تحاول انكار سلطة المسيح . ففي كلا هاتين السلطتين ، لا تجد سوى حق الانسان في شخص المتقلّد زمام الامر ، والخضوع في شخص من يطيع . ترى الانسان حاكماً على الانسان ، والانسان خاضعاً للانسان . وهي العلة الخفية التي تفسد السلطات في عصرنا ، كما افسدتها في الازمان السالفة . ومن ذلك قد حصل في هذا العصر ميل عام بين البشر الى تذليل السلطات ؛ وبتذليلها تذليل الجماعات التي تحكم عليها . وهذا الميل هو ميل الاعتراض على السلطة ، ورفضها ، وتحقيرها . ودونك ما يتشبثون به من التعلّلات : الانسان مساوٍ للانسان ؛ والبشرية مآزية للبشرية . فلماذا يحكم عليّ انسان ؟ ولذا فاني انكر عليه هذا السلطان ،

سلطان الأمر علي ؛ وانكر واجب الطاعة له . اذن فليسقط الطغاة المحاولون ان يلقوا عليّ نيرهم ؛ ليسقط الملوك ، ليسقط الامبراطرة ، لتسقط كل حكومة ، لتسقط كل سلطة . « الا فلنحطّمنّ قيودهم ، ولنلقينّ عنّا نيرهم . »

هذا صراخ البشرية في كل هيئة او ألفة لا تعود ترى في السلطة سوى شخص الانسان . ولهذا فمتى زالت كل صبغة الهيّة من السلطة ، ومتى مُحيت سمة الله من جباه اولياء الامور ، فحينئذٍ قولوا : الويل ثم الويل للامم والممالك ، وللالفة الاجتماعية كلها . لان الرئاسات التي لا تستمد قوتها الا من الانسانية ، لا ترى الا وقد رُفعت عليها ألوية العصيان من كل جهة ، ولان جحود الله في المجتمعات لا بد من ان يؤدي ، عاجلًا ام اجلًا ، الى الفوضى في الألفة البشرية .

دونكم الآن ما صنع السيد المسيح ليشفي السلطة من هذا الداء الاجتماعي الوبيل . انه اقام ذاته سيّد البشرية التي جاء ليخلّصها ، وبذلك انشأ وقدس في الانسان سلطة الله عينه . لان رئاسة الكنيسة ، كما هي في العرف المسيحي ، ليست سوى سلطة الله في وسط العالم . وهذا ما تخلو منه كل سلطة زمنية ، مهما كان اصلها الشرعي ، وباي اسم سمّيت . وبين سلطة الله وسلطة الكنيسة ليس من وساطة الا وساطة الوسيط الالهي ، يسوع المسيح ؛ اذ انه ليس بمنفصل عن الله ، ولا بمنفصل عن الكنيسة ؛ لكونه الآله المتأنس الحي دائماً في بيعته . والحال ان في ذلك لمغزى لكل لبيب ؛ وهذا المغزى قد تضمّن تطوراً في السلطة نجم عنه للتقدم الاجتماعي نتائج غير خافية . لان المسيح انبت في النفوس تلك الفكرة العمرانية الاجتماعية ، وهي فكرة السلطة الصادرة عن الله ، والمختومة باسمه . واظهر للعالم مثالا للطاعة السامية ، وهو مثال المسيحي الخاضع للمسيح الذي يأمره في شخص الانسان .

وهذا ما رقّى الانسانيّة . فان المسيحي يمكنه ان يقول : اني منذ جلس المسيح ، بين البشر ، على عرش الملوكيّة ، يحق لي ان اعتبر ذاتي اعظم من ان اخضع لبشر . وقد نشأ لطاعتي واحترامي قيمة جزيلة . حتى اني اذا حنيت راسي للطاعة والانقياد ، فقد حنيته لصولجان الله ذاته . فلا يجسرنّ الانسان بعد على ان يأمرني بطاعته ، فاني ارفض طاعته . لكنه اذا اتاني باسم هذه العظمة الآلهية الخاضع لها كل ما في السمآء والارض ، فعند ذلك يراني وديعاً ، طائعاً ، محترماً . لان الأمر الذي ينزل عليّ من العلآء لا يمكنه ان يحط من قدري . وانا موقن اني كلّما أطعت ، ازدَدت شرفاً بطاعتي ، وارتفع مقامي . والعبودية ذاتها لا تعود حقارة لي ، بل لا يعود لها وجود في نظري . لاني ان وقعت في اسر اعدآء الدين ، فكبّلت بالقيود ، فانا شاعر بحرّيتي ؛ لانه ان أخضع جسدي قسراً لسلطان الطغاة ، فاني احسّ بداخلي اني لست بخاضع الا لله . لان الاسر ، في سبيل الله ، حرّيّة ؛ والعبوديّة ، حباً بالله ، ملوكيّة .

* * *

العيب الثاني ، اي الملازم موضوع السلطة الدنيوية ، هو استعباد الضمائر البشرية بسيطرة الانسان . لان أولياء الامور كانوا قد طمعوا في الاستيلآء على الارواح . ولكي يتمكن الملوك والسلاطين من مدّ سلطانهم على الضمائر ، حاولوا صبغ اغتصابهم هذا بصبغة آلهيّة ؛ فاعلنوا ذواتهم أحباراً . ولكي يخفوا على الجمهور هذا الاهتضام للحقوق البشرية ، اغتصبوا حقوق الالوهية . فاضحى الملوك والامبراطرة احباراً ؛ وباستغلالهم غباوة العامّة ، بلغت منهم الخيلآء والعتوّ ، لا بل الجنون ، الى ان أجهروا بكونهم آلهة . وهكذا ارتفع هؤلآء الطغاة ، بثلاث درجات ، من مقام البشرية الى الملوكية ؛ ومن الملوكية الى الحبريّة ؛ ومن الحبرية الى الالوهية . وبهذا اوقعوا البشر في وهدة العبودية التي فيها

استرِقّت ضمائرهم لهؤلآء المسوخ المقامين مقام الآلهة .

اما المسيح ، له المجد ، فلكي ينقذ ابنآء المجتمع من هذه المذلة ، ولكي يعيد اليهم ، مع الاستقلال المشروع ، عظمتهم الطبيعية ، ماذا يا ترى عمل ؟ انه انشأ في العالم سلطةً ميدان نفوذها النفوس ، كما ان مصدرها من الله . وهذا ما دل عليه قوله لرسله : « اعطيت كل سلطان في السمآء وعلى الارض ؛ اذهبوا وتلمذوا الامم معمدين اياهم باسم الاب والابن والروح القدس . وكل ما ربطموه على الارض يكون مربوطاً في السمآء ؛ وكل ما حللتموه على الارض يكون محلولا في السمآء . »

فترون ان يسوع يمنح تلاميذه سلطة وقدرة . لكن ما هي هذه السلطة وهذه القدرة ؟ انه لم يقل لهم ، كما قال بعض زعمآء الثورات القديمة : هذا سيف اقلّدكم اياه ؛ فاذهبوا وقاتلوا الاعدآء اينما ثقفتموهم . فان مذهبي على السيف قائم ؛ والسعادة في معمعة القتال . » بل قال لهم : « هذه كلمتي ، اضعها على شفاهكم ؛ فاذهبوا وتكلّموا بها ، معلمين الامم ما اوصيتكم به ، وادخلوا النفوس في مملكة الحق . فمن آمن بكلامكم ، فقد خلص ؛ ومن لا يؤمن ، فلا حاجة الى سيف يضرب عنقه ؛ لانه ينال من ابي السماوي العقاب الذي يستأهله » . وبهذه الطريقة اسّس يسوع ملكوت النفوس ؛ وهو عينه ملك هذه المملكة : فكاننا به واقف في وسط المسكونة ، على مدى الاجيال ، فيقول : « هذه مملكتي : النفوس التي في المشرق ؛ النفوس التي في المغرب ؛ النفوس التي في الشمال ؛ النفوس التي في الجنوب . اجل ! انا الاله المتأنس ؛ انا ملك النفوس ؛ وليس للنفوس ملك غيري . »

على ان هذه المملكة المتجلّية في شخص ابن الله قد أودعها الرب واثبتها في كنيسته ، لكي تسوس بها النفوس ، من اقاصي الارض الى اقاصيها ، والى منتهى العالم . هذا موضوع ايماننا . ومنذ ان اسّس

يسوع هذه السلطة في العالم ، هناك نوع من الظلم والجور لم يعد في الامكان اتيانه ، دون ان يثير في اعماق النفوس سخطاً واحتجاجاً عنيفاً . اجل ! عند ابواب الضمائر المسيحية ، قد وضع المسيح حداً لا مندوحة بعد للملوك والمسلطين وباقي اركان هذه الدنيا ان يتعدّوه . ولذا فمنذ استولى المسيح على ضمائر البشر ، نسمع خارجة من افواه تلاميذه تلك الكلمة التي تفوق قوةً على قوة الملوك ؛ الا وهي الكلمة التي اجاب بها ، لاول مرة ، رسل المسيح رؤساء اليهود الذين حاولوا ، بسبيل التهديد والتعذيب ، ان يصدّوهم عن التبشير باسمه ، وهي : « لا نقدر » وقد اعادها بعدهم جميع المسيحيين الاحرار على سماع مغريهم ومضطهديهم ومعذبيهم قائلين : « انكم تريدون ان نخضع ضمائرنا لسيطرة بشرية ، لا نقدر . تريدون ان نضحي لمشيئة الانسان فكراً ، ولو واحداً ؛ او مبدأ ، ولو صغيراً ، من مبادىء المسيح ؛ ألا فاعلموا ان هذا غير ممكن ، لاننا لا نقدر . تطلبون الينا ان نشرك معه في هذا المملكة الواجب ان يسود فيها وحده ؛ لا نقدر . الا ايها الملوك ، ايها الطغاة ، اعدلوا عن هذا الفكر ؛ فاننا لا نقدر ، لا نقدر . اي نعم ! ان في استطاعتنا ان نزهد في كل شيء عائد الينا . فدونكم اموالنا وثروتنا فأغتصبوها ؛ دونكم شرفنا وصيتنا ومقاماتنا ، فامتهنوها ؛ دونكم اجسادنا فعذبوها ، فمزّقوها ؛ دونكم ارواحنا ، فانزعوها . لكن العدول عما يخصّ المسيح ، فهذا مستحيل علينا ؛ لا نقدر ، لا نقدر . »

* * *

العيب الثالث ، اي المفسد غاية السلطة البعيدة عن سلطة المسيح ، هو الانانيّة المؤثرة في اجرائها . فان السلطة الوثنية كانت الغاية المتوخاة منها شخصيّة صرفاً ، اي لمنافع المتقلّدين اياها . ولذا فقد اتى المسيح ، في ذا الشان ، باصلاح اعد للمستقبل نظاماً اجتماعياً جديداً

الى الغاية . فانه حوّل غاية السلطة أو قل أرجعها الى ما كانت عليه . فبعد ان كانت غاية الرئاسة عند الوثنيّين في شخص الآمر ، وضعها المسيح في شخص الطائع . فاضحى ذلك العلامة الجوهرية الفارقة في كل سيادة مسيحية حقيقية خلاصتها : المقصود من الحكم الخدمة ، وغاية التملّك التفاني . وبعد ان كانت نيّات الحكام الوثنيين التسلط على الغير ، لمصلحتهم الذاتية ، جاء المطلوب في السيادة المسيحيّة خدمة الغير ببذل النفس والنفيس .

وهاكم ما ورد في الانجيل الكريم في ذا الشأن : كان الرسل يوماً مع معلمهم الالهي ؛ فسمعهم يتخاصمون بينهم في خصوص التقدم والسلطة . فدعاهم وقال لهم : « قد علمتم ان اراكنة الامم يسودونهم وعظماؤهم مسلطون عليهم . وامّا انتم فلا يكون فيكم هكذا : لكن من اراد ان يكون فيكم اولا ، فليكن للكل عبداً . فان ابن البشر لم يات ليُخدَم بل ليخدُم ، ويبذل نفسه فدًى عن كثيرين . » بهذه الكلمات الصادرة من فم ذاك الذي اقام نفسه سيداً وملكاً على البشرية ، قد تغيّرت حالة السلطة تغيراً آلهياً ، فرجعت الى غايتها الاولى ؛ ممّا نجم عنه ان كل سلطة آتية من يسوع المسيح يجب ان يُعمَل بها كما عمل . وبما انه جاء ليخدُم ، تحتّم على المسلطين باسمه ان يخدموا . وكل رئاسة تحيد عن هذه الغاية لا تعود تسمّى رئاسة مسيحيّة . وكما ان كل طاعة تقف عند حد الانسان ، دون الارتقاء الى الله ، ليست بطاعة مسيحيّة . فالسلطة ايضاً تبطل ان تكون مسيحية ، متى بطلت ان تكون خدمة للبشر .

وعليه ترون ان هذه هي الشريعة السائدة في طبقات رؤساء الكنيسة المقدسة ؛ وانه كلما سمَت الدرجة فيها ، ازداد واجب الخدمة . وما منتسق السلطة الكاثوليكية الا نظام الخدمة المتدرجة . فهناك كل كاهن هو خادم ؛ وكل اسقف هو خادم ؛ وكل رئيس اساقفة هو

خادم ؛ وكل كاردينال هو خادم ؛ حتى ان ذلك الرجل الذي يرفعه الله الى قمة الرئاسة ، لكي يأمر على المسكونة جمعاء ، ذاك الرجل الذي هو نائب المسيح ، ورأس الكنيسة المنظور ، والحائز ملء السلطة ، اي سيدنا البابا ، اجل ! ان هذا الرجل الذي هـذا علو درجته ، وامتداد سلطته ، يلقب نفسه بلقب يدل دلالة واضحة على وظيفته وعظمته معاً ، اي انه يسمي نفسه « عبد عبيدالله » أو « خادم خدام الله » ، خادم الجميع لانه رئيس الجميع . ولم تكن هذه السلطة التي هذه صفتها وهذه غايتها الا لتؤثر في السلطات المدنية المسيحية . وبالحقيقة انها قد غيرت النظام الاجتماعي وقدمته . وبفضل هذا التقدم ، زال من السلطة ذاك العتو والطغيان الذي كان سائداً في العالم الوثني ، ولا يزال سائداً خارجاً عن الدين المسيحي وكنيسته المقدسة .

* * *

هذه هي السلطة التي انشأها المسيح لاصلاح وتقدّم الألفة الاجتماعية . وهي سلطة الهية في مبدئها ، سلطة روحية في ميدان عملها ، سلطة متفانية في غايتها . فبكونها الهية اصدرت الطاعة التي لا تؤدّى الا لله ؛ وبكونها روحية ولّدت الاحترام الذي يرفض المرء اداءه لما هو مادّي زمني صرفاً ؛ وبكونها متفانية قد اتت بالمحبة التي لا يجود بها الانسان لصاحب الانانية . وبهذا قد اسس المسيح للبشرية اعلى مدرسة للطاعة ، واعلى مدرسة للاحترام ، واعلى مدرسة للمحبة ؛ ومن هذه المدارس الثلاث قد أنشأ معهداً يصدر عنه الرقي في الحياة الاجتماعية . وقد عظمت هذه السلطة المسيحيّة ، بفعل رقيها الطبيعي ، عظمةً عجيبة . فقد عرفتها جميع الشعوب ، واحبّتها واحترمتها واطاعتها . وقد اتصلت بها كل السلطات الزمنية ، لا بل نازعتها ، فاضطهدتها . الا ان هذه السلطات تغيّرت ، فانحطّت ، فزالت ، فاضمحلت ؛ على حين ان سلطة المسيح في كنيسته ثابتة راسخة ، لان اساسها مكين ،

راكز على الصخرة البطرسيّة . وهي اليوم ، كما كانت في القديم ، زاهية ، محترمة ، مطاعة ، محبوبة ، في العالم كله ، بينما نرى عروشاً مدنيّة قد ثلّت ، وامبراطوريات قد تزعزعت فزالت ، ورئاسات دينية عظيمة تضعضعت ، لا بل تلاشت ، فاضمحلت .

فالمسيح لم يؤثر نفوذه الفعّال في حياتنا الادبية فحسب ، أو في الافراد وحدهم ، بل في الحياة الاجتماعية عينها . فاضحت رئاسته الآلهية بمنزلة الروح لهذا الجسم الجسيم ، وبمثابة الدولاب المحرك لجميع دواليب المجتمع الانساني .

فحري بنا ان نفتخر بكنيسة المسيح التي غيرت الالفة واصلحتها ورقتها في معارج الفلاح . لنحبن الكنيسة ، ولنتمسكن بتعاليمها الالهية . لنحترمنّ الكنيسة ولنخضعن لاوامرها وتهذيباتها . ومن كان خير عضو في الكنيسة المسيحية ، كان من احسن الافراد في الالفة الاجتماعية .

نفوذ السيد المسيح

في حياتنا الدينيّة

الدين صلة الانسان بالله صلةً ضرورية ؛ وضرورة هـــذا الاتصال ناشئة عن كون هذا ابن آدم خليقة اي صنيعة . وغير خاف ان كل مصنوع منوط حتماً بصانعه . ولما كانت كل خليقة تعيش وتأتي اعمالها، اية كانت ، حسب طبيعتها ، طبقاً للمبدأ الفلسفي القائل : « تجري الصنائع مجرى الطبائع ، » اراد الله سبحانه ان يقوم تعلّقنا به بموجب طبيعتنا . واذ كان الانسان مركباً من نفس وجسد ، وكانت نفسه متصفة بقوى اهمها العقل والارادة ، رتب ، جل جلاله ، ان يتوقف الدين ، اي اتصالنا به ، بنوع خاص ، على فعلين ، وهما معرفته تعالى ، وهذا مما يرجع الى العقل ؛ ومحبته عز وجل ، وهو مما ينوط بالارادة ، ومن ثم بالقلب . واذ كان الله الحق الاسمى والخير الاعظم، وجب على الانسان ان يعرفه بعقله ، اعني بقوته المعدّة لادراك الحق؛ وان يميل او يتجه اليه بارادته ، اي بقوته التوّاقة الى الخير .

وهذه المعرفة ، وهذه المحبّة ، المتكوّنة منهما حياة الدين الفطري، قد رفعهما الله الى درجةٍ لم يكن للانسان مندوحة للوصول اليها بما فطر عليه من القدرة الطبيعية ، وهي درجة معرفته ومحبته بنوع فائق الطبيعة . ومن ذلك نشأ الدين العُلْوي الموحى به ، اي الذي انزله الله تدريجاً اولا في بدء الخليقة ؛ ثم على يد موسى كليمه ومن تبعه من الانبيآء الصادقين ، على تعاقب الدهور ؛ الى ان أكمله على يد ابنه الوحيد ، حسبما جآء به بولس الرسول في رسالته الى العبرانيين بقوله:

« ان الله كلّم آباءنا قديماً بالانبيآء كلاماً متفرق الاجزآء ، مختلف الانواع . وكلّمنا اخيراً في هذه الايام بابنه الوحيد الذي جعله وارثاً لكل الاشيآء ، وبه انشأ الدهور . »

فالدين ، طبيعيّاً كان أم منزلا ، قائم اذاً في معرفة الله وما يتعلق به ؛ وقائم ايضاً في الميل الى الله ومحبته ؛ في الاول بنوع طبيعي ، وفي الثاني بنوع فائق الطبيعة . وهذه هي حياتنا الدينية . فاذا تقرر هذا ، لنبحث عن كيفية نفوذ السيّد المسيح فيها ، اي في معرفتنا لله ، ثم في محبتنا له ، تقدست اسماؤه .

* * *

يعلّمنا ايماننا ان الله موجود ، وانه خالق الكائنات عموماً ، وخالقنا خصوصاً . فمن ثم كان من اللائق ، بل من المحتوم ، ان يحصل لنا معرفة بالله وما يعود اليه ، اي بالعالم ، وبنفسنا . وهذه المعرفة المثلّثة الموضوع قد زاد تعالى على درجتها الطبيعية درجة سامية ، فائقة الطبيعة . فبسر الثالوث الاقدس ، قد عرفنا حقيقة طبيعته سبحانه ، وهو أمر كان ادراكنا عاجزاً غاية العجز عن تصور وجوده ؛ وبسر الخلق ، علّمنا حقيقة العالم ؛ وبسرّ سقوط الانسان ، قد أطلعنا على حقيقة طبعنا : وهذا كله قد كمل بالوحي الذي اتانا مع الانجيل . الا ان هناك سراً حوى مفعول هذه الاسرار كلها ، وخصّ لنا المعارف المنطوية عليها ، وهو سر التجسد الالهي ، الذي بواسطته كان للسيد المسيح الاثر البليغ في معرفتنا الدينيّة .

فبسرّ التجسد ، أو سرّ الكلمة المتأنس . قد علّمنا علماً فائق الطبيعة بطبيعة الله وحياته في ذاته . لان هذا السر يُظهر لنا ان الكلمة الازلي هو شعاع جوهر الآب وضيآء مجده ، الذي نزل من السمآء الى الارض ، لكي يلقّننا معرفة الله التي بها نقدر ان نحصل على الحياة ، كما قال لاسمه السجود موجهاً الكلام الى ابيه : « قد

جئت ، يا أبتاه ، لتكون لهم الحياة الابديّة ، وهذه الحياة الابديّة ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ، والذي ارسلته يسوع المسيح . »
فاحدى غايات التجسد كانت ان يعرفنا الله ويبيّن لنا سرّ حياته الداخلية ، اي مثلما هو في ذاته . وهو أمر كان ، قبل ان يعلنه المسيح ، سراً غامضاً حتى على حكمآء هذا الدهر . نعم ، كان للثالوث الاقدس بعض الاثر في تقاليد الامم ، وفي العهد القديم ، وكان له في الطبيعة عينها بعض الرموز . نعم من شأن الفلسفة والعلم اثبات وجود الله واعماله في الخارج . أمّا حياته الداخليّة فلم يكن في امكان انسان ، وان كان آيةً في العبقرية ، ان يطلعنا عليها . فالمسيح وحده أوحى بها الينا في انجيله . ودونك في ذا الشان بعضاً من اقواله : « ألا تؤمن ، يا فيلبس ، اني في الآب ، والآب فيّ ؟ آمنوا اني في الآب وان الآب فيّ . وانا اسأل الآب فيعطيكم معزّياً آخر يقيم معكم الى الابد ، الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي . فهو يعلمكم كل شيء . »

وقبل صعوده ، قال لرسله ، ذاكراً اقانيم الثالوث : « اذهبوا الى العالم كله ، وعمّدوا الامم باسم الآب والابن والروح القدس . »

هذه هي شهادة الابن عن الثالوث ، اي عن نفسه وعن ابيه وعن روحه القدوس . وبعد ان أوحى المسيح بسر الثالوث ، بشّر الرسلُ باسم الثالوث ؛ وباسم الثالوث علموا البشر ؛ وباسم الثالوث عمّدوا الامم ، وباسم الثالوث كان الشهدآء يرسمون علامة الصليب على جباههم ، قبل نزولهم مضمار الاستشهاد . فانت ترى ان سر الثالوث هو اساس الدين المسيحي ، وان ملخّصه هو في سر التجسّد ، اي في المسيح الاله المتأنس .

فضلًا عن اسرار الله قد كشف لنا المسيح حقائق الكون ، لانه نور ساطع على المبروءات جمعآء ، كما قال هو عينه : « أنا نور العالم . »

وبالحق انه نور العالم ، ليس في دائرة العقليات والادبيات وحدها ؛ بل هو نور العالم حتى في مادياته . اذ ان يقيننا بالله يعرّفنا بأصل العالم وخالقه . وبما ان المسيح هو كلمة الله ، فقد حوى في ذاته مثال المخلوقات باسرها ؛ وكما ان كل شيء فُطِر على صورته ، فقد كوّن ايضاً بفاعليّة قدرته ، كما جاء في انجيل يوحنا : « كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء ممّا كان . » فمن الجهة الواحدة نراه صادراً من الآب صدوراً ازلياً . ومن الجهة الثانية ، نجده خالقاً العالم في الزمان. فالكلمة ضياء الآب ومجده وصورة جوهره . والكلمة مثال الخلائق وباريها . وهذا هو السرّ الذي القى على العالم نوراً لامعاً ، لانه نور العالم . فالايمان بالوهيّة المسيح يحل عقدة أصل العالم وخلقه وتكونه ؛ ويبيّن لنا ان بين الله وبين خلائقه بوناً شاسعاً ، وان الكلمة المتجسد قطع هذا الشوط القصيّ ، فاضحى الصلة بين الله ومبروءاته ؛ وباتحاده في شخصه الالهي الطبيعتين الالهية والانسانيّة ، اثبت تميّزهما الواحدة عن الاخرى .

ثم ان سرّ التجسّد يظهر لنا ، بعد اصل العالم ، نظام الكائنات وتناسقها . لاننا نعلم ان هناك رجالا نوابغ وفلاسفة جهابذة قد درسوا طبائع الكون وعمّقوا في احواله ، فوجدوا في كل مكان ان الخلائق العليا اذا اتصلت بالسفلى ، رفعتها الى طبيعتها ، وجعلتها في مقامها . من ذلك النبات يجتذب اليه المعادن فيضمّها ، لا بل يمزجها في حياته النباتيّة . والحيوان يستميل النبات فيتمثّله ، فيدخله في حياته الحيوانية . والانسان المرتفع على كل ما تقدم من المخلوقات يجذب اليه الكائنات المعدنية والنباتية والحيوانية فيستغرقها كلها في طبيعته البشريّة ، ويرقى بها الى مقامه الروحي الذي يتصل به هو عينه بالطبقات العليا الرفيعة . فاذا كان هذا نظام الطبيعة ، افلا يمكن ان نتصوّر ارتفاعاً واتحاداً آخر ؟ اجل ! ان هذه الاتصالات قد جعلت

الانسان كالصلة بين الحلائق الجسمانيّة التي هي ادنى منه ؛ وبين الحلائق الروحية التي هي اعلى منه . لكن هناك اتحاداً لم يشاهد قط مثله في العالم ، وهو الاتحاد الذي اجراه الله بعجيبة ، اي اتحاد الانسان به تعالى ، وذلك في شخص المسيح الآله الحق ، والانسان الحق . وهذا الذي كلّل ذاك التناسق العجيب .

على ان المسيح الكلمة المتجسّد يعلمنا ، فضلاً عن هذا ، علم الانسان ؛ اي انه يعرّفنا بوحدة اصلنا وبطبيعتنا . لان من معتقدات الدين المسيحي ان البشرية قد سقطت ؛ وان منقذها هو المسيح ابن الله . مما نتج عنه ان كل البشر الذين خلصوا بيسوع المسيح هم الذين هلكوا جميعهم بآدم . فالسقوط جرى بآدم الاول ؛ والقيام ، بآدم الثاني . وهاتان هما العقيدتان المتجاذبتان والمتحدتان ؛ وكلتاهما تثبت وحدة الجنس البشري ، اي ان جميع هولآء الانام قد نزلوا من صلب أبيهم الوحيد ؛ ممّا جعلهم باسرهم اخوة بالطبيعة ، كما هم اخوة بنعمة المسيح . وبعد وحدة الاصل ، يلقّننا سر التجسد معرفة الطبيعة البشرية . لان عقيدة اتحاد لاهوت ابن الله بناسوتنا اتحاداً اقنومياً يوحي الينا ان لنا ، فضلاً عن الجسد المادي ، نفساً روحانية ، حرّة ، خالدة ؛ لما هو معلوم من اصول ايماننا ان التجسد لم يتوقّف على اتخاذ الكلمة من طبيعتنا الجسد وحده ، بل انه قد اضحى انساناً كاملاً ، اي ذا جسد ونفس أتحدهما بلاهوته . ممّا يَثبُت معه ان في الانسان نفساً حية روحانية ، لظهور النفس متميزة في المسيح عن جسده ، وقائمة بذاتها ؛ ونفساً حرة ، لانه قَبِل باختياره المطلق الآلام والموت ؛ ونفساً خالدةً ، لان نفسه باقية في المجد معه .

ومما يفيد به سر التجسد هو انه يوضح لنا تاريخ البشرية . اذ بدون المسيح ، كل التأريخ ، سابقه ، معاصره ، وتابعه ، لا معنى له. فبدونه لا يرى في الشعوب المتقدمة مجيئه سوى الاضطراب والتنازع

والتطاحن والتفاني . ولاسيما في الشعب الاسرائيلي ، فانه ان لم يعتبر بآبائه ، وانبيائه ، وشرائعه ، كتمهيد لمجيء المسيح ، فلا يكون وجوده وتاريخه الا زعبرة وشعوذة . وكذا القول في تأريخ تأسيس الدين المسيحي ونشأته . فبغير عقيدة التجسّد ، اي بدون الايمان بالمسيح ابن الله ، لا يمكن شرحه . اذ لا يمكن تعليل الانقلاب الذي احدثه . لان انخذال العالم الوثني ، وانتصار المسيحيّة امّا انه حادث الهي اي من تأثير المسيح الاله ؛ وامّا انه حادث مستحيل الوجود . وكذا ايضاً شأن التأريخ الذي عقبه الى يومنا هذا ؛ فان ثبات النصرانية ، على الرغم من الاضطهادات ، والتقلّبات ، والهرطقات ، ليس الا من مفاعيل ألوهيّة المسيح وقوته الفائقة الطبيعة المستمرة في الكنيسة حتى منتهى الدهور .

صفوة القول ، ان المسيح الآله هو كالفنار المنتصب على ساحل بحر هذا العالم متلالئاً ، ساطعاً بنوره على سبيل الحقائق الضرورية لنا معرفتها في ما يعود الى الله والعالم وطبيعتنا . فان كل شيء به ، ومعه ، وفيه . هذا نفوذه الاول .

* * *

على ان نفوذه الثاني ، اي تأثيره في الارادة التي بها نميل الى الله ونحبه ، ليس باقل فعلاً من تأثيره في عقلنا . لاننا اذا انعمنا النظر في حقائق ديننا القويم ، نرى فيه عجائب مذهلة ، نسبةً الى الاعمال التي اجراها الله لخير الانسان . لكننا نشاهد ، فوق كل تلك المدهشات ، عجيبة من اغرب العجائب تلمع بينها كالشمس النيّرة ، الا وهي عجيبة المحبّة . اذ اننا اذا عمقنا في التأمل ، نجد الهاً واجب الوجود ، كائناً بذاته ، قديراً ، غنياً ، حكيماً ، لا بداية له ولا نهاية ؛ حياته وغايتها ، سعادته وكمالها في نفسه . الا ان هذا الآله فيه خاصة جوهريّة هي خيريته أو جودته الفياضة التي دفعت حكمته وقدرته الى

العمل . فمن فيض هذه الجودة الالهية قد برزت قدرته الى الخارج ، فابدعت العالم بما فيه من كائنات سماوية وارضية . وفي جملة هـذه المبروءات صنع الله الانسان ، مميزاً اياه عن بقيّة الخلائق . وكان ذلك عجيبة من عجائب المحبة الالهية . خلقه من مادة جامدة نفخ فيها روح الحياة ، الروح العاقله ، المريدة ، الحرّة ؛ فجآء بذلك على صورة باريه ومثاله . فوضعه الله في جنة عدن ، وافاض عليه بركاته وآلاءه ، واقامه ملكاً مسلطاً على الطبيعة . وما سبب ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . سقط الانسان في الخطيئة ، رغماً عمّا زيّنه به من الكمالات ، وانعم عليه من الخيرات ؛ لكن الله ، عوضاً عن ان يهمله ، قصد ان ينشله من وهدة الهلاك . وما داعي ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . الملائكة اشرف من الانسان واسمى ؛ وكانوا قد سقطوا قبله ، فهلكوا هلاكاً ابدياً . اما الانسان ، ففضّله الله على الملائكة ، واختصّه بعنايته ؛ فما علة ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . هذه الارواح السماوية لم تخطأ الا خطيئة واحدة في ظرف من الظروف شقّ على طبيعتها غاية الشق ، فحصلت على التعس الدائم ؛ وابنآء البشر يأثمون ولا يزالون يكرّرون الاثم ، رافضين نعم الله ، محتقرين وصاياه ؛ ومع ذلك يحتم الباري ان ينقذهم . ولماذا ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان في امكان الله ، وقد جزم ان يغفر للانسان جرمه ، ان يفعل ذلك بكلمة واحدة تصدر من فمه القدوس ؛ لكنه قصد ان يخلّصه بتجسد كلمته الازلي ؛ لان التجسد اسمى درجة لاتحاد خليقته به ، واولى وسيلة لارضآء عدله ورحمته معاً . وهذا ايضاً عجيبة من عجائب المحبة الالهية . صار الكلمة جسداً وحل فينا ، اي انه ضمّ طبيعتنا الواهية الى طبيعته الالهية باقنومه السامي ؛ فاصبح الاله انساناً ، والانسان آلهاً ؛ وبذلك ارتفعت الافعال البشرية الى مقام الافعال الآلهية ؛ بما قدّر الانسان ان يكفّر ، في شخص المسيح ، عن خطيئته .

اجل ان هناك لسِراً عميقاً ؛ لكنه عجيبة من عجائب المحبة الآلهية . كان بوسع المسيح ان يكتفي بهذا العمل العظيم الذي لم يُرَ له مثيل ؛ لكنه لم يرضَ بانه تواضع هذا التواضع ، بنزوله من علو سمائه ، حيث يحف به الملائكة ركعاً سجداً مسبحين ؛ لانه رأى في قلب الانسان ميلاً شديداً الى الكبرياء ، فعزم على ابرائه منها . ولذا ، فهو الذي لم يحسب خلسة ان يكون مساوياً للآب ، قد اخلى نفسه وتواضع وصار في الشبه مثل الانسان ، فولد في مغارة حقيرة ، من أم فقيرة ، وعاش حياة المسكنة ، وقضى ايامه الرسولية بالتعب والعناء ، معرّضاً ذاته للمذلة والهوان . وهـــذا كله عجيبة من عجائب المحبة الالهية . ولم تكن المحبة لتقف عند هذا الحد ؛ لانه هكذا احب الله العالم حتى انه اسلم ابنه الوحيد ؛ والى اي شيء اسلمه ؟ ليس الى الشغل والتعب ، او الذل والعار فقط ، بل اذ كانت الخطيئة تدفع الانسان الى طلب الراحة والرفاهية والتنعم والملذات ، قد قرّر الآب الازلي ان يدفع ابنه الوحيد الى العذاب والآلام الفادحة ، لكي يفهم البشر انه لا كفّارة عن الخطيئة الا بتجرع غصص الألم ، وان طريق السماء هو طريق الصليب . وهذه عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان كافياً للمسيح الاله ان يأتي فعلاً واحداً ، كذرف دمعة ، او سكب نقطة دم أو ما اشبه ، للتكفير عن المآثم البشرية ، ولفداء عوالم جمّة ؛ لكنه ، فضلاً عن الاتعاب ، فضلاً عن الاحزان والكروب ، فضلاً عن الاوجاع والآلام ، اراد ان يموت الميتة الشنيعة ، ميتة الصليب ؛ لكي يثبت لنا انه كما ان لكل شيء حداً اقصى ، اقتضى ان تبلغ محبته للبشر اقصاها . هو الذي اذ كان قد احبّ خاصّته ، احبهم الى الغاية ؛ وهو القائل : « ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه ! » وهذا أعجب عجائب المحبة الآلهية . على ان المسيح المغرم بحب البشر لم يشأ ان يضحّي مرة واحدة على

الصليب كفّارةً عن مآثمنا ؛ بل انه ، اروآءً لغليل حبّه لنا ، قد رسم سرّ المحبة الذي امكنه به ان يكون ذبيحة متواصلة على المذابح ، تصدّ عن الخطأة سيف غضب الله الساخط عليهم ، لتفاقم شرورهم ؛ وفيه ايضاً صار طعاماً وشراباً لتقوية نفوسنا ، وزوّادة لنا في سفرنا الى الابديّة ؛ فضلاً عن انّه رضى ان يبقى سجيناً في كنائسنا ، ليقوم لدينا مقام الرفيق ، والخليل ، والمعزّي ، والمشجّع لنا في ضيقاتنا وتجاربنا واحزاننا . وهذا ليس عجيبة من عجائب المحبة فقط ، بل عجيبة العجائب ، واقصى حدّها ، وأوج كمالها ، في سبيل المحبة ، من قِبَله تعالى نحونا نحن البشر .

هذا ومعلوم ان المحبّة تدعو المحبّة . فاذ كان للسيد المسيح النفوذ البالغ في انشآء المحبة الالهيّة في الحياة الدينيّة ، فلم يكن الا لينشىء في قلوب البشر محبةً تقابل هذه المحبة الربانية . وبالحق ان المسيح القائل : « جئت لالقي ناراً على الارض ، وما اريد الا اضطرامها » قد أضرم حريقاً في العالم ، هو حريق المحبة المتأجج في النفوس ، منذ تجسّده وحياته الارضية ، وعلى مدى الدهور . فنجم عن ذلك تجاه عجائب المحبة الالهيّة ، عجائب المحبة الانسانية . اذ مقابل محبة المسيح ، وبنفوذ نعمته ، نرى عجائب المحبة في امه القدوسة ، التي عاشت على الارض متحدة القلب بابنها الالهي ؛ فكانت كشعلة ملتهبة بنار المحبة ، وشاركته في اتعابه وآلامه ؛ ولم تفارق هذا العالم الا لشدة حبها لحشاشة فؤادها ، وفلذة كبدها . وكذا القول عن القديس يوسف ، مربي المسيح ، فانه عاش بقرب اتون المحبّة ؛ ولذا التهب هو ايضاً بنيرانها الالهية . وبنفوذ نعمة المسيح الفعّالة ، قد تأثر رسله الاطهار الذين تركوا كل شيء وتبعوه . ولاسيما زعيمهم بطرس الذي اجهر بحبّه للمسيح في فرص كثيرة ؛ ويوحنا الذي دعاه الانجيل « التلميذ الحبيب » وقد اضحى رسول المحبة . وماذا نقول عن بولس الرسول

الذي التهب بمحبة معلمه ، فكان يصرخ قائلاً : « من يفصلنا عن محبة المسيح . اشدة ام ضيق ، ام جوع ، ام عري ، ام خطر ، ام اضطهاد ، أم سيف ؟ اني واثق بانه لا موت ، ولا حياة ، ولا علوّ ، ولا عمق ، ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربنا . » وقد ختم جميع الرسل ايمانهم ومحبتهم باقتدائهم بمحبّة معلمهم العظيمة ، اي انهم سفكوا دماءهم في سبيل دين يسوع الذي بشروا به .

وعلى مثال الرسل قد سار الوف فالوف من المسيحيين ، رجالا ونساءً ، شيوخاً وعجائز ، شبّاناً وشابّات ، صبياناً وصبيات ، فاغرموا بحب المسيح هذا الغرام البالغ بهم اقصى الحد ، اي انهم تكبّدوا العار والهوان ، والتعب والمشقات ، والعذاب والآلام القاسية ، شهادة للدين المسيحي ، فنالوا اكليل الظفر ، والسعادة الخالدة . وبمعزل عن هولاء ، هنـــاك الوف وربوات من الابرار ، من مصاف النسّاك والمتوحّدين ، والرهبان والراهبات ، والكهنة والاساقفة ، والاحبار العظام ، الذين احبّوا المسيح حبّاً جماً ، وحققوا في نفوسهم فضائله السامية ، محاربين اميالهم المعوّجة ، سائرين في طريق الكمال ، فاحصوا بين القديسين .

الخلاصة ، ان للمسيح الاثر البالغ ، والنفوذ التام في حياتنا الدينية . لانه عرفنا الله معرفة كاملة بطريقة فائقة الطبيعة ، واطلعنا على حقيقة العالم ، وماهيّة طبيعتنا وحياتنا . وكان الوسيط بين الله ابيه وبيننا . وقد جاء فالقى في العالم نار المحبة ، فاشتعلت بها النفوس ، وتأجّجت لهباتها في القلوب ، فدفعت تلاميذه الى اتيان الاعمـــال العظيمة ، والمشاريع الباهرة ، مما حيّر الورى في كل عصر وجيل . فسبحانه هو القادر على كل شيء ، هو المنير العقول ، هو المضرم القلوب . وله المجد والتسبيح والشكران في كل اوان .

ضرورة النعمة

من عقائد ايماننا القويم ان الباري ، عز وجل ، خلقنا ، طبقاً لحكمته الازلية ، لاجل غاية توخاها ؛ غاية ليست بمآزية لطبيعتنا البشرية ، بل متفوقة على مطلباتها وقواها . وذلك انه قد اختارنا للحياة الدائمة المتوقفة على الاشتراك في حياته عينها . وحياة الله قائمة في معرفته لذاته ومحبته اياها . فنحن اذاً مدعوّون لنرى الله كما يرى ذاته ، ونملكه كما يملك ذاته ، ونحبه كما يحب ذاته . تلك هي الحياة الخالدة ، تلك هي الدعوة التي نحن مصطفون لها ، تلك هي الغاية التي يجب علينا ان نتوق اليها . هذا ما قد أعِدّ لنا في الديار الابدية ، من فضل الله وفيض كرمه .

لكن هل يا ترى من تأثير لهذه الدعوة في عيشتنا الحاضرة ، في هذه العاجلة ؟ هل ان الله تعالى ، الذي اجتبانا واعدّنا لنيل هذا الأجر ، يمنحنا الآن القوى الكافية للحصول عليه ، أو انه يجتزىء بان يطلب منا حسن التصرف بضميرنا وحريتنا ؟ القصارى ، هل في مقدرتنا ان نصل الى غايتنا القصوى الفائقة الطبيعة بقوانا الطبيعية وحدها ، أو انه لا مندوحة لنا من التذرع بوسائل من جنس هذه الغاية ، وملائمة لها ، لنفوز بهذا المرام ؟

هذه المسألة التي يتحتم على كل مسيحي ان يعرفها حق المعرفة ، ويوقن بحقيقتها ، لما لها من الخطورة في حياته ، واعماله الادبية والدينية . فلننظر اذن فيها ، مستنيرين بنبراس تعاليم الكنيسة المقدسة ، المعززة بايات الكتاب الكريم ، وحجج العقل السليم .

* * *

اذا اردنا الوقوف على حقيقة تعليم الكنيسة ، في صدد هذه العقيدة ،

فلنفتح التأريخ الكنسي ، نعلم منه انه في اوائل القرن الخامس ، كانت بيعة الله باسرها في حالة قلق واضطراب غير مألوفة . فقد كان احبارها ، حرّاس قطيع اسرائيل ، ملتئمين في مجمع من تلك المجامع المقدسة التي جاءت ، في كل عصر ، وسيلة فعّالة لاثبات الحق ، والدفاع عن حريّة الدين . وكان ملافنتها العظام ، وفي مقدمتهم الكوكبان النيران ، هيرونمس واوغسطينس ، قد تقلدوا اقلامهم للذب عن حياض العقيدة المستقيمة ، بشديد الغيرة والحماسة . مما نجم عنه ان ذاك الاضطراب كان بالحقيقة دليلاً على وجود اخطار محيقة . فما يا ترى كان قد جرى ؟ ان زمن الاضطهادات الدموية كان ، والحمد لله ، قد زال . يوليانس الجاحد كان قد مات وقبر ، واضمحلت معه اضاليله وقساوته . كان قد مضى نحو قرن على موت آريس المضل الكبير . وأمّا بدعته ، وان لم تكن قد تلاشت تمام التلاشي ، الا انها لم تعد بعد ذات خطر جسيم على الكنيسة . فما يا ترى اذن كان قد جرى ؟ اجل ان اريس كان قد زال من الوجود ، الا ان اريساً آخر ، اي هرطوقياً ، اسمه بلاجيس حاول ابطال نتائج التجسد الالهي . فانه كان يجحد ضرورة نفوذ الله ، بمساعدة علوية ، في أمر خلاص البشر ؛ وذلك ، حسب مدّعاه ، لان الانسان يستطيع ، بمجرّد قواه الطبيعية ، التوصل الى امتلاك الله والتمتع به .

ففي هذا الزعم الضلالي رأت الكنيسة الخطر المحدق ؛ فاوجست خيفة ، فقامت من ثم لمناهضة هذه الهرطقة الحديثة ، فرشقتها في مجمعها بسهام الحروم النافذة ، معلنةً بسلطتها القوية الخالدة ، تعاليم الحقيقة الكاثوليكية الراسخة . وما دافعت عن صوابه ، عصر ذاك ، لم تكن لتنفك عن المناضلة عنه في كل زمان . ولذا ، فلما قام بعد عدة قرون ، مبتدع آخر ، باثاً بين القوم سم اضاليله ، في صدد هذه العقائد والاسرار عينها ، لم يكن منها الا ان تذكرت تعاليمها التي اثبتتها في

القرون السالفة ، فضربت بسيف الحرم هذه الاضاليل المجدّدة ، مؤيدةً ضرورة مساعدة الله للانسان بقوة فائقة الطبيعة ، تمكنه من الوصول الى غايته السامية .

هذه خلاصة تعاليم الكنيسة الكاثوليكية في ذا الشأن . وهي تعلم اليوم ما علمته في الامس ، وما سوف تعلمه في مستقبل الايام . وان كان في هذا العصر يقوم في وجهها اضاليل كما قام في السابق ، فانها لاتخيفها كما لم تخفها اباطيل الازمان القديمة . وطبقاً لهذا التعليم المقدس ، يجب ان نؤمن بان الانسان مسيّر الى غايته الفائقة ، ليس بعون خارجي وحسب ، بل بمبدأ داخلي ملازم لحياة سامية . وهذا المبدأ هو ما يدعوه اللاهوت « النعمة المقدّسة » اي الهبة الممنوحة للانسان قصد تقديسه .

* * *

يعزّز هذا التعليم مختلف الآيات الواردة في الكتاب المقدس . فقد قال الرب له المجد : « بدوني لا تقدرون ان تعملوا شيئاً . » وقال مار يوحنا الرسول ، في مفتتح انجيله : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله كان الكلمة . كان هو النور الحقيقي الذي ينير كلّ انسان آتٍ الى العالم . الى خاصته جاء . وخاصته لم تقبله . أما الذين قبلوه ، فاعطاهم سلطاناً ان يكونوا ابناء الله . » وكتب في رسالته الى المسيحيين الاولين : « انظروا اية محبة منحنا الآب ، حتى ندعى ونكون ابناء الله . » وقال مار بولس الرسول في رسالته الى اهل رومة : « وجميع الذين يقتادون بروح الله هم ابناء الله . » وعليه فبالنعمة نضحي اولاداً لله ؛ مما ينجم عنه ان النعمة قوة تشرك الانسان في طبيعة الله . وهذه النتيجة تظهر باجلى بيان ، اذا دققنا الفحص في سرّ التبنّي الالهي .

كيف يا ترى نحن ابناء الله ؟ ممّا لا شك فيه اننا لسنا ابناء الله

بالولادة الازلية . لان مار بولس الرسول يسأل في رسالته الى العبريين قائلاً : « لِمن من الملائكة قال قط : انت ابني ، وانا اليوم ولدتك . وايضاً : انا اكون له اباً ، وهو يكون لي ابناً . » فلله لم يكن ، منذ الازلية ، الا ابن واحد ، اي ذاك الذي قال عنه مار يوحنا الحبيب : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله كان الكلمة . » لان حصول الله على ابن بهذا المعنى يستلزم اقامته لذاته مثيلاً معادلا ، وانشاءه فيه جميع الخواص الطبيعية والحقوق الناجمة عنها . فلو كنّا ابناء الله من هذا القبيل ، لصرنا آلهة بالطبيعة ، وبطلنا ان نكون خلائق ذليلة . فاذن نحن لسنا ابناء الله بالطبيعة .

على ان اسم الابوّة وحقيقتها لا يقفان عند هذا الحد . ولذا فعلينا ان نبحث في النظام البشري ، عن مثال للسُنَن الالهية .

من ذات طبع الابوّة ، في الحالة العائلية ، ان تتطلّب وجود البنوّة الفعليّة ، بموجب الشروط الطبيعية . الا ان لهذه القاعدة شذوذاً ، كما لكل قاعدة . اذ قد يحدث ان شجرة الرجل لا تنال بركة الخصب ، لاصابتها بالعقم ؛ فيتعذر عليه ، اذ ذاك ، ان يحصل على ثمرة ، يليق به ان يقول لها : « انت ابني ، وانا اليوم ولدتك . » وهي آفة من اكبر آفات الحياة البشرية التي من ذات طبعها النمو والتكاثر بالتوالد . فاذا اراد الرجل — وحالته هذه البؤسى — ان يعمد الى التسلية وتخفيف وطأة هذه البلية ، بالحصول على ذرية نسبية ، فانه يختار له فرداً من أولاد الناس ، فيقيمه لنفسه ابناً بالذخيرة ، يحبه كما لو كان ابنه بالطبيعة ، فيشركه في حياته ، ويتخيّل فيه دمه وصورته وعلائمه ؛ ويطيب له ان يدعوه هذا الابنُ « يا اباه » . بمعزل عن البنوة الطبيعية ، هناك بنوة المحبة ، تلك البنوة الناجمة عما يسميه الناس « التبنّي » وما التبنّي ، في عين الانسان ، سوى الاستعاضة عن البنوة الطبيعية .

هذا ما يصنعه البشر ، وهذا ما يعمله الله ايضاً ، لكن لا من باب الاحتياج ، لكونه حاصلاً على ابن مساوٍ له في كل شيء ، بل من باب المحبة ، وغزارة الجودة ، وشدة الرغبة في اشراك الخليقة في خيراته . ولذا القى نظرة الى بشريتنا ، فرأى انه في امكانه ان يقربها منه « بالتبنّي » وتحقق انه بهذا العمل يقدر ان يوجد اخوة لابنه الازلي. واذ كان قد قال في بدء الخلق : « لنصنعنّ الانسان على صورتنا ومثالنا . » قال حينئذٍ : « لننشئنّ لنا ابناء ، ولا تكن صنعتنا الخلقة وحسب ، بل لنضف اليها خاصة الابوّة . » فعندها تحركت احشاؤه ، تعالى ، فاضحى لنا اباً . وهذا هو السر الذي كشف لنا عنه مار يوحنا الحبيب بقوله : « والذين قبلوه اعطاهم سلطاناً ان يكونوا ابناء الله . »

فاذا تقرر هـــذا ، امكنا الاستنتاج بان النعمة هي اشتراك في الطبيعة الالهية . اجل ان ذلك غير ظاهر جلياً في « التبني البشري » لان المتبنّي لا يهب لمن يريد تبنيّه الا حقاً خارجياً صرفاً . ويبقى الشخص غريباً عن الاشتراك في الطبيعة . يمتّع المتبنّي متبنّاه بغناه ، وينزله منزلة خاصّة في عائلته وبين احبائه ، الا انه يقف عند هـذا الحد ، لملازمة النقصان طبيعة الانسان . أما الله فطبيعته خلوٌ من كل نقص وشائبة .

ترى الانسان مالكاً اموالا خارجة عنه . لانه عاجز عن القيام باعالة ذاته من داخل ، فيفتقر الى الاستعارة من الخلائق الخارجية عنه قوة ليست بموجودة في داخله . اما الله فهو على خلاف ذلك ، لكونه ينبوع حياته عينها ، والميراث الذي يشركنا فيه هو نفسه التي يتفضّل علينا بمعرفتها ومحبتها . ولهذا وجب في هذا التبنّي ان تضحي النعمة ، تلك العطيّة الفائقة الطبيعة والمجّانية ، خيرنا وملكنا ، والقوة التي بها يمكننا ان نبلغ اليه تعالى .

ومَن شك في ذلك ، فليعمد الى الكتاب المقدس ، يسطع له منه

النور الباهر . فقد ورد في رسالة بولس الرسول الى اهل رومة ما هذا نصه : « هو الروح عينه يشهد لارواحنا باننا ابناء الله . وحيث نحن ابناء الله ، فنحن ورثة ، ورثة الله ، وواثورن مع يسوع المسيح .» فالبنوّة ، حسب تعليم الرسول ، شيء سابق ، والوراثة شيء لاحق . اتبنّي مبدأ ، والميراث نتيجة .

وهذا ما يشهد به الروح عينه المفاض فينا . وجاء ايضاً في رسالة الرسول الى العبريين : « اننا مشتركون مع المسيح ، ما دمنا حافظين بداءة القيام فيه ثابتة الى المنتهى . » ويؤيد هذا الكلام قول مار يوحنا الرسول : « كل من هو مولود من الله لا يعمل خطيئة ؛ لان زرعه ثابت فيه ؛ ولا يستطيع ان يخطأ ، لانه قد وُلد من الله . » معنى ذلك ان ابن الله فينا كالثمرة الكائنة في البذر الذي يحويها . »

تلك كلها حقائق تدلنا على ما اقتضى لله من الاعمال الحبيّة ، وما أتى به من العجائب ، لجعلنا مسيحيين ، اي بشراً معدّين للتمتع برؤيته . نعم انه منحنا ذاته في سرّ التجسّد ؛ نعم انه اعطانا نفسه في سرّ القربان ؛ الا انه لم يكتفِ بذلك ، بل اراد ان يكمّل تلك الافعال ، بانعامه علينا بقوة الاشتراك في المجد والسعادة . ولذا فعند تفرّسنا في النفوس الحاصلة على النعمة ، يجدر بنا ان نهتف مع النبي اشعيا قائلين : « قلت انكم آلهة وابناء العلي جميعاً . »

اجل نحن آلهة ليس لتوقعنا امتلاك الله يوماً فقط ؛ ليس لاننا صورته ومثاله لا غير ؛ ليس لاستطاعتنا البلوغ اليه بعقلنا وقلبنا وحسب ، بل بنوع خاص ، لاننا مدعوّون لمشاركته في طبيعته مشاركة عجيبة . ولذا ، فبعد ان بسط الرسول المجتبى ، في رسالته الى اهل افسس ، مشهد الحبّ الالهي ، في تدابير خلاصنا ، قال : « انتم الان نور الرب ، فاسلكوا كابناء النور . »

* * *

فضلاً عن ايات الكتاب العزيز، تؤيّد هذه الحقيقه بنور العقل السليم ؛ لانه يكشف لنا عن ضرورة النعمة ، ودخولها في منهاج تدابير العناية الالهية في العالم .

من شأن العقل ان يدّلنا على ان الله بخلقه المبروءات عيّن لها غاية ، وجعل لهذه الغاية وسائل مناسبة في الحياة . وهي سنة مطردة هذا الاطراد ، حتى انه يمكن ان يقال ان الغاية تعرف من طبيعة الخليقة . فاذ اراد الله ان يبلّغنا الى غايتنا ، انشأ فينا حياةً ملائمة لها . واذ كانت غايتنا رؤيته والتمتع به في الابدية ، وجب ان تكون حياتنا الحاضرة موافقة لحياتنا في الاخرة . ولكي نفهم هذه الحقيقة يتحتم علينا ان نرقى في سلّم الخلائق ، باحثين عن السنن القائم عليها مدار الحياة .

الكائنات ليست على حد سوآء من حيث التنعم بالحياة . لانها تتدرج في هذه السلّم من الذرة الدقيقة الى الله ، العظمة بالذات . وبين هذه الدرجات المتفاوتة في الكمال ، تستضيء الموجودات بانوار الألوهية مستمدة من ينبوعها ماء الحياة غير الناضب . ففي أسفل السلم نلاحظ المادة وما يجاورها من المواليد المعدنية حيث تكاد تظهر دلائل الحياة . وفوق ذلك النبات ، فالحيوان ، فالانسان ، فالملاك . وفي قمة السلّم نرى الله مستوياً ، سائداً على كل هذه المبروءات الصادرة عنه بالخلقة .

ومما لا ريب فيه ولا مندوحة عنه ان يقابل كل درجة من هذه الدرجات ، درجات الحياة ، عمل مناسب لها وخاص بها ، يعيّن حدود الوجود لها ، ويميزها عن الخلائق القريبة منها . الكائن الخالي من الاعضاء يجلب اليه العناصر التي منها يتجمع قوامه ؛ النبات يحيا بالحياة النباتية ؛ الحيوان بالحياة الحسيّة . اما الانسان والملاك والله عينه فيحيون بالحياة العقلية . القصارى كل عمل من اعمال الكائنات يجري جرياً مناسباً

لطبائعها . وعليه ، فاذ كان الانسان ليس على درجة الملاك من الحياة والكمال العقلي ، وكان الله سبحانه يفوقهما بنوع غير متناهٍ ، نجم ان ان طريقة التعقّل في الانسان ليست كطريقة التعقل في الملاك ؛ وتلك الطريقة عينها في الملاك مختلفة عما هي عليه في الله .

الانسان والملاك والله يدركون الحقيقة ، لكن الانسان يحيط بها كانسان ، والملاك كملاك ، والله كاله . اي ان الاولين يدركانها بنوع محدود ؛ والله بنوع غير موصوف ولا محدود . وهذا الفرق في طريقة المعرفة يدّلنا على الكمال المختلف في الحياة التي يتمتعون بها . فاذا كان الامر كذلك . فما هي الخاصة الفارقة اللائقة بالله في اعماله ، وماذا يميزها عن كل عمل ادناها ؟

الله غير متناهٍ بالطبيعة ؛ فعمله اذاً غير متناهٍ كطبيعته ، طبقاً للمبدأ القائل : تجري الصنائع مجرى الطبائع . وبما ان عمل كل كائن ليس سوى نتيجة قوته الطبيعية المنتهية الى موضوعٍ مناسبٍ له ، وجب ان يكون موضوع عمل الله غير متناه كطبيعته وعمله . فاذن معرفة الله ذاته كما هي في طبيعتها تنشىء الخاصة الفارقة لاعماله ، جل شأنه .

اجل ! ان الانسان يمكنه ان يعرف الله . لكنه يدركه باشعة الحلائق اللامعة في ظلمات قاتمة . الملاك يعرف الله ، لكن بالنور المتناهي الذي منحه اياه الباري نفسه كخاصّة فارقة لحياته . فالله وحده يعرف ذاته كما هي ؛ وليس من خليقة في وسعها ان تبلغ الى الحد غير المتناهي لهذا الموضوع الوحيد .

فترى ان العقل البشري يثبت لنا هذه الحقيقة ، وبذلك يؤيّد تعاليم الكنيسة ، ويشهد لقول السيد المسيح نفسه : « لا احد يعرف الابن الا الاب ؛ ولا احد يعرف الآب الا الابن ، » ومن ثم قد شجبت الكنيسة الضلال المدعي بان الخليقة العاقلة قادرة بذاتها ان

تبلغ الى الله وتدركه ، كما هو بذاته ، وتتمتع برؤيته .

على انه اذا كانت الحياة الابدية ، كما علمنا من شواهد الكتاب المقدس ، وتعليم الكنيسة ، متوقفة ، للانسان ، على معرفة الله ؛ واذا كان حقاً أنه يأتي يوم فيه تسقط الحجُب ، فننظر اليه تعالى وجهاً بازآء وجه ؛ أجل ! اذا كان كل ذلك حقاً ثابتاً ، فكيف التوفيق ، والحالة هـذه ، بين هذه الحقائق وبين ما وقفنا عليه بنور العقل من تفوّق الطبيعة الالهيّـة على طور عقلنا بما لا يحدّ ،

ليس لذلك الا افتراض وسيلة واحدة وهي ان يرفع الله الانسان فوق طوره ، فيشركه في طبيعته الالهيّـة . وهذا ما تعلمه الكنيسة الكاثوليكية . لانه ما دام الانسان انساناً ، وما دام لا يبرز الا اعمال قواه الضعيفة ، فلا مكنة له ابداً ان يعلو فوق طبيعته الزاحفة على الحضيض ، لكونه خليقة محصورة ضمن حـــدود ضـيّقة ، ومن ثم ، فالموضوع الذي يبلغه محدود . والسبب في ذلك ان النور معدّ للعيون القادرة على ادراكه . لكن هل يُعقَل ان الله يفيض علينا ذاته ؟ هل يجوز للطبيعة البشريّة ان تشترك في الطبيعة الالهية ؟ أوليس ان الله من ذات طبعه قائم في وسط النور الذي لا يصل اليه احـد ، اي فوق كل كائن مخلوق او قابل الخلق ؟ أوليس اننا نكون قـد انكرنا هذا السمو الالهي ، اذا قلنا بامكانية اشتراك الانسان في هذه الحياة الآلهية ؟ اجل ! هذا حق وصواب ، ولسنا بجاحديه . لانه ، والحق يقال ، ليس من خليقة قادرة ، من ذات طبعها ، ان تشترك مع الله في طبيعته . الله واحـــد بالجوهر ، مثلث بالاقانيم . وقد كان هكذا منذ الازل ، وقبل الدهور . بيد انه طاب له ان يأتي الى الوجود بالكائنات التي لم تكن موجودة . خلقها متميزة عنه ، ذات طبيعة ادنى درجةً من طبيعته ، وان كانت صادرة عنه . هـذا هو التعليم الكاثوليكي الذي يؤيده العقل بادلته الدامغة . اجل ! لا نجهل ان هناك

قوماً يجحدون هـذا التعليم ، لكن ما لنا ولهم ، لندعهم يعملون ما يريدون ، لنتمسك بشهادة الايمان القويم ، والعقل السليم .

على انه في ما خلا ميدان هذه العقيدة ، أليس لله من مجال ان يشرك غيره في ذاته ، اي ان يهبه نفسه ، لا بمنزلة طبيعة ، لكن بمثابة نعمة تضاف الى هذه الطبيعة ؟ وهل من الصواب القول بعجز الله عن اتيان ذلك ؟ كلا ! ليس هذا من الحقيقة في شيء . اذ كيف يسوغ هـذا المدّعى ونحن نرى الخلائق عينها ، مع كونها ضعيفة ، ذليلة ، تجري اعمالا من هذا القبيل . أَوَلا يمكن للبشر ان يهبوا ذاتهم بعضهم لبعض ؟ أجل ! دونك رجلًا يلاقي يوماً من الايام خليقة شبيهة به ، ضعيفة مثله ، واذ تقع في قلبه موقع القبول ، يوجه اليها هذا الكلام : « ايتها الخليقة المضارعة لي ، قد شُغِفت بحبك . فدونك حياتي ، خذيها ، ولتكن ملكك الى آخر نفس من انفاسي ، ولنصبح متحدّين ، ولنكن ، باتحادنا ، سعيدين . » فتجيبه ، وقد شعرت بمثل ما شعر : « لقد قبلت ووافقت عن رضى وملء مسرّة . » وفي الحال يمنح واحدهما ذاته للآخر دون رجوع . ومنذ ذاك اليوم يحتسبان ذاتهما مغبوطين ، ويشعران بنفسهما قد عظمت وشرفت بهذه العطية المتبادلة ، وانهما قد اكملا ، بالحب ، اعظم عمل من اعمال الحياة البشرية . وبالحق لقد اصابا المرمى ، اذ في نظام الامور الطبيعية البشرية ، ليس من شيء اسمى واقدس من عمل هبة الذات .

فان كان هذا الحال حال البشرية ، فهل يمكن ان يقال بان الله ليس فيه هذه العظمة ؟ هل يجوز يا ترى ان يكون الله اقل كمالا وسعادة من خلائقه ، هو الذي منحها الكمال والسعادة ؟ كلا ثم كلا ! هذا مستحيل . لان في قدرة الله ان يهب ذاته . وهذا التعليم الكاثوليكي يفيدنا بانه تعالى قد اعطى ذاته ، واعطاها بطريقة اكمل من جميع طرائق البشر . فانه يوم عزم ان يخلص العالم ، أتى ذلك العمل العجيب

الذي لم تزل الاجيال ، منذ وقوعه ، تجله وتحترمه ، وهو ما ندعوه التجسد الالهي ، اي الاله المتأنس ، الاله المتحد بالانسان ، الاله الكلمة الموحد الشخص ، المضاعف الطبيعة .

فما عمله الله مرة ، لما لا يمكنه ان يعمله مرتين او ثلاثاً ، او عشرات او مئات لا بل الوفاً وربوات ، وان يصنعه في كل زمان ومكان ؟

نعم ان هذا المنح او الاتحاد الناجم عنه لا يجري باتصال أو اشتراك اقنومي ، كما جرى في سر التجسّد ؛ لكنه مع ذلك لا يخلو ان يكون اتحاداً حقيقيّاً فعّالا ، ألا وهو الاتحاد بالنعمة المقدسة التي بها يهبنا الله ذاته ويرفعنا اليه ، مشركاً ايّانا في حياته . أجل ان الله يتحدنا بطبيعته ، ويتّحد بطبيعتنا بنعمته . وهذا ما نشعر به متى كان قلبنا خالياً من الخطأ . وهذه الحياة ، حياة النعمة ، هي استعداد ، لا بل عربون للحياة الالهية الفائقة الطبيعة ، المعدّة لنا في الآخرة . فلنشكر الرب الذي دعانا الى هذه الدعوة السامية ، ولنحرص على العيش في حال النعمة ، حتى اذا ما ثبتنا في القداسة ، نحظ يوماً بالسعادة الخالدة .

ينبوع النعمة

رأينا في الخطبة السابقة ان الله قد دعانا الى العيش عيشة خالدة، عيشة تفوق طور طبيعتنا، عيشة متوقفة على رؤيته تعالى ومعرفته والتمتع بحياته. ولذا فقد اعدّ لنا في هذه الدنيا الوسائل الفعّالة المؤدية الى هذه الغاية. واذ كان من الواجب ان تكون الوسائل من جنس الغاية، منحنا الرب مساعدة فائقة الطبيعة، وهي ما ندعوه «النعمة»، تلك المساعدة التي بدونها لا يمكننا ان نعمل عملاً واحداً من اعمال خلاصنا. وقد وقفنا على تعاليم الكنيسة في ذا الشأن، بشهادة الكتاب المقدس، الدالة اياته على ان الله جعلنا اولاده بالذخيرة، واخوة لابنه الازلي، فاشتركنا، بواسطة هذه النعمة، في حياته الالهية. ثم بالادلة العقلية المثبتة بان الخلائق موجّهة الى خالقها بطرائق ملائمة لطبيعتها، وان طبيعة الانسان ان يعرف الله بعقله، ويحبه بارادته وقلبه. بيد انه اذ كان الله، موضوعُ هذه المعرفة وهذه المحبة، غير متناهٍ؛ وجب ان يهب الباري عبده قوة فائقة الطبيعة بها يستطيع ان يراه تعالى ويحبه كما هو، ويشترك في حياته اشتراكاً فعّالا. وهذا ما قد جرى بفعل النعمة.

اما الآن، فبعد ان عرفنا ماهية النعمة وضرورتها، لنبحث عن مصدرها أو ينبوعها، وهو سيدنا يسوع المسيح الذي به اتانا الخلاص، ومن ثم النعمة المخلصة أو المقدسة.

* * *

اضحى المسيح ينبوعاً فياضاً تأخذ البشرية من امتلائه نعمة بدل نعمة ، لانه اصبح ، نسبةً الى البشرية ، كالرأس نسبةً الى الاعضآء ، حسب قول الرسول بولس : « نصدق بالمحبة ، فننمو في كل شيء للذي هو الرأس ، للمسيح ، الذي منه كل الجسد يتسق ويتلاءَم بكل المفاصل المتعاونة . فحسب العمل الذي يناسب كل عضو ينشيء لنفسه نمواً ، لبنيانه في المحبة . »

وعليه ، اذا ارتقينا بنور الايمان الى صدر البشرية ، وابّان خلقة ابوينا الاولين ، نجدهما حاصلين على مجد حالتهما الاولى ، اي مخلوقين على صورة الله ومثاله ، ومدعوّين الى غاية فائقة مطلبات طبيعتهما . وهذه الحالة ، حالة النعمة الاولى ، كانت تعدّهما لحالة المجد الموعود به ليس للانسان الاول وحده ، بل لكل ذريّته ؛ على شرط ان ابا الجنس البشري أو رأسه يستمر خاضعاً لله ؛ والا فان حدث وتمرّد هو على ربّه ، فانه يجد في ذلك العصيان مبدأ الانحطاط له ولنسله . وهذا ما قد حدث ، كما لا يخفى . فنتج عنه الحالة البؤسى لكل العالم ، وهي الحالة التي نحن فيها . اذ بعد آلاف من السنين ، نرى اثار خطيئة ادم مثقلة علينا . فعوض ان نكون متشحين بوشاح البر ، والحالة الفائقة الطبيعة ، متذرّعين بالأيد الالهي ، ها نحن اولآء نولد ولادةَ الورثة المحرومين من ملكهم ، ولادة المعترين بالضعف والأسقام ، أي ولادة المائتين عن النعمة . وهذه الاحوال باقية على هذا المنوال ، حتى منتهى الاجيال . وليس الايمان وحده يؤيّد لنا صحة ذلك ، بل الاختبار عينه ، فان كثيرين من الفلاسفة والمفكرين ، لما عمقوا في درس الحياة البشريّة ، وقفوا فيها على اثار خرابٍ عظيم ، وانحطاطٍ وخيم .

على ان الله لم يكن ليدعَ الانسانيّة في تلك الحال الشؤمى ، اي في حال السقوط دون امكانية القيام . أجل لم يكن ذلك في

الامكان ، لمخالفته حكمته ومقاصده . فان دعوته البشر الى السعادة العُلوية المقبلة كانت ثابتة رغماً عن السقطة القديمة . ومن ثم كان واجباً ان يستطيع الانسان ، ان شاء ، العيش في هذه الدنيا عيشة فائقة الطبيعة : ويحصل على الوسائل التي تمكنه من ان يسترجع لنفسه النعمة التي فقدها ، فلزم لذلك ان يقيم الله في العالم رأساً اخر للجنس البشري ، ينزل منزلة العين الروحية ، تتدفق منها مياه الخيرات العلوية ، عوضاً عن العين الاولى التي نضب ماؤها بمعصية ادم الاول .

فمن هذه الملاحظات ينجم انه للحصول اليوم على النعمة ، يجب ان نولد من واحد ، وأن تأتينا النعمة من مبدأ شامل . اذ من المناسب ان تعود الينا عن الطريق التي بها فقدناها . فقد حُرمناها على يد رأس متمرد ، فوجب اذن ان تؤوب الينا بواسطة راس خاضع . وكما لزم ان ننال النعمة الاولى بآدم الاول بالميلاد الطبيعي والنزول من الصُلب الاصلي ، اقتضى الأمر ان نفوز بالنعمة الفائقة الطبيعة ، بولادة روحية ، من ادم الثاني الالهي ، وهو المسيح الكلمة المتجسد .

فاذا تقرر هذا ، ظهر جلياً خطأ الكثيرين من ابنآء هذا العصر القائلين بانه لارضآء الله يكفي الرقي الى ذات كل شخص بمفرده . ولذا فمن بغية هؤلآء ان يؤلفوا بينهم وبين الله ألفة خاصة ، ناسين أو متناسين تأريخ البشرية الناطق بوجود ذاك التضامن الذي من شأنه ان يضمنا ، تحت انظار الله ، بعضاً الى بعض ، كما تلتئم الاعضآء ، دون ان يسمح لنا بالانفصال من رأسنا السائد على وجودنا كله .

هذا مدعى ذوي الآراء الزائفة . اما نحن ، فلعلمنا بتدابير الله وتسليمنا بعبر التأريخ وتعاليم الحياة البشرية ، نجهر بان ديننا من شأنه ، كبقية ما يحدث فينا ، ان يكون حادثاً اجتماعياً ؛ وانه ،

لكي نحصل على الحياه الفائقة الطبيعة ، ينبغي لنا ان نشترك في مبدأ هذه الحياة . فنعلن بان راسنا وزعيم جنسنا هو كلمة الله ، مجد الاب وصورة جوهره ، الملك الخالد ، يسوع المسيح ربنا .

* * *

اجل ان الينبوع الصادر عنه هذا النور وهذه القوة وهذه الحياة ، اي نور الله وقوته وحياته ، هو يسوع المسيح سيّدنا ، راس البشرية الفائق الطبيعة ، وهذا الذي يوقن به ويعلنه الجمهور المسيحي . اذ ان المسيح هو ذاك الملك الذي رآه حزقيال النبي ، حين نقله الله بالروح ، فاطلعه على مشاهد العالم العظيمة . فتأمل النبيّ حينئذٍ في تلك الألفة الوحيدة المؤلفة من شعب واحد ، على رأسه ملك واحد . فقال له الله : «ها انا ذا آخذ بني اسرائيل من بين الامم الذين ذهبوا اليهم ، واجمعهم من كل جهة ، وآتي بهم الى أرضهم ، وأجعلهم أمّة واحدة في الارض ، في جبال اسرائيل . وعبدي داود يكون ملكاً عليهم ، وراعٍ واحد يكون لجميعهم . » ثم ان يسوع هو الملك القائم على جبل صهيون الذي ظهر لداود حين سمع دويّاً صاعداً من الارض الى السماء ، ومؤامرة الشعوب على الله ومسيحه . فصرخ قائلاً : « لماذا ارتجّت الامم وهذّت الشعوب بالباطل . قام ملوك الارض والعظماء وائتمروا معاً على الرب وعلى مسيحه . فقالوا : لنقطع ربطهما ، ونُلقِ عنّا نيرهما . لكن الساكن في السماوات يضحك ، والسيد يستهزىء بهم ؛ حينئذ يكلمهم بسخطه ، وبغضبه يروعهم . اني مَسَحتُ ملكي على صهيون ، جبل قدسي . » والرب يسوع نفسه ، اثناء حياته الارضية ، كان يدعو الخطأة للاتيان اليه فيقول : « انا الطريق والحق والحياة . اتيت لتجب للناس الحياة ، ولتكون لهم افضل . من يثبت فيّ وانا فيه ، يأتي بثمر كثير . » بمثل هذه الآيات تظهر ملوكية يسوع ورئاسته الفائقة الطبيعة .

فان كان الأمر كذلك ، فهل حدث في حياة الرب عمل أو جملة اعمال خولته هذه السلطة المجيدة؟ قبل ان نقف على ذلك ، يجب أن ندرك بان فكرة الرئاسة تتضمّن ضرورةً أمرين . اولهما وحدة الطبيعة ؛ ثانيهما تفوّق القدرة . فان كان الرأس ، من الناحية الواحدة ، ذا طبيعة مخالفة لطبيعة الاعضاء ، فلا يحصل بينها وبينه ملاءمة ؛ فيتعذر الاتحاد ، أو فلا أقلّ من ان ينشأ عنه كبير تنافر . وان كان ، من الجهة الاخرى ، لا يتمتّع الا بقوة محصورة كقوة أي عضوٍ من الاعضاء ، جاء عاجزاً عن اتيان اعمال شاملة ، فبطل ان يكون رأساً ، اذ يتعذّر عليه ايجاد الوحدة بين اعضائه .

والحال ان طبيعة يسوع المسيح توجد فيه بنوع عجيب جميع هذه المتطلبات . فلو كان انساناً محضاً وكان رأساً لنا ، لجاءت قداسته مستعارة ؛ ولما ملك ملكاً ذاتياً الخيرات التي يوزّعها ؛ ولأمسى بمنزلة قناة بسيطة فيها يفيض الله روح النعمة على البشر ، دون ان يبلغ درجة الكمال التي من خاصتها ان توصّلها الى النفوس . لو لم يكن الا انساناً ، لاصبحت ملوكيّته ذاتها ناقصة ؛ ولكان منهاج النظام الطبيعي متفوقاً على منهاج النظام الفائق الطبيعة ؛ ولجاء الرمز اكمل من الحقيقة . لكن الأمر ليس كذلك ، لان يسوع هو آله ، فهو اذن ملك لا مثيل له ، كامل في النظام الفائق الطبيعة ، مالك بذاته الحياة التي يدعونا الى الاشتراك فيها كاعضاء هو رأسنا الالهي .

بيد انه لو كان ، من الجهة الاخرى ، الهاً فقط . واضحى رأسنا ، لما كان من عين طبيعتنا ، ولما امكنه ان يسدّ جميع حاجات قلبنا ، لاننا كنّا مفتقرين الى رأس مشابه لنا ، وفي وسعه ان يصلنا به في طبيعة مماثلة لطبيعتنا ؛ كنا مفتقرين الى رأس لا يفصلنا عنه بهاء عظمته ؛ الى رأس يكون قريباً منا ، الى رأس شفيق علينا ، خبير

بشقائنا ؛ ولتجرعه كاس الألم ، يقدر ان يخفّف الامنا ، ويسلّينا في أحزاننا . الخلاصة ، كنا في حاجة الى رأس ينزل منزلة الأب والأخ والصديق . فاذ كان يسوع الهاً فقط ، لنقصنا كل هذا ؛ ولكنّا عبثاً نسعى وراء شاطىء ثابت قوي نلقي فيه مرساة رجائنا .

لكن يسوع اله وانسان معاً . ولهذا فهو حرّي ان يصبح رأساً لنا ؛ لانه لهذا يستطيع ان يحقّق بنوع عجيب كل متطلبات رئاسة كهذه الرئاسة . لكونه الهاً ، فهو ملك عجيب وكامل ، وينبوعه لا ينضب . ولكونه انساناً ، فهو خليق بان يشبع كل اشواقنا ، ويسد سائر حاجاتنا . هذا الرأس الذي كنّا نتمنّاه ، وها نحن مالكوه . هذا الرأس ابونا الحنون ؛ هذا الرأس اخونا الشفيق ؛ هذا الرأس خليلنا المخلص ؛ هذا الرأس الكلمة المتجسد ؛ هذا الرأس الضعف والقوة معاً ؛ هذا الرأس الذل والمجد في ان واحد .

على انه لا يكفي للمرء ، لكي يكون رأساً ، ان يملك في طبيعته القدرة والسلطة ؛ اذ يجب ، فضلاً عن هذا ، ان يبرز هذه القدرة فتتحقق بالواقع . من شروط كل سلطة ان يتم تقلدها بحادث أو جملة حوادث تنشئها وتحدّدها ، فتصبح مبدأ الحقوق المنوطة بها . فهل يا ترى قد نال يسوع ، بالفعل ، حق الترأس علينا ؟ وهل حاز ذلك بعمل أو اعمال من حياته ؟ اذا تخيّلنا ، طبقاً لآرائنا البشرية ، ما عسى ان تكون حياة الآله على الارض ، لا نتمالك من ان نتصوره محاطاً بالبهاء والعظمة والجلال . فنتمثّل ايامه من اولها الى اخرها سلسلة انتصارات وامجاد ؛ ودوام شرف وسعادة . هذه افكارنا ، هذه احلامنا . لكن ما ابعدها عن افكار الله . فانه قد جاء الى العالم . اما كيف كانت حياته ، فاننا نجدها خلاف ما تتوقعه احكامنا واميالنا . اذ انه ، عوضاً عن ان يولد في الغنى والجاه والعظمة ، قد ولد في الفقر والخمول ؛ وبدل ان يعيش عيشة الهناء والرغد ، قد قضى عمره

في الشغل والعناء الجسيم . وامّا موته فلم يكن موت الظفر والافتخار، بل موت الخزي والعار . هـذه هي الحقيقة . لانه بتلك الاعمال التي يشق علينا تصوّرها قـد تقلد السيد المسيح سلطة ملوكيته . وبهـذه الحياة ، وهذا الموت اضحى راساً لنا . واذا اردنا ان نعرف لماذا جرى الامر على هذا النمط ، فلنعلم انه بهذه الافعال ادى الشروط المطلوبة من الآب الازلي للتكفير عن خطايانا ، واصلاح حياتنا اصلاحاً فائق الطبيعة .

فماذا كان يتطلب العدل الالهي لكي يسمح للانسان باسترجاع مجده القديم ؟ كان يجب ادآء التعويض ؛ كان محتوماً ان لا يعود ابناء آدم الى الحياة العلوية ، الا بمقدار ما يكفر من الاهانة التي وجّهت الى الله عـلى يد ابيهم الاول . والقول بوجوب التعويض يستلزم وجود معوّض . على ان هذا المكفّر او المعوّض لم يكن ممكناً وجوده بين البشر ؛ اذ كان يقتضي ان يُصعِد الى عرش العزة الالهية استحقاقاً غير متناهٍ ؛ أو بعبارة أخرى ، كان من الواجب ان يتشح الانسان بوشاح مجد الله ، فيمكنه ان يقول للرب المهان : « ألا فلترضَ عدالتك، وليهدأ غضبك ؛ فهوذا اكرام وتكفير مساوٍ لذنوبنا . » والحال ان مثل هذا العمل كان من المستحيلات ، لان البشر خلائق . ولكونهم خلائق ، فهم متناهون ، ومن ثم فاعمالهم التكفيرية متناهية كطبيعتهم؛ فاذن كانوا عاجزين عن ارضآء الله بتعويض غير متناهٍ :

عـلى ان ما كان مستحيلاً بشريّاً فقد حققه يسوع المسيح الآله المتأنس بحياته وموته . لانه ، قصدَ ترضية العدل الالهي ترضية تامّة ، قـد قام ابن الله مقام الانسانية جمعآء . ولكي تلبس وشاح افضاله الفعالة ، صار الاله انساناً ، وبصيرورته انساناً ، أمكنه ان يتألم فيموت. وهذا ما خوّله الحقّ ليكون رأساً لنا . فوجدنا به الوسيلة للرجوع

الى الله والتكفير عن مآثمنا تكفيراً مؤازياً . لان المسيح توسّط بين الله والانسان ، فاضحى صلة الاتحاد بينهما . للواحد اصبح ضحية تكفيرية ، وللآخر صار خلاصاً ابدياً . وكما انه بآدم الاول هلكت البشرية ، فبيسوع ، آدم الثاني ، تجدّدت واصطلحت احوالها . وكما ضرب موسى الصخرة ، فتفجّرت منها المياه العـــذبة ، فمن قلب يسوع المسيح ، الصخرة السرية ، التي ضُربت على الجلجلة ، تدفّقت مياه النعمة الغزيرة ، فجرت على نفوسنا جري الانهار الطامية . وما دامت الصخرة – وهي دائمة ، ثابتة – فلن تزال المياهُ الروحية متحدّرة .

* * *

فيسوع اذن ، بتأنسه وبموته على الصليب ، اضحى رأس البشرية ، وبهذا خوّل البشر ان يصيروا ابناء الله . لانه فتح في العالم ينبوع النعمة الذي كان قد سدّه آدم الاول .

على اننا يخلق بنا ان نتساءل : هل يا ترى من الكافي ، لكي يكون يسوع رأسنا ، ان تكون هـذه الاعمال قد تمت في الماضي ، او انه يتحتم علينا ان نصنع شيئاً خاصّاً بنا ، حتى نتصل به اتصال الاعضاء برأس الجسم كله ؟

الحقيقة انه من الضروري ان يبقى السبيل منفتحاً بين افضال يسوع وبين ضعفنا ، اي يلزم ان تصبح هذه الافضال افضالنا ، وان تتخلل حياتنا كتغلغل الدم في شرايين جسمنا . وكما انه لا يكفي ، لافادة ابداننا وعيوننا ، ان تكون الشمس شارقة مضيئة ، ونحن تحت حجـاب يصدّ عنا اشعتها الساطعة ؛ وكما انه لا يجدي نفعاً ، لاروآء غليلنا ، ان تنبع المياه من عين نراها عن بعد ، دون ان نقترب منها ، ونشرب من تلك المياه العذبة ؛ فهكذا عبثاً يكون المسيح رأسنا ، وعلة خلاصنا الابدي ، ان لم نذهب اليه ونتحد به ، بل نستمر بعيدين

عنه ، غير فاتحين عيوننا لانوار علمه ، وقلوبنا لمياه نعمته .

لكن ما الحيلة لاجرآء هذا العمل ؟ ما هي الحركة الاولى التي لا بد منها للنفس المتوجّهة الى يسوع للتأثر بفاعيل نعمته ؟

على هـذا تجيبنا الكنيسة بذكرى حادثة رمزية وردت في العهد القديم . فانه قد جآء في سفر الخروج ان بني اسرائيل تذمّروا على الله في البرية ، فانزل فيهم الرب القصاص بان ارسل عليهم حيّات ذوات لسعات محرقة مميتة . بيد ان الشعب ، بعد ان اصابهم ذاك المصاب الهائل ، ندموا واتوا الى موسى مقرين بخطيئتهم . فتحنن الرب عليهم وامر عبده موسى بان يرفع في المحلة ، تجاه الشعب ، حية من نحاس ، كان يجد فيها الناظر اليها بندامة ، الشفآء من لدغ الحيّات القتالة . فنحن كنا كالاسرائيليين مصابين بلسعات حيات الخطيئة المميتة . بيد ان الله برحمته رفع تجاه انظارنا حية ليست من نحاس ، لكن الحية الحقيقية المخلصة ، المسيح المصلوب ، فوجـدنا الوسيلة للشفآء من سم الخطيئة ، بنظرنا اليها بعين العقل والقلب اي بالايمان . اذ ان الايمان بيسوع المسيح وبفدائه هو الشرط الاول لنيل الفائدة الناجمة من نعمه . وهذا ما قد شهد به مار بطرس بقوله : « ليس باحد غيره الخلاص . لانه ليس اسم أحد آخر تحت السمآء ممنوحاً للناس به ينبغي ان نخلص . » وهذا ما اثبته بولس الرسول ايضاً بقوله : « فاذ قد تبرّرنا بالايمان ، فلنا سلام عند الله ، بربّنا يسوع المسيح ، الذي به حصل لنا الدخول الى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون ومفتخرون في رجآء مجد الله . » ولا نعجبنّ من هذه الفاعلية . فانه كان من اللائق ، لكي يتم هذا الخلاص فينا ، ان يطلب الله منا اتيان العمل الذي به نهب ذاتنا بكليتها .

على ان هذا الايمان وحده غير كافٍ ، ان لم يكن مقروناً بشرط آخر اشترطه المخلص ولخصه بقوله : « من لم يولد من المآء والروح لا

يقدر ان يدخل ملكوت الله .» فاذن يجب أولا الولادة من الروح بالايمان ؛ ثم الولادة من الماء بالعماد . وهذا أمر واضح . اذ ان يسوع لما اراد ان يمنح نعمته للالفة الاجتماعية ، تحتم ان يظهر ذلك بعلامة حسية . وهـــذا ما صنعه بوضعه شريعة العماد . اذ بهذا السر تكمل الولادة بالنعمة اي بالعماد بالماء ، او العماد بالشوق ، او العماد بالدم .

ليس من ينكر ان الامر لم يجرِ هكذا في الازمان القديمة السابقة مجيء السيد المسيح . اذ بعد ان وعد الله بتجديد واصلاح احوال الجنس البشري ، كان يكفي الايمان بهذا الوعد الالهي ، والرجاء بافضال المسيح الآتي ، مع اعداد النفس للحال اللازمة لنيل الغفران . هكذا كان الشان في عهدي الشريعة الطبيعية والشريعة الموسويّة . ولهـــذا كان مناسباً ان يسوع ، حين تاسيسه الألفة الفائقة الطبيعة المنظورة ، يصنع علامة خارجية تدل على الانضمام اليها حسب استطاعة كل واحد . فتُطبع هذه العلامة كختم على جباه اتباعه ، تميزهم عن غيرهم .

وهنا يجدر بنا ابدآء ملاحظة ، وهي ان جميع المسيحيين موسومون بسمة العماد المقدس . لكن هل يا ترى كل تلاميذ المسيح قـد ابقوا فيهم كمال الايمان بفاديهم والخلاص الذي اتاهم به ؟ لا ريب ان جمهور المؤمنين لا يرجون الفدى خارجاً عن حظيرة المسيح ؛ لكن هل هم باجمعهم حاصلون على روح الايمان وحياته ؟ يوقنون انه يسوع ينبوع النعمة والحياة ، فهل يذهبون فعلًا فيستقون من هذا الينبوع الالهي المياه الروحية التي تشفي غليل نفوسهم ؟ هل يقولون له : « يا رب ، عندك ملء الحياة ؛ فامنحني اياها ، وافِض عليّ مياهها ، لكي احيى باسرارك وقوتك . »

اما نحن ، فاذ قد نلنا العماد في كنيسة المسيح الحقيقية ، فما لنا الا ان ننمو باتحادنا معه ؛ ولنذهبنّ غالباً الى هـــذه العـين بالفكر والقلب ، وباعمال حياتنا الروحية ، لنطلع حق الاطلاع عـلى حقيقة

عطية الله . لاننا ، وحالتنا هـــذه ، شبيهون بالمرأة السامريّة . نحن عطاش ، ونطلب الماء . فها ان يسوع جالس على حافة المعين ، مستعد ان يسقي من يستسقيه ؛ ويقول لنا عند طلبنا الماء : « انكم لو تعرفون عطية الله ، لاستزدتموه سقياً . »

لنسمع اذن صوت الرب ؛ ولنقل له كالسامريّة الخاطئة سابقاً ، والتائبة لاحقاً : « اعطنا لنشرب . اعطنا من هـذا المـاء ، ماء النعمة الجارى للحياة الابدية . » وهو لا يتردد في ان يهبنا ما نطلب ؛ فننمو متقوّين بالنور والسلام . واذا اقتربنا من الابدية نتوق حينئذٍ بشدة اعظم الى مياه المقرّ الذي يؤدّي اليه ماء النعمة هـــذا . فنكرّر مع هذه المرأة السعيدة لملاقاتها الرب : « اننا نعرف ان هذا هو المسيح المنقذ . نعرف ذلـك ، لا لانه قيل لنا ؛ بل لاننا رأينا بعيوننا ، وشعرنا بفعل نعمته العجيبة . »

مفاعيل النعمة ، وموقفنا تجاهها

النعمة عون فائق الطبيعة ، يهبه الله الانسان ، فيمكنه العيش في الارض ، عيشة ملائمة دعوته السماوية ، وهي رؤيته ، عز وجل ، ومحبته والتمتع بحياته مدى الابدية . على ان في البشريّة ينبوع حياة استمدت هي ولا تزال تستمد منه قواها وخواصّها . وهذه الحياة الطبيعية وما يتعلق بها قد اتتنا من الخالق بواسطة ابينا ورأس جنسنا الاول ، وهو آدم . بيد انه اذ كان بمعصيته قد صار سبباً لان ينقطع عنا مجرى الحياة العلوية ، التي كان الرب قد منحها له ولذريته ، ترحم الله علينا فاقام لنا رأساً ثانياً ، وهو يسوع المسيح ، الكلمة المتجسد ، الذي اضحى لنا ينبوعاً فياضاً لجميع النعم التي نحن في حاجة اليها . فاقتضى لنا ان ننضم الى هذا الراس انضمام الاعضاء الجسدية الى راسها ، لكي تجري في حياتنا النعم الالهية ، كما يجري الدم في عروق ابداننا . هذا ملخص ما رايناه في الخطبتين السابقتين .

على ان النعمة قوة ؛ ومن شأن القوة انها حيثما عبرت او فعلت فعلها ، ابقت لها اثراً ، او مفعولا . ولهذا ، فبعد ما درسنا ضرورة النعمة وينبوعها ، لنرَ ما هي الآثار او المفاعيل التي تتركها في نفوسنا ؛ ثم كيف يجب ان يكون موقفنا او تصرفنا نظراً اليها .

* * *

اخص مفاعيل النعمة فينا مفعولان ، اولهما انها تفيض في نفسنا حياة جديدة فائقة حياتنا الطبيعية ؛ ومن هذه الحياة ينشأ ثلاث خواص ، او فضائل مفاضة تدعى الفضائل الالهية ، اي الايمان ، والرجاء ، والمحبة .

وهي الهية من حيث مصدرها وهو الله رأساً ؛ ومن حيث قوامها ، فانها لا تحوي شيئاً من الطبيعة ، كالفضائل الادبية ؛ ومن حيث موضعها ، فان الباري عينه هو المعروف والمرجو والمحبوب بها بنوع فائق الطبيعة .

فالعطية الاولى اذن هي الايمان ، اي ذاك النور السماوي الذي يرينا الحقائق الموحى بها من لدنه تعالى ، ولذا فالنفس الحاصلة على النعمة يسطع فيها نور الله وتظهر لها الاشياء بمظهر جديد . فهي قريبة من الله ، وتراه احسن مرأى . وهذا ما عنى به الرب يسوع بقوله : « طوبى لانقياء القلب ، فانهم يعاينون الله . » مما دلّ على انهم مدعوون ليس لمشاهدته في الابدية وحسب ، بل منذ الآن يرونه رؤية اكمل ، اي في تعاليم انجيله الطاهر ، وكنيسته المقدسة ، وحوادث التأريخ ، والاعمال العجيبة الناجمة عن قدرته .

يضاف الى الايمان فضيلة الرجاء ، تلك القوة التي تدفعنا الى الله تعالى ، وتنشىء فينا الاعتماد على مواعيده ، والثقة بافضال يسوع . وهذا ما يجعل النفس تقف حق الوقوف على حقيقة الحياة ، فتصرخ مع الرسول بولس قائلة : « ليس لنا هنا مدينة باقية ، لكن نطلب الآتية . » أجل ان هذه الدنيا ملاى بالهموم والاكدار ، بيد ان مصائبها تزول . واما ما يعقبها من المجد فهو دائم الى الابد . « لان ضيقنا الحالي الخفيف ينشىء لنا ثقل مجد ابديّاً لا حدّ لسموّه . » ومن ثم فاحر بنا ان نستتلي مع الرسول القائل : « اني راغب ان انحل فاكون مع المسيح ، وذلك افضل لي بكثير . » واذا اقبل أوان الحرب الروحيّة ، فالنفس تشعر بذاتها متذرعة بقوة فائقة للجهاد ، واملة الظفر النهائي .

بعد الرجاء تأتي فضيلة المحبة ، تلك العطية المفاضة التي تصلنا بالله صلة بنويّة ، فنجسر ان ندعوه باسم الثقة والرقة « ابانا » اي اننا لا

لكتفي ان نخشاه كما يُخشى القاضي العادل ، او ان نحترمه كما يُحترم السيد الملك ، بل نسعى في ان نقرب قلوبنا من قلبه ، فحينئذٍ تحسّ نفسنا ان قد نشأ بينها وبينه نوع من المساواة المتولدة من الصداقة .

هـــذا ما يصدر من حالة النعمة . اجل انها لامور غير منظورة بذاتها . لكن يتحقق وجودها بقوة الافعال الناشئة عنها . اذ من ينبوعها يصدر ذاك اليقين الثابت الذي نلاحظه في القديسين ؛ وتلك التضحيات التي بها يحتقرون الدنيا ، ويلتهبون بمحبة الله الفائقة . من اي ينبوع يا ترى الا من هـذا الينبوع صدرت شجاعة اغناطيوس النوري الذي كان يرنم طرباً لحصوله على ذاك الشرف العظيم ، وهو ان يُطحن حبّاً بيسوع تحت انياب الوحوش الضارية ، كما تطحن الحنطة ؛ او اختطافات القديسة تريزية ، والقديسة كترينة السيانية ، في وسط التجارب والمحن القاسية .

نجد لهذا المفعول ، مفعول النعمة ، رمزاً في حادث من حوادث حياة السيد المسيح . فانّه حين تجلّى على جبل طابور ، ظهر لاهوته هنيهةً من خلال ناسوته ؛ فصار وجهه يلمع كالشمس ؛ واضحت ثيابه بيضاً كالثلج ؛ ثم سُمِع صوت من السماء يقول : « هذا هو ابني الحبيب . فله اسمعوا . » فشيء شبيه بهـــذا يحدث حين تجلي النفس المسيحيّة ، اي وقتما ينزل الله فيسكن فيها بنعمته . حينئذٍ تستنير بنور شمس الحق ، وتتوق اشد التوقان الى السماء ، ويشهد الرب بصوت ضميرها ، انها ابنته الحبيبة التي بها ارتضى .

ومن هذا يظهر ما يحوّله هذا المفعول للنفس من المجد الاثيل . لانه اذا كانت عظمة المرء متوقفة على التقرّب من الله والتشبه به ، نجم ان الرجل الحاصل على هذه الخيرات وما يرافقها من الفضائـل الادبية لهو اقرب من الرب ، ومن ثم فهو امجد واسعد من الرجل الخالي منها . اجل لا بد في الشخص البار براً بشرياً طبيعياً من وجود

بعض الاشعة من نور الله ، لكن ما اضألها وما انقصها ! اما في حالة النعمة ، فان النفس تجول في ميدان حياة الله عينها ، فما يراه الله ، نحن نؤمن به ؛ وما يملكه الله ويتمتع به ، نحن نرجو الحصول عليه ؛ وما يحبه الله نحن نشرع في حبه . فان كان الامر كذلك ، افليس هذا مجداً وسمواً فائقاً ؟

ومع هذا ، ماذا نسمع حولنا ؟ نسمع ابناء هذا الدهر يدعون ، لجهلهم ، ان الحياة الفائقة الطبيعة انحطاط للانسان ، لانها تنزع منه عظمته الطبيعية ، وتسلب منه ما فيه من المجد . ولكن اذا كان ذلك صواباً ، اي اذا كان يعتبر نقصاً وانحطاطاً الحياة الفائقة الطبيعة المضافة الى الحياة الطبيعية ، دون ان تهدمها وتمحقها ، بل تزيدها كمالاً ، اذا كان ذلك حقاً ، لاضطررنا الى القول ، في الامور الطبيعية ، ان قمة البناء خلل في الاساس ؛ وان الزهرة نقص في النبات ؛ وان الاجنحة معرقلة طيران الطائر . والحال ان هذا ضلال ؛ فكذا الشأن في ذاك . اجل ان ابناء الظلام ، لعماوة عقولهم وصلابة قلوبهم ، يمتهنون الحياة الروحية ؛ الا انهم لعاجزون عن هدم قوّتها ومحو أثرها ، لانها معدّة للاستمرار ساطعة بانوارها على البشرية .

المفعول الثاني هو انها تلقي الخصب في اعمالنا ، فتجعلها مستحقة الاجر . وهنا يمكننا ان نسأل : ما هي قوة اعمالنا بذاتها نظراً الى الحياة الابدية ؟ فيجيبنا التعليم الكاثوليكي ، : انها كل شيء . والسبب في ذلك انه لكي تستحق هذه الافعال مجد السماء يتحتم ان تكون بمناسبة هذه المكافأة السامية . فلو كان الله قد خلقنا لغاية طبيعية محضة ، او كان قد دعانا للتمتع به نظرياً ، او لرؤيته كما تُرى الاشياء في مراة ، لكان من طبيعة اعمالنا ان تصل الى هذا الحد . لكن لما كنا مدعّوين للصعود الى العلاء ، فافعالنا خلو من هذه المزية التي تفوق طورها . وكما ان الخلائق السفلى ، كالحيوانات ، لا تستطيع ان

تبدي افعالا تفوق الحد الفاصل بينها وبين البشرية ، فافعالنا الادبية ، مهما كانت كاملةً بشرياً لهي عاجزة عن تجاوز الحد الفاصل بينها وبين النظام الالهي اي الفائق الطبيعة ، ومن ثم فهي قاصرة عن ان تستأهل الاجر السماوي .

زد على هذا انه اذا كان من الامور الثابتة ان ليس من فضيلة كان في وسعها ، في حالة البرارة الاولى ، ان تبلّغ الانسان غايته الابدية ، فما القول في اعماله ، وهو الآن في حالة السقوط ، التي ليست انزل درجةً من النظام العُلوي وحسبُ ، بل هي معاكسة له ، بل هي بالنسبة اليه كنسبة الموت الى الحياة . وكما ان الحياة الطبيعية لا يمكنها ان تخرج من جثّة هامدة ، فالافعال المطلوبة للحياة الآلهية ليست بقادرة على الصدور من نفسنا المصابة بموت الخطيئة الاصلية . وعليه فافعالنا بذاتها لا منفعة لها للحصول على المكافأة الابدية .

لكن هل يا ترى ان هذه الحالة صعبة هذه الصعوبة حتى انه يعد من قبيل المستحيل تلافيها ؟ أو بعبارة أخرى ، هل نحن عاجزون كل العجز عن جعل اعمالنا تبلّغنا السعادة ؟ الجواب ان كان هذا مستحيلًا على الانسان ، فلم يكن مستحيلًا عند الله . لان من شروط النظام ان يحصل المرء على الكمال بالاعمال ، ومن ثم على المكافأة . ضروري من الجهة الواحدة ان يقدّم الانسان بعض التقادم لله ؛ ومن الجهة الاخرى ، اذ كان بذاته غير قادر على تقديم ما يليق ، عوّض الله عن هذا التقصير ، وقد اتخذ لذلك وسيلة ، وهي النعمة ، حسب تعليم الكنيسة المقدسة .

فاذا كانت النفس عائشة عيشة النعمة ، وكانت اعمالها صالحة صلاحاً ادبياً ، اضحت ذات استحقاق لطلب الأجر . ولا عجب في ذلك لانه لما كانت النعمة حياة الله فينا ، نجم اننا لسنا وحدنا العاملين ، لكن الله العامل فينا ، كما يثبت ذلك الرسول المجتبى بقوله : « لست

انا الحي ، لكن المسيح الحي فيّ . » واذا كان ذلك كذلك ، فاية غرابة في ان الاعمال التي هي اعماله ، بنوع ما ، تستحق مكافأة الحياة . لان عدم المناسبة بين الاجر واعمالنا البشرية البحتة لا يعود له وجود. اذ ان اعمالنا بصيرورتها الهية سماوية ، تضحي اهلاً لان ترقى بالاستحقاق الى السماء .

وهـــذا ما من شأنه ان يجعل في اطمئنانٍ النفوس التقية التي يستولي عليها الفشل عند رؤيتها عجزها في العمل البشري ، اذ يخامرها الخوف ممّا عسى ان تكون قيمة جهدها الضعيف واعمالها الوضيعة امام العزة الصمدانية . بيد انها بنور الايمان تدرك ان ما يصدر من الله يليق به تعالى ؛ وانه ، عز وجل ، لا يمكنه ان يحرم من الأجر ذاك الذي ياتي أعمالا هو ، سبحانه ، مبدؤها ومحركها .

وهـــذا ما يفهمنا تعس الكثيرين من المسيحيين الذين لا يبالون بالامور الدينية . فاننا نشاهد رجالا ذوي فضل جدير بالاعتبار يقضون غالباً سنين طويلة في عمل الخير الطبيعي ، وتحمّل التضحيات بشجاعة عجيبة ؛ نرى اباء عائلات باذلين الجهد ، دون تردّد ولا تذمّر ، في خدمة اولادهم وذويهم ؛ نجد وطنيين متفانين لبلادهم دون ان يبخلوا عليها بوقتهم ومالهم وخدماتهم ؛ نلقى اشخاصاً شعارهم العدل والاستقامة والشرف ، وهم سائرون بموجبه دون خجل ولا فشل . اجـــل ! نرى رجالا هـــذه خصالهم وهذه اعمالهم ؛ والحق يقال انها لخصال حميدة واعمال فريدة . لكن هؤلاء الانام في الوقت عينه بعيدون عن اداء واجبهم الديني الفائق الطبيعة . فما قيمة هـذه الافعال في نظر الله ، ونظراً الى الاخرة ؟ نحن مضطرون الى الاجابة ، يكل أسفٍ ، ان ذلك كله لا قيمة له ، لانه لا يتجاوز النظام الطبيعي ، ومن ثم فليس بحري بالمكافأة المتفوقة على طبيعته . ويوم يمتثل هؤلاء الناس امام ديّانهم ، فلا يجد سبحانه على جباههم الختم الالهي ، وسمة النعمة

التي تتّسم بها النفوس للدخول الى السعادة الابدية ، يقول لهم : لا اعرفكم ؛ من اين انتم ؛ لاني لا ارى فيكم نور الحياة الخالدة ، وعلامة الاتحاد بابني الحبيب ، وشعار التبنّي السماوي .

واذ استمر هولآء المساكين عشرين ، او ثلاثين ، أو اربعين سنة محرومين من مفاعيل النعمة الالهيّة ، فكل يوم من حياتهم ، في هذه المدة الطويلة ، لا فائدة له للابدية . واذا افتقدهم الرب برحمته ، آخر عمرهم ، فاثرت فيهم نعمته ، فعادوا اليه تائبين ، فلا مكنة لهم ان يجدوا للحياة الدائمة الاعمال التي كانت للموت ، كل تلك الحقبة المديدة.

ولذا تناشد امنا الكنيسة النفوس المسيحية التي تستهين بقيمة النعمة وتطلب اليها ، بحق صالحها ومستقبلها الابدي ، الا تحتقر تحريضاتها وتضرعاتها ، بل تفتكر بمواعيد الله ووعيد عدله الالهي . فعلى مثل هؤلآء ان ينزلوا الى اعماق ضمائرهم وبعد اطلاعهم على حالهم البؤسى ، ليسرعوا في التخلص منها ويقبلوا النعمة التي تجعلهم ابناء الله ، ومن ثم اهلًا للاجر السماوي .

* * *

بعد ان وقفنا على مفاعيل النعمة ، لنرَ الآن كيف يجب ان يكون موقفنا او تصرفنا بالنظر اليها .

اول موقف يلزمنا ان نقفه تجاه مفاعيل النعمة هو موقف التجلة والاعتبار الذي ينشأ عنه الرغبة في الاحتفاظ بها . وهذا امر في غاية الوضوح . فان الناس من عادتهم الضن بالاشياء الثمينة . واذ كانت النعمة ذات ثمن لا يقدّر ، وكانت فاعليتها جزيلة هذه الجزالة ، لزمنا الاهتمام بصيانتها في قلوبنا بامانة ، مما ينجم عنه وجوب اجتناب الشر الادبي ، اعني به الخطيئة قاتلة النعمة في النفوس .

وعليه نرى القديسين احكم الناس ؛ لانهم كانوا يقولون ويعملون

بموجب قولهم وهو : « فليخرب العالم ، ان اقتضى الامر ، على شرط ان تبقى نفسنا غير مصابة بضربات شرّ الخطيئة . لنحرَم من الشرف والثروة والسعادة ، فهذا لا يهمنا ما دامت فينا النعمة ، غنانا الوحيد . » اجل هذا ملخص مبادىء الاولياء واعمالهم . فانهم كانوا يسعون قدر المستطاع ، في حفظ النعمة في قلوبهم ، وصيانتها صونهم اثمن الكنوز ، فكانوا ابلغ حكمة من كثيرين من المسيحيين ، اذ ما اقل الذين يهتمون بهذا الكنز حق الاهتمام ! وبالعكس ، ما اكثر الذين لا يبالون به ! فيطوّحون بنفوسهم في المخاطر ، كأن لا قيمة لها للابدية . واما نحن فلنقتف آثار الابرار والصديقين ، ضانين بهذه الدرّة الكريمة العائدة بالمجد الحقيقي على النفس البشرية .

الموقف الثاني هو موقف الراغبين والجادّين في ان يكثروا ، وهم في حال النعمة ، من الاعمال المصنوعة لوجهه عز وجل .

وهناك مذهب اخترع نظرية غريبة في خصوص استحقاق النفوس . فانه يدعي بان الاعمال الصالحة لا تسوى شيئاً ، وان الايمان وحده يكفي للوصول الى الله ؛ وان يسوع المسيح قد خلصنا بافعاله ؛ وانه قد اتحدنا معه بالروح ، فحقق بذلك الشرط الوحيد المطلوب لاسعادنا في جنة الخلد . ان الخاصة الوحيدة لهذه النظرية هي سهولتها . لانها بالحقيقة قد فتحت باباً واسعاً وبسطت مجالا رحباً للاهوآء الرديئة باجمعها ، بمنحها الانسان الحق المشؤوم الملخص بهذا القول الشهير : « اخطأ كثيراً ، لكن اؤمن اكثر ، فالخلاص مضمون لك . » بيد انه مهما يكن من سهولتها ، فهي قصية عن الصواب ، لكونها غير لائقة لا بالله ولا بالطبيعة البشرية . هي شائنة لله ، لمناقضتها جميع الغرائز الادبية ، التي ركزها هو تعالى في طبيعتنا . وهي شائنة للانسان نفسه ، لانها تنزع منه خاصة العمل والجدّ ، جاعلة اياه خليقة جامدة عاجزة عن اي عمل فعال بالنظر الى خلاصه ومجده الابدي .

اما الصواب فهو ان الاعمال الصالحة ضرورية ، لمـــا تقدم من التبيان ؛ وان الايمان ، دون الاعمال ، مائتٍ ، حسب تعليم مار يعقوب الرسول . الصواب انه كلما ازدادت اعمالنا الحسنة في هـذه الحياة ، ازداد مجدنا في العالم الآتي .

ان في السمآء منازل كثيرة ، حسب قول الرب ، لاسمه السجود؛ وكما ان النجم يختلف عن اخيه النجم بنوره ؛ فالمختارون ايضاً يختلفون في درجات المجد ، في الفردوس السماوي . وكما أن النور ينتج نتائج متضاربة في الاجسام المتباينة الاستعداد ، فكذلك تكون نتائج احوالنا في الحياة الدائمة .

هـــذا هو الحق ، وهذا هو العدل . لان العقل ذاته يشهد بان القديس الذي قضى سحابة عمره متفرغاً لممارسة الزهد والاماته والتقشفات الجسدية المتنوعة لهو حري بان يفوز بمجد اعظم من مجد الرجل الذي يتوب في الساعة الاخيرة من حياته ، ولا يكون قد قدم لله سوى بقايا عيشة ممتهنة بخدمة العالم ، واتّباع اباطيله ، والتمتع بملذاته . وهـذا ما يبين لنا وجوب الاكثار من الافعال الجيدة التي من شأنها ان ترفع درجة مجدنا . ومع ذلك ينتج ان التماهل في ذا الامر لمّما يندم عليه المرء ساعة الموت ، تلك الساعة التي يتمنى فيها ان يكون قد عمـل كل شيء حباً بالله ، وعاش لخدمته ؛ بيد انه يكون قد ندم حين لا ينفع الندم . فاليوم ما دام الوقت بيدنا ، لنكف نفوسنا مؤونة تلك الحسرات ؛ لنكسب ، ولنبالغ في كسب الاجر والثواب العائد علينا بالفائدة الكبرى في الاخرة .

لكن ما هي الاعمال الصالحة التي تبقي فينا الحياة الفائقة الطبيعة؟ اذا سألنا الكنيسة المقدسة عن الشروط الضرورية لحفظ النعمة وانمائها ، اجابتنا ان اول هـــذه الشروط هو الايمان بكلام المسيح القائل : « من آمن واعتمد فقد خلص . » فالايمان — وليس الايمان المبهم ، لكن

الايمان الثابت بالحقائق المعينة الموحى بها وقد اثبتتها الكنيسة – اجل. هذا الايمان هو اول واجب علينا لصون هذه الوديعة المقدسة الثمينة. ثم بعد الايمان يلزم حفظ الوصايا، حسب قول الرب عينه: «من يحبني يحفظ وصاياي. اذهبو الى العالم كله، وعلموا الامم ان يحفظوا ما اوصيتكم به.» وكلمة الوصايا تشمل – ما عدا الشرائع المكتوبة على صفحات الضمائر البشرية، والمعلنة كتابةً في التوراة – الاوامر والنواهي التي وضعها السيّد المسيح، واذاعتها الكنيسة، واضافت اليها سننها الخاصة، الخلاصة: وصايا الله ووصايا الكنيسة.»

فالايمان بكلام المسيح وحفظ وصاياه هما اذن الوسيلة للبقآء في حال النعمة، ومن ثم لنيل الاجر الابدي. ونفهم سبب حدوث ذلك بهذه الطريقة، اذا لاحظنا تلك السُنّة الطبيعية، سنّة نمو البذور بتمثّل العناصر المناسبة لطبيعتها، والتي تجدها في المنابت الملقاة فيها، وهي سنة متحققة في جميع طبقات الاحيآء. كيف ياترى ينمو الحيوان، الا باستعمال هذه القوة العجيبة، قوة تمثل العناصر المجاورة له، والموافقة لكيانه الذي اتاه بالولادة؟ كيف تتوسّع في الولد بذور الحياة العقلية والادبية الا بمماسّة عقله وحريّته الموضوعات التي تنيره بضيائها الداخلي، فتمكنه من تمييز الحق والعدل، فان النعمة نور وقوة ملقاة في نفس الانسان. فتنمو بتمثلها اعماله الادبية المصنوعة بحريّة، حسب تدابير العناية الالهية. ولا عجب من نفوذ الرب في تعيين تلك الاعمال، لما هو مقرّر من ان الخلائق جديرة بان تدرّب في سبيل تقدّمها، وتساق الى غايتها القصوى، بفعل العلة التي اوجدتها. وبما ان الكلمة المتأنس هو علة حياتنا الفائقة الطبيعة، وقد استحقها لنا باهراق دمه الزكي، ويفيضها علينا بقوة متواصلة، كان من اللائق ان تكون افكاره افكارنا، وان تدل ارادته على ارادة العناية في تسييرنا نحو غايتنا. وان يخضع عقلنا للوحي الذي انزله، وتبعته ارادتنا، ليقودنا

في سبيل الخير السامي الذي اتى به الى العالم .

على هذه الحقائق الثابتة مبنية الواجبات المسيحية ، ولهذا لَيأْخذ منا العجب مأخذه لدى رؤيتنا اناساً هذا عددهم يحاولون التخلص من الخضوع ، بالروح والارادة ، لشرائع الله وكنيسته ، وبذلك يحرمون نفوسهم من مفاعيل النعمة ، ويجعلون خلاصهم في خطر .

من التصاوير الدينية صورة متقنة الصنع يرى فيها طائفة من القديسين مجتمعين بشكل حلقة طائفين طوافاً مقدساً ، طواف الغبطة والسرور ، حول العزة الصمدانية غير المنظورة ، تعظيماً واجلالا لها . فهذه الصورة ، والحق يقال ، خليقة بان تكون رَمزاً عما يتطلبه منا وجود النعمة المقدسة في نفوسنا . لان الله بفعل هذه النعمة حاضر فينا ، ينيرنا بنوره ، وينعش آمالنا بمواعيده ، ويحبنا بمحبته . لكنه يريد ، مقابلةً لهذه المنح التي تشركنا في حياته الالهية ، ان تكون حياتنا مقدسة ، حياة البهجة والحبور ، وان تنشد اناشيد الغبطة ، موقعة على آلات الايمان بوحيه ، والخضوع لوصاياه .

فعسى جميع المسيحيين يدركون هذه الحقيقية ، فيقدرون النعمة حق قدرها ، فيستمدونها من ينبوعها الالهي ، ويجهدون في المحافظة عليها اشد المحافظة ، على مثال القديسين ، ويكثرون من الاعمال الحسنة ، وهم في حال النعمة المقدسة ، فيكنزون لهم كنزاً في السماء ، يجدونه يوم ملاقاتهم الرب بوجه مسفر ، فيدخلون معه الاخدار الابدية .

علاقة القديس عبد الاحد بالكنيسة المقدسة

« مثله مثل كوكب الصبح بين الغمام ، او البدر ايام تمامه ،
او الشمس المشرقة على هيكل العلي . »
(ابن سيراخ ٥٠ : ٦ ، ٧)

من اغوى الاضاليل العقلية ، التي تطوح في بسابسها ارباب الثورات العصرية ، هو ادعاؤهم ان كل قديم فاسد ، ضار ، فهو خليق بالنبذ والاحتقار ، والزوال والاندثار ؛ وان كل جديد — اعني جديدهم — صالح ، نافع ، سار ، فهو حري بالعناية والاعتبار ، والديمومة والانتشار . اجل ، على راي هؤلاء المحدثين ، ان البشرية ، في جميع مناحيها ، وعامة اطوارها — اجتماعية كانت ام سياسية ، فنية ام علمية ، ادبية أم دينية — لم تكن حتى اليوم الا متسكعة في دياجير الغواية ، مما لم يعد على ابنائها الا بالموبقات والرزايا . فالاقدمون اذن ، على قول اصحابنا ، ضالون ومضلون ، فاسدون ومفسدون ، والعصريون مستنيرون ومنيرون ؛ صالحون ومصلحون .

على ان من سعد طالع عقلاء الجامعة الآدمية ، انهم لم يكونوا ليتردوا في هوة هذه العمايات المردية . بل من عقيدتهم الراسخة ان الكمالات الانسانية ، بمثابة صرح شُرع في تشييده منذ الادهار الاولية ، ولا يزال كل جيل من الاجيال اللاحقة ، يسعى في اضافة كمال جديد الى كمالاته السابقة . فاذن من واجب الخلَف ، الاحتفاظ بما ورثه عن السلف .

وكافي بالبشرية تدرك ثأرها من هؤلاء المجحفين بحقوقها المشروعة .

اذ في عصرنا هـذا عينه نرانا تجاه حركة مباركة ذائعة ، حركة احياء اثار الاقدمين الصالحة الثمينة ، الحريّة بان تنزل منزلة الاعلاق المكنونة ، حركة مشفوعة بحركة اقامة الحفلات ذات الفخامة ، لنشر ذكر النوابغ الخالدين ذوي الجاه والعظمة ، وتعداد مآثرهم الفاخرة ، ومناقبهم النادرة ، وما أتوه من الاعمال العظيمة ، لأبناء عصرهم والانسانية الكريمة . ولكثرة ما اقيم من هذه المواسم ، في عصرنا هذا القائم ، احر به ان يسمى « عصر الذكريات المئوية ، لعظائم وعظماء البشرية . »

واذ كانت كنيسة الرحمان ، في كل اين وآن ، في مقدمة الناهضين بجليل الاعمال ، والمنشطين للمشاريع الحريّة بالاجلال ، فلا بدعة اذا رايناها تقيم هي عينها مثل هذه المواسم الباهرة ، تجديداً لذكرى الحوادث الشهيرة ، التي جرت في قرونها الغابرة ، وتعظيما لاسم رجالها الفخام ، وقديسيها العظام ، الذين خدموها خدمة امينة ، عادت عليها بالفوائد الثمينة ، فكانوا فخراً لها ، لا بل غرة في جبينها ، في عامة الامصار ، على كرور الادهار .

ومن جملة تلك الحفلات البهية ، التي تقوم باجرائها هذه السنة ، في مختلف انحاء المعمور ، رهبانيتنا الدومنكية ، احتفاء بذكرى مرور سبعة من القرون ، خلت على ذلك اليوم الشهير الميمون ، الذى فيه اعلن البابا غريغوريس التاسع ، ذو الفضل والصيت الذائع ، قداسة ابينا البطلية ، ورفعه فوق هياكل الكنيسة المسكونية . ومنها هذه الثلاثية الاحتفالية المقامة في هذه الكنيسة الكاتدرائية ، بفضل ولطف اخواننا الافاضل ابناء مار فرنسيس من الفرقة الكبوشية ، المحافظين معنا على الصداقة والمحبة الاخويّة ، مذ تعارف ابوانا وتعانقا في المدينة الابدية .

فاذا كان لكل مقامة مقالة ، كان من البداهة ان نتخذ في هذه الحالة ، موضوعاً لكلامنا ، ما ازدانت به حياة ابينا ، من الفضائل المثلى ، والاعمال الجلى . واذ كان الموضوع فسيح المجال ، اضطررنا

بحكم الحال ، الى حصر نطاق هذه الخطبة ، مع ما للنفس في الافاضة من رغبة . واذ كان عبد الاحد رجلًا من كبار رجال الكنيسة ، كان من الانسب ان يدور بحثنا على علاقته بهذه الام معلمة القداسة . ولذا نبني الخطاب على الاجابة الى هذين السؤالين ، اولهما : « ماذا عملت الكنيسة في سبيل عبدالاحد ؟ » ثانيهما : « مـــاذا صنع عبدالاحد في سبيل الكنيسة ؟ »

ماذا صنعت الكنيسة في سبيل عبدالاحد؟

اذا تصفحنا الاسفار التأريخية ، تجلت امام بصائرنا حقيقة واقعية ، الا وهي انه في فلك كل عصر من العصور المتتابعة ، قد تلألأ فريق من الانام كالشموس الساطعة ، لمـــا ازدانوا به من القريحة الوقادة ، والعزيمة الصارمة ، والنظر البعيد الغور ، والحنكة في ادارة خطير الشؤون . ولاسيما بما اتصفوا به من الخلال الحميدة ، والفضائل الفريدة . الا ان هناك حقيقة أخرى ليست دون اختها خطورة ، وهو ان هؤلآء النوابغ قبل ان يعمدوا الى التأثير في دوران دولاب الحياة في عصرهم ، وقبل تفوقهم على ابنآء قومهم ، واجتذاب الجمهور وراءهم في سبيل مبتَدَع من سبل الرقي والتقدم ، لا بد من ان يسبق ، بادىء بدء ، فينطبع فيهم طابع المؤثرات الخاصة بمحيطهم ، بما يجدر معه القول ، دون خشية ركوب متن الشطط ، ان الانسان ، من الاصاغر كان ام من الاكابر ، ان هو الا وليد بيئته .

فاذا كان الأمر كذلك ، فما يا ترى كان فضل الكنيسة عـــلى عبدالاحد من حيث المباءة ؟ ان من الآثار ذات البال ، في حياة ابينا المفضال ، انه كان قد فتح باصرتيه لنور هـذا العالم ، في بلاد

مسيحية كاثوليكية ، اعني بها اسبانية ، الشهير اهلها بتمسكهم بعروة الدين الوثقى ومحافظتهم على تقاليد آبائهم المقدسة ، وذبهم عن حياض المبادىء الصالحة ، والعقائد القديمة . ويوم احتل صقعاً من اصقاعهم ، قوم ليسوا على دينهم ، قارعوهم اي مقارعة ، وجاهدوا جهاد الابطال الصناديد ؛ ولم يقر لهم قرار ، مدة قرون متوالية ، حتى اخرجوهم من ديارهم . واليوم ، وقد اثار عليهم اعداء الدين عاصفة الاضطهاد ، تروهم ساعين في لمّ شعثهم ، وتوحيد كلمتهم ، للوقوف كالحائط المرصوص تجاه مناوئيهم ، حرصاً على ارث آبائهم المبارك ، ارث الدين الكريم ، والآداب المسيحية وعساهم في جهادهم هذا من الظافرين ، باذن الله تعالى .

فاذا كانت بلاد عبدالاحد بلاداً مسيحية ، وكانت من ثم بيئة ملائمة لنشأته ولدعوته المقبلة ، فلمن الفضل ؟ الفضل كل الفضل للكنيسة التي منذ القديم كانت قد نشرت ، على ايدي رسلها ، رأية الصليب ، وتعاليم الانجيل في تلك الربوع . فازدهرت فيها الحياة المسيحية الكاثوليكية اي ازدهار ، فاضحت زاهية بما فيها من الكنائس الفخمة ، والمعابد والمزارات الجمة ، والاديار العامرة ، والمعاهد العلمية الزاهرة ؛ ومن نشأ فيها من الاحبار والكهنة والرهبان ، والامراء والفرسان ، والعلماء والادباء ، والملوك والوزراء ؛ وفي مصاف جميعهم كانت تفوح روائح الفضيلة والقداسة .

بمعزل عن المباءة الشاملة ، هناك اثر آخر له المكانة الهامة ، في حياة كل انسان ، ولاسيما في حياة اعاظم الزمان ، الا وهو المباءة الخاصة ، الداخلة في محيط المباءة العامة ، اي مباءة الاسرة . وان كان المرء وليد محيط وطنه ، فهو باولى حجة وليد محيط اسرته . واسرة عبدالاحد لم تكن مسيحة بالاسم فقط ، او كاثوليكية صالحة وحسب ، بل اقول — غير خاشٍ في القول لومة اللائم — انها كانت اسرة صالحين ، بل قل اسرة قديسين . فان اباه كان من اهل التقى الورعين ؛ وعمه وخاله

كانا من افاضل الاكليرُسيين ؛ واحد اخوته ، مانس الدمنكي ، قد نظم في سلك الطوباويين . بيد ان النعمة النادرة التي نالها ابونا في محيط اسرته هو انه ولدته وارضعته وسهرت على تربيته أم من خير الامهات ، بل قديسة من القديسات . وهي الطوباوية حنة الأزيّة ، صاحبة الفضل العميم على الرهبنة الدومنكية .

فان كانت هـــذه درجة اسرة عبدالاحد من الفضل والمواهب السموية ، فوق ما كانت عليه من شرف المحتد في الالفة الاجتماعية ، فالفضل لمن ؟ اليس الفضل للكنيسة المقدسة ، التي بمبادىء تربيتها الادبية ، وبنور تعاليمها الالهية ، وبقوة اسرارها الروحية ، تقدس ليس الافراد فقط ، بل الاسر المؤلفة منهـــا الجمعية ، فتجعلها بمثابة الجنّات العدنية ، ذات التربة الصالحة الطرية ، تنبت فيهـا الاغراس البشرية ، فتنمو بفعل النعمة السموية ، فتزهر فتأتي بالاثمار الشهية ؟

الأثر الثالث في حياة النوابغ هو المحيط الثقافي ، اذ فيه تتجلّى عبقريتهم ، وفيه يعرف المسلك الذي يسلكونه ، سحابة عمرهم ، أو الدعوة الخاصة التي تعدّهم لها العناية الالهيّة ، فتنتدبهم . والحال اننا نعرف من مصادر ترجمة ابينا الطوباوي ان اهله ، عندما حان ابّان تهذيبه وتثقيفه ، جروا على عادة زمانهم ، وهي ان يوكل الأمر الى معلمين خصوصيين ، فارسلوه الى خاله الكاهن ، لهذه الغاية . وبعد ان تخرج عليه ، مدة سبع سنوات ، متلقياً المبادىء الأولية من كل شيء ، ادخلوه جامعة بالنسية ، التي كانت ذائعة الشهرة ، في ذلك العصر . فاستمرّ فيها عشرة اعوام ، قضى ستة منها في تلقي العلوم المدنية ، والفلسفة ، واربعة في تحصيل المعارف اللاهوتية .

وهذا ايضاً كان من افضال الكنيسة على عبدالاحد . لان تلك الجامعة كانت قد اضحت ، بهمة زعمآء الدين ، معهداً متقناً تكتسب فيه العلوم العالية ، بجميع الوسائل ومعدّات الرقي الممكنة في تلك

الايام الخالية . وكانت تلقن تلك المعارف حسب المبادىء المستقيمة ، وطبقاً لروح الدين والآداب الحسنة . على ان عبدالاحد ، مع اقتباسه تلك العلوم الدنيوية ، لم يكن ليجد فيها ما يفي بمطاليب عقله ، ويروي ظمأ قلبه . وعليه فما اقدم على الدروس الدينية ، الا وخاض ، باقدام ولذّة ، عباب العلوم اللاهوتيّة والفلسفية والكتابية ؛ فاحرز فيها قصب السبق ورتبة الاستاذية .

هذا ولم يكن ذلك الفضل ، فضل الكنيسة على عبدالاحد ، من حيث الثقافة المسيحية ، والتضلع من العلوم الدينيّة ، الا بمنزلة اعداد لفضل آخر ، بنعمة اعظم ، وهي نعمة الكهنوت السامية . فانه في تلك الايام كان مطران أورْمِيا ، المدينة القريبة من بلده ، قد اجرى اصلاحاً في جمعية كنيسته القانونية . واذ كان رئيسها ، دييكو دي ازيفدو — الذي جلس فيما بعد على سدّة أورْمِيا المطرانية — يعرف عبدالاحد حق المعرفة ، وما قد تحلّى به من المزايا العلمية ، والادبية والروحية ، طلب منه ، بل شوّقه الى الانخراط في تلك الجمعية . فما كان منه الا ان لبّى طلبه بنفس رضيّة . وما عتمت فضائله ان تجلت للعيان ؛ مما كان له خير وقع في عيون اخوته وذوي الشأن . فاجمعوا على انتخابه معاوناً للرئيس بكل اطمئنان . وهكذا عاش عبدالاحد هذه الحقبة من حياته الفردية ، متمتعاً فوق نعمة الكهنوت بمنافع العيشة القانونية ، متدرجاً رويداً رويداً في سبيل دعوته الربانية ، حتى بلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة . واوانذاك حدث ، بفضل من افضال الكنيسة ايضاً ، ما اعلن له هذه الدعوة الممتازة ، وهي الحياة الرسولية ، وتأسيس رهبنة تبشيرية .

ووقع ذلك في فرصة ملائمة ، وهي ان مطرانه استصحبه اثناء قيامه بمهمة ، كان قد عهد بها اليه ملك اسبانية ، اعني بها خطبة ابنة ملك الدانمرك لابنه وولي عهده في الولاية . واذ كان المطران ورفيقه

عبدالاحد، في طريقهما الى الدانمرك، مجتازين في جنوب فرنسة، حيث كانت هرطقة الالبيجيّين قد نشرت فساد تعاليمها، نزلا في احد منازل مدينة تُولوزة. واذ وقف عبدالاحد على ان صاحب البيت من الهراطقة، التهب قلبه على خلاصه بنار الغيرة الحقة. فقضى الليل كله يحادثه في امور الدين، مبيناً له بدامغ الحجج واسلوب اللطافة واللين، انه ساقط في وهدة الضلال. فما تبلج الصباح الا وقد اصبح الهرطوقي من الكاثوليك. ومنذئذ نشأت في فؤاد عبدالاحد الرغبة في وقف حياته لمهمة التبشير، سعياً في هداية اهل التيه وارجاع الخطأة. ووطن نفسه على اتخاذ فرنسة موطناً له تابعاً، اذ رأى فيها المجال واسعاً لغيرته. فمكث عشر سنين في تلك الربوع الدائبة فيها عقارب الفساد والضلالة، باذلا قصاراه، دائباً دون ملالة. وقد بارك الله في اعماله، وكافأه على جهده ونصبه. وهذا ايضاً كان فضل من أفضال البيعة بجانبه.

على ان الكنيسه لم تسبغ عليه آلاءها الغزيرة في ما يرجع الى منافع نفسه وحسب، بل قد مدّت له يد المعونة كلما التجأ اليها في شأن اعماله الرسولية، ومشاريعه الكبيرة الاهمية. فانه في مدة سعيه في انشآء رهبنة الواعظين، كان موقناً كل اليقين ان كل عمل فيه صلاح لا يرفقه قرين النجاح، الم يطبع بطابع رومة وايدها، ونيل القوة من سلطة السدة البطرسية وعضدها. ولذا فقد يمّم شطر الحاضرة الابدية ست مرات طوال حياته العملية. فلم يلقَ الا العطف والتجلة والمعاضدة من عامة رجال الكنيسة، ولاسيما من الاحبار الرومانيين الثلاثة، وهم انشنتس الثالث، هنوريس الثالث، وغريغوريس التاسع، فانهم جميعاً قدروا فضله حق قدره. وقد انتدبه اولهم الى القاء المواعظ على حاشيته؛ ولقبه بلقب «استاذ بلاطه» متوسماً لا بل متحققاً فيه رجلاً مدعواً من الله لاجراء اعمال جليلة، تعود على

النفوس بالفوائد الجزيلة .

اما الفضل الاكبر خطورة بين افضال البيعة عليه ، فقد كان انها بعد انتقاله من دار الفناء الى دار البقاء ، سعت فايّدت فاعلنت ، بسلطة صديقه ومحاميه البابا غريغوريس التاسع ، بطولة فضائله ، مدرجة اسمه في سجل القديسين ، وذلك سنة ١٢٣٤ ، اعني ثلاثة عشر عاماً عقيب رحيله عن هذه الارض . وما هذه الاحتفالات التي تقيمها الرهبانية الدومنكية عامنا هذا ، في سائر اقطار المسكونة ، الا اعلان لانقضاء سبعة قرون منذ منح هذه المنة ، التي جعلتها البيعة خاتمة افضالها على عبدالاحد ؛ ومن ثم على رهبنته ، وعلى جميع من ينضوي الى رايته .

هذا اذن ما قامت به الكنيسة في سبيل عبدالاحد ؛ اي انها رافقته شاملة اياه بعنايتها الجزيلة ، من مهده الى لحده ، لا بل الى مقر مجده وسعده . فكانت له ، والحق يقال ، امّاً رأوفاً عطوفة ، متفانية شفوقة . فلنرَ الان كيف قابل عبدالاحد هذه الافضال العميمة .

ماذا صنع عبدالاحد في سبيل الكنيسة؟

لبلوغ الارب ، في هذا المطلب ، علينا ان ننظر الى حياة ابينا من ناحيتين ، ناحية حياته الشخصية ، وناحية مشاريعه الدينية . ففي كلتا هاتين الناحيتين ، ماذا يا ترى كان موقف عبدالاحد تجاه الكنيسة؟ في حياته الشخصية ، حياة القداسة ، كان فخراً لها ؛ وفي مشاريعه الجليلة ، اصبح سنداً لها . ودونكم الكيفية .

قال ربنا ، لاسمه السجود : « ان الشجرة تعرف من الثمرة . فالشجرة الصالحة تثمر ثمراً صالحاً ؛ والشجرة الرديئة تثمر ثمراً رديئاً . » والحال

ان الكنيسة ، في نظر مؤسسها الالهي ، عبارة عن شجرة غرسها في ارض هـذا العالم ، لتعطي اثمار القداسة ، اي رجال الصلاح ؛ وفي مقدّمتهم القديسون . وكما ان الشجرة كلما جاءت ثمرتها غزيرة وافرة ، زاد قدرها في عيني صاحبها ، وفي عيون ناظريها ، فكذلك البيعة كلما كثر فيها الصالحون ، ونبغ فيها القديسون ، تجلّت قداستها ، وثبتت مقدرتها عـلى تقديس النفوس وتخليصها ، وعلا كعبها امام الرب ، وامام البشر . فاذا كان الأمر كذلك ، كان كل قديس تنجبه الكنيسة مجلبة فخر لها ، بل تاج عز على هامتها . وهـذا ما كان ، والحق يقال ، عبدالاحد .

على انه كما ان النجوم المتلألئة في السمآء ، وان كان لجميعها طبيعة واحدة من حيث الخلقة ، يختلف بعضها عن بعض حجماً ونوراً وبهآءً ، فكذلك القديسون ، فانهم ، وان كانوا باجمعهم حاصلين على البرارة والكمال ، الا ان قداسة كل منهم تباين قداسة غيره ، بتفردها بفضيلة من الفضائل سطع فيه نورها غاية السطوع . فقد امتاز مار فرنسيس السالسي بفضيلة الوداعة ، ومار فرنسيس الاسيسي ، بغرامه بالفقر وآلام المسيح ، ومار منصور دي بول ، بتفانيه في خير القريب باعمال المحبة والرحمة . فان كانت الحالة هـذه ، فما يا ترى العلامة الفارقة لقداسة عبدالاحد ؟ ان ابانا لخليق ، بكل صواب ، ان يمتاز بمزية « الرسولية » اذ بهذه الكلمة خلاصة حياته واعماله ومؤسساته . هـذا والرسولية تفترض ضرورة علاقتين : علاقة المرسِل بمرسله ، وعلاقة المرسَل بمن يرسَل اليهم .

فعبدالاحد الرسول ، ومرسله الكلمة الالهي ، والمرسَل اليهم النفوس اية كانت . واينما حلت . واذ كانت الشريعة ، ومن ثم القداسة ، قائمة على كلمة واحدة ، وهي المحبة ، كانت خاصّية قداسة عبدالاحد متوقفة

على حبه المضطرم للسيد المسيح ، الكلمة المتأنس ، وغيرته على النفوس المفتداة بدم هذا الحمل المجزور .

اما حب عبدالاحد لربه فهو البحر حدث عنه ولا حرج . فقد كان لا يلذ له شيء سوى مناجاته ، والهذيذ في كمالاته ، والاقتداء بسامي فضائله ، اثناء ليله واطراف نهاره . وحين مقابلته الناس ، لم يكن يفتأ من اذاعة المكنونات الالهية ، بما هي عليه من بهاء وجمال ، واتقان وكمال . واذ كان من مطلبات المحبة القربى والاتحاد بين المتحابين ، فلذا لم يكن عبدالاحد يجد نعيمه الا عند اقدام سيده يسوع ، الجالس في الكنيسة على عرشه ، في سر القربان ؛ وفي الاتحاد به وقت القداس بالتناول الالهي . واذ كانت الصلاة من انجع الوسائل للاتحاد بالرب ، فقد كان عبدالاحد متمسكاً بعروتها اي تمسك . وسهر عبدالاحد للصلاة ليلاً اشهر من نار على علم . اذ انه على مثال ربه كان يشتغل نهاراً ، ويتهجد ليلاً . فاحر به ان يلقب ، كما كان يسميه ابناؤه واهل عصره ، « بحبيب المسيح ، ورجل الصلاة »

على ان المحبة الالهية ، اذا اشتعلت في قلب المرء ، لا تعتم ان تلتهب متأججة ، فتصبح اتوناً . وهذا ما جرى لابينا الطوباوي . فان حبه للرب دفعه الى الغيرة على مجده تعالى بحبه للنفوس المفتداة بنعمانه الثمين . واذ كان اسطع دليل على المحبة تضحية الذات من اجل الحبيب ، طبقاً لقوله تعالى : « ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه » ، نرى الحب بالغاً بعبدالاحد الى ان يعقد النية على الذهاب الى بلاد الوثنيين ، بغية التبشير بدين المسيح ؛ لعلمه ان هناك متهيئة له الفرصة لسفك دمه في سبيل الله وسبيل النفوس . ويوم سعى الهراطقة في قتله وطاش سهمهم ، قال لبعضهم : « لو كنتم تعمدتم الفتك بي ، لكنت التمست منكم ان لا تجتزئوا بجزّ هامتي ، بل ان تقطعوني ارباً ارباً فتذيقوني الموت الوانا . »

واذ لم تشأ العناية الالهية تحويله هذه النعمة ، لِما كان لها فيه من المقاصد الخطيرة ، فقد استعاض ابونا عن ذلك بما امكنه من التضحية بالتقشفات والاماتات ، وتكبد الاتعاب والمشقات ، وممارسة الفقر الاختياري عجيب الممارسات . فانه لم يكن له قلاية خاصة به ، في اي دير كان ؛ وفي اسفاره الكثيرة الطويلة كان يسير راجلاً حافياً ، متعيشاً من صدقات المؤمنين . ولم يكن له سوى ثوب واحد ، رثٍّ ، مرقع . وتحت هـذا الثوب لم يكن يفارق جسمه المسح الخشن ، والسلسلة الحديدية . وكان يجلد نفسه ، كل ليلة ، ثلاث مرات : الاولى كفّارة عن خطاياه ، هو البار ؛ الثانية عن مآثم الخطأة ؛ الثالثة اسعافاً للنفوس المطهرية .

ولشدة حبه للنفوس الاثيمة ، وحزنه على حالها البؤسى ، كان يصرخ هاتفاً : « يا رب ، يا رب ، ماذا يا ترى يجرى بالخطأة المساكين ؟ » وكان يحرّض رهبانه على الصلاة من اجلهم ، قائلاً : « يا ابنائي ، ان لم يكن لكم خطايا ، فابكوا ، ابكوا عـلى معاصي الاثمة التعسآء . » هذا ولم يكتف بالصلاة والدأب في خير القريب ، بل كان من رقة جنانه على بؤس الفقرآء ، زمان الغلآء ، ان باع كتبه العزيزة عليه ، لندرتها في ذاك العصر ، وذلـك سداً لرمق المتضوّرين جوعاً . ويوماً آخر اذ سألته امرأة مسكينة صدقة ، ولم يكن له ما يسعفها به عرض ذاته للبيع سداً لحاجتها ؛ فتمنعت . ولو رضيت لكان فعل عن طيبة خاطر . وهذا الرجل الذي حافظ على النعمة التبريرية والنقاوة القلبية والطهارة الجسدية وكان يكره الخطيئة اشد الكراهية ، كان شفيقاً ، رحيماً ، لين العريكة ، عذب الكلام مـع جميـع الناس ، ولاسيما مع الخطأة والهراطقة .

هذا بعض من عدّ فضل ابينا ، ونقطة من يمّ قداسته التي كان محورها الحبّ بغرام لابن الله الكلمة الفادي ، والغيرة على النفوس .

وقد كلل الرب هذه القداسة في قيد حياة وليّه بمنحه صنع المعجزات، منها احضاره أو تكثيره الخبز والخمر يوم لم يكن لاولاده الرهبان ما به يقتاتون ؛ وشفاؤه المرضى ، واقامته الموتى . وهكذا اضحى عبدالاحد للكنيسة فخراً ومجداً ،

بيد انه زاد على ذلك ما به اصبح لها سنداً .

فكان اولا عضداً لها باعماله الرسولية . فانه يوم حلّ جنوب فرنسة، كانت البيعة عاملة على قمع الهرطقة وقطع دابر ضلالها . وكانت قد اوفدت لهذه الغاية قصاداً انتخبتهم من الرهبان السسترسيين . الا ان مساعيهم ذهبت ادراج الرياح ، لانهم كانوا متبعين العادة السيئة السائدة في ذلك الزمان وهي الظهور بمجالي الابهة والعظمة مع ما تتطلبه من الاكثار من الخدم والحشم ، وامتطاء الخيول المطهمة ، وركوب العربات الفخمة ، والاخلاد الى العيشة الناعمة ، مع اهمال العناية بالنفوس المحرومة من التعليم والارشاد ، والتربية الصالحـــة ، وتقويم اود الاهواء المنحرفة .

فلما رأى مطران أوسما وعبدالاحد تلك الحال المشؤومة الملومة — على حين ان الهراطقة كانوا يتظاهرون بالزهد والاماتات الموهومة ، للتمويه على بصائر طبقة العامة — قالا لاولئك القصاد : « انكم لعلى ضلال مبين ، لاتباعكم هذا السبيل غير الامين . فان اردنا مقاومة الهراطقة بسلاح المسيح الحقيقي ، فلنقابل زهدهم الظاهري بالزهد والفقر المسيحي الاختياري . ولذا فما لكم الا تسريح هولاء الخدم والحشم ، والعدول عن ركوب الخيل والمركبات ، ونبذ الكبكبات والابهات ؛ ولنسر جميعنا راجلين على مثال المسيح والسليحين .

على ان القصاد لم ترق في عيونهم هذه الطريقة النفيسة ، ومطران أوسما اضطر الى العودة الى ابرشيته ، مبارحـــاً فرنسة . فاستمر عبدالاحد وحده في جنوبها ، متبعاً ، غضون عشر سنين ، تلك السبيل

بتفاصيلها ، جائلاً في المدن والقرى ، في اليد الواحدة انجيل مار متى ، وباليد الاخرى يتوكأ على عصا . وهما الآلتان اللتان سلمه اياهما زعيما الرسل بطرس وبولس ، حين ظهرا له وقالا : « الا خذ هذا الكتاب وهذه العصا ، واذهبْ وبشرْ . » وعليه كان دأبه الوعظ والتبشير ، وديدنه الصلاة والتقشف للتكفير . وبذلك ارجع الكثيرين الى الحظيرة المقدسة ، فادّى الخدم الجلى للكنيسة ، بهذه الطريقة السلمية الرسولية ، اكثر مما افادتها الحروب الدموية التي قصد بها المجاهدون كسر شوكة الهرطقة بالقوة الجبرية .

ومما ساعده في عمله هذا المبرور انه نال من العذرآء ذات البهآء والنور تلك الوسيلة النادرة المثال ، بل ذلك السلاح الروحي ذا الاثر الفعّال ، القاطع دابر الهرطقة والضلال ، والساحق رأس العدو الجهنمي المحتال ، الا وهي صلاة الوردية المقدسة ، التي بايعاز وتلقين البتول القدوسة اتخذها طريقة للوعظ مبتكرة في الكنيسة . ومنذ ذاك الآوان اصبحت الوردية الصلاة الجمهورية والعبادة الكاثوليكية ، المنتشرة في عامة الاقطار المسكونية ، يتلوها الصغار والكبار ، النسآء والرجال ، الاغنيآء والفقرآء ، الجهال والعلمآء ، الملوك والوزرآء . ومن ذا الذي في وسعه تعداد الفوائد الجمة الروحية والزمنية ، التي عادت على الكنيسة بهذه العبادة الدومنكية ، ولاسيما في الواقعة الليبانتية ، التي صَدّت فيها الجيوشُ المسيحية الهجمات التركية ، فانكسرت شوكة هؤلآء القوم كسرة ابدية .

ومّما خدم به البيعة خدمة جليلة انشاؤه رهبنة للنسآء غايتها الانفراد وتمام العزلة ، وقضآء الحياة في الزهد والصلاة المتواصلة . ثم رهبنة ثالثية بها فسح المجال للطبقة العلمانية ، ليتمكنوا ، قدر المستطاع ، من ممارسة الفضائل الرهبانية ، مع بقائهم في وسط العيشة العائلية .

الا ان الذي خلد اسمه وبه اصبح سنداً للكنيسة يذكر فينشر ،

ويحمد فيشكر ؛ هو تأسيسه « رهبنة الاخوة الواعظين . » فانه باختباره في ديار الهرطقة والضلالة ، تحقق ان الغيّ ما منشأه الا الجهالة ؛ وان ظلامه لا تبدّده الا الانوار التعليمية بنشر الحقائق الانجيلية ، على الطريقة الرسلية ، التي تلمذ بها الحواريون شعوب الجاهليّة ، وكانت قد تنوسيت في تلك الايام الشقية . فراى قديسنا وجوب اعادة تلك الطريقة ، بانشآء جمعية تتوخاها مهمّةً خاصة ، وتكون منوطة باعلى رئاسة الكنيسة .

هذا ولم يغب عن ذهنه الوقاد ان التبشير امر صعب دونه خرط القتاد ، لتطلبه التضلع من العلوم الدينية والمدنية . وكيف يا ترى يغرب عن باله ذلك ، وهو خرّيج الجامعة ، والمبرّز في المعارف الاصلية والفرعية ؟ ولذا جعل اساساً للحياة التبشيرية حياة الدرس المتوالية ، حسب المناهج العلمية العالية . على ان عبدالاحد لم يكن فقط عبقرياً بالذكآء والحنكة في الاشتراع ، والقدرة على الابتداع ، ابتداع طريقة منظمة ذات غاية معلومة ، تعززها الوسائل الملائمة ؛ بل فضلاً عن عبقريته البشرية كان نابغة في الامور الروحية ، والحياة القدسية ، والعيشة القانونية ، ومزاوله الاعمال النسكية وعليه اتخذ وسيلة ثانية للتبشير الزهد الرهباني والصلاة الخورسية . وبذلك جمع بين الحياتين ، الحياة النظرية والحياة العملية ، برباط الحياة الدرسية العلمية ، فنجم عن هذا المجموع الحياة الكاملة ، المدعوة « الحياة الرسولية » الملخصة في قول الحواريين : « اما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة . »

هذا كان مقصد عبدالاحد وهذا نظامه . واذ كان قد انضم اليه رهط من الرجال طابت لهم غايته والعيش حسب قانون هذا قوامه ، رأى ان الوقت قد حان لختم هذا المشروع بخاتم السلطة الشرعية . فذهب الى رومة وعرض فكرته اولا على البابا انشنسيس الثالث ، وبعد وفاته ، على خلفه هنوريس الثالث . وهنا لنقفنّ هنيهة منعمين

النظر في جرأة عبدالاحد مع ثقته بالله ، واستعداده التام للخضوع لسلطان وكيله . قلنا ان عبدالاحد قصد انشآء رهبانية جديدة ، ورهبانية غايتها الوعظ العام ، غير المقيد بسلطة سوى سلطة الاحبار العظام . والحال ان هذه الفكرة كادت تكون بدعة من وجهين ، اولهما ان المجمع اللاتراني المنعقد في تلك الآونة كان قد منع تأسيس رهبنات جديدة ، لكثرتها في تلك الازمنة . وثانيهما انه حتى ذلك العصر لم يكن الوعظ الا من اختصاص الاساقفة ومن سلطتهم المألوفة ، لهم الحق بان يفوضوا من يشآؤون من الكهنة لوقت ما ، وفي فرص معينة . فكيف التوفيق بين هذه الاحوال وبين مقاصد عبدالاحد ؟ وعليه فلا عجب اذا رأينا البابا نفسه يتردد في تثبيت الرهبنة بادىء بدء . الا انه في تلك الايام رأى قداسته في الرؤيا ان كنيسة مار يوحنا اللاترانية موشكة ان تتقوض اركانها ، واذا برجلين احدهما عبدالاحد وثانيهما صديقه الحميم فرنسيس الاسيزي جآءا وكانا بكتفيهما يسندانها . وهما اللذان كانا في تلك الآونة في رومة يطلب كل منهما تثبيت رهبنته . فتحقق الحبر الاعظم اذ ذاك ان عبدالاحد مدعو لسند الكنيسة ، وان الرهبنة المزمع تاسيسها تضحي نوراً للعالم ، وهكذا تثبّتت وانتشرت رهبانية الاخوة الواعظين . وهذه سبعة قرون خلت وهي كالدوحة الباسقة ، الثابتة الاصول ، المترامية الاغصان ، في جهات المسكونة باسرها .

وليعجز المرء عن وصف ما نشأ فيها من الاعمال الخطيرة . وما قام فيها من الرجال الفطاحل الذين أذهلوا الورى بمآثرهم الباهرة ؛ فكانوا فخراً للبيعة ، بل للالفة ، بل للبشرية . منهم الرهبان والراهبات الذين عاشوا عيشة مقدسة . فماتوا ميتة صالحة . من جملتهم الطوباويون والطوباويات . والقديسون والقديسات . بينهم الاحبار العظام ، وجم غفير من الاساقفة والمطارنة والكرادلة الذين خدموا الكنيسة خدمة

جزيلة . في مصافهم المرسلون المتفانون ، والوعّاظ ، والمبشرون . من قبيلهم مصاقع الخطباء ، والعلماء ، والادباء ، والفلاسفة ، وفي زمرتهم اللاهوتيون ، والحقوقيون ، والكتابيّون . وكبار الملافنة . ومن ذا الذي لا يقف منذهلاً فيطأطيء الهامة حرمة وتجلة ، لدى ذكر مثل هذه الاسماء الشهيرة ؛ القديس البرتس الكبير ، ملفان الكنيسة الجديد ، البابا بيوس الخامس ، لويس برتران ، منصور الفراري ، بطرس من فيرون ، ريمون دي بنفور ، هوك دي سن شير ، كترينة السيانية ، كترينة الريكشية ، روزا دى ليما ، وغيرهم كثيرون ممن لهم الذكر الخالد في التأريخ ، أو قد ادرجوا في سجل الاولياء ، فاضحوا فخراً للرهبنة والكنيسة والالفة .

الا ان هناك رجلاً لو لم تنجب الرهبنة الدومنكية سواه ، لكان لها فخراً يغنيها عن كل المفاخر ، ولكانت به وحده قدّمت للكنيسة سنداً قلّ ان ماثله سند من الاسناد . الا وهو نابغة النوابغ ، ملفان الملافنة ، تاج الكنيسة واعظم معلميها ، وهو مع ذلك ذاك الرجل المتواضع ، الراهب الوديع ، الروح الطاهر ؛ هو الاخ توما ، وهو عينه القديس توما الاكويني اللاهوتي الشهير ، الذي كفاه مدحاً قول البابا يوحنا الثاني والعشرون فيه : « ان كل فصل من كتاب لاهوته لعجيبة من العجائب . » وحسبه مجداً ان كتاب لاهوته هذا وضع بازاء الانجيل في المجمع التريدنتيني .

فطوباك الان ، يا ابانا عبدالاحد ، ثم طوباك . انت خليق بان تدعى كوكب الصبح بين الغمام ، والبدر ايام التمام ، والشمس المشرقة على هيكل رب الانام . فحياك وبياك . انت فخر اسبانية ، لولادتك فيها . انت مجد فرنسة ، لان ميدان عملك كان فيها . انت سعد ايطالية ، لان مقر جثمانك فيها . فحياك وبياك . سعيت ، ولم يذهب سعيك سدًى . فحياك وبياك . جاهدت الجهاد الحسن ونلت الاكليل ؛

فحياك وبياك . انت ، البناء الماهر ، أسست ، فقام اساسك ، لا على جرف هارٍ ، بل على صخرة جلمود ، فحياك وبياك . انت ، الفلاح الحاذق ، غرست نبتة ؛ وها هي ذي الآن دوحةً باسقة . فحياك وبياك . انت ، الاستاذ العالِم ، انت ، النابغة النادر ، انشأت مدرسة للعلم والقداسة . فها انت ذا اليوم في السماء بدر تحيط بك هالة من القديسين العلماء . فحياك وبياك . وكما ثبتت دوحتك هذه الدومنكية سبعة قرون ، فسوف تدوم كذلك ، بفعل صلاتك وشفاعتك قروناً فقرونا . فحيـــاك وبياك . اجل سوف تبقى خالدة مع الكنيسة ، وفي حمى الكنيسة ، وسنداً للكنيسة . فحياك وبياك . فلا يزال بهـــا تمجداً اسمك واسم الكنيسة ، لمجد السيد المسيح رأس الكنيسة ، له المجد والحمد والشكران ، الان وفي كل آن .

الاخاء

مما يثبته العقل السليم ويقره الدين القويم ان بين البشر ، من الناحية الواحدة ، مساواة اي توازناً طبيعياً تجاه الحق والعدل ؛ توازناً مستنداً الى اركان هي : وَحدَة الصدور ، ووَحدة الورود ، ووحدة الطريق ، ووحدة الوسائل ، اعني بها : التعليم والسلطة والرابط ؛ وان بين هولاء ابناء آدم ، من الناحية الاخرى ، تراجحاً مقبولا كذلك في نظر العقل والدين ، الا وهو اختلاف المقامات والطبقات الاجتماعيه ، التي تفرض وجودها الالفة عينها ؛ وذلك لان المساواة في الطبقات من شأنها ان تزيل الاختلاف ، وهو رونق الجمال ، وتحط بالالفة من منصبها السامي ، فتنشيء الاستعباد ، ذاهبة بحرية العباد ، مستأصلة حق الامتلاك ، مما يؤدي الى الشيوعية .

على ان التوازن في الحقوق والواجبات الطبيعية ، مع التراجح في الطبقات الاجتماعية ، ليس بكافٍ لكمال المجتمع . اذ لا يتم التقدم الائتلافي بوجود الحرية والمساواة في ظل السلطة الشرعية ، لما يخشى على التوازن الطبيعي من ان تمحقه الاختلافات الشخصية ، لما يقتضي معه ان يكون هناك بين المساواة وبين التباين في المقامات ، ذريعة او قوة توقف بينهما وتعادل حركتهما ، فتمنع المساواة من هدم المقامات ، وتصعد المقامات من الاجحاف بحق المساواة . اجل ان الحاجة لذلك لفي مسيس لا وراءه مسيس ، والذريعة الموفقة هي ما امتاز به الدين المسيحي ، بل قل ما اتى به بمنزلة اختراع لم يكن يحلم به البشر ويعلمون بمبادئه من قبل زمن ظهوره .

ولذا نجعل محور هذه الخطبة « الاخاء » فننظر اولا في هذه الفضيلة مميزين ماهيتها الحقيقية عن الظواهر الكاذبة التي تختص بالاخاء الباطل؛ ثم نبسط الوسائل المتحتم ايجادها لتحقيق الاخاء الصادق .

* * *

اولا : الاخوّة الموهومة ، والاخوة الصادقة .

لم تكن الاخوة معروفة ، قبل مجيء السيد المسيح الذي علمنا كيفية ممارستها . اذ من تعاليم الرب ان المسيحيين اخوة ، لانهم اولاد أب واحد ، وهو الآب الذي في السماوات ؛ واولاد ام واحدة ، هي الكنيسة المقدسة ، وهم منتسبون الى ذاك الذي قال لهم في شخص رسله الاطهار : « لستم عبيداً ؛ لاني جعلتكم اخوتي . » فمنذ نحو الفي سنة ، قد تسمى المسيحيون اخوة ، ولم يزالوا كذلك . وقد دخل روح الاخوة في حياتهم العائلية ، والاجتماعية ، وفي شرائعهم وقوانينهم المدنية ، حتى ان من يجل نظره ، دون غرض ، في تأريخ الكنيسة يرَ ان حياتها لم تكن سوى تقدّم وارتقآء في معارج الاخوة . ممّا يتجلى معه ان الكنيسة لم تكن تعامل المسيحيين الا معاملة الأم الرأوم ، وان اولادها لم يتصرفوا غير تصرف الاخوة . وقد كان هذا في المجتمع المسيحي امراً مشهوراً ، شاملًا ، منتظماً ، متواصلًا ، حتى انه لم يعد مستغرباً ، ممّا جعل ان يكون مثل المسيحيين تجاه الاخوة كمثل البشر بازآء الطبيعة . فكما ان الورى معتادون رؤية عجائب النظام الكوني ، حتى انهم لم يعودوا يذهلون من بهآء الشمس والقمر والنجوم ودوران الافلاك ، كان المسيحيون قد ائتلفوا سير النظام الاخوي ائتلافاً جعله شيئاً من كيانهم الطبيعي .

هذا وكما اننا نشعر ببهآء الشمس وفضلها ، وبحاجة الاشيآء اليها ، اذا احتجبت عنا بكسوف ، أو حال دون نفعها غيوم متلبدة ، أو

عواصف هائلة ، فعلى هذا النمط لم يتحقق الشعوب فضل الاخوة الا بعد ان ثارت زوابع الثورات فقلبت النظام ؛ وبهذا الانقلاب تسلطت الانانية وروح الفردية المعاكس لروح الاخوة المسيحية . فالثورات انزلت الانقسامات في العقول والقلوب ، وافرغت النفوس من روح المحبة ، وضعفت الايمان بالمسيح ودينه ، فساد روح الفرديّة عقلياً ، وروح المادية أدبياً ، وروح الاستقلال والعصيان اجتماعياً . وصفوة القول انه بعد ان كانت شمس الاخوة المسيحية قد غابت ورآء غيوم قاتمة ، غيوم البغضآء وسفك الدمآء ، حينئذٍ شعر البشر بالحاجة الى التقارب ، والتآلف ، والمصافاة ، والمآخاة . ممّا نشأ عنه جميع هذه الطرائق والمذاهب المتفرقة المتناقضة بين معشر الفلاسفة في هذه الاعصر المتأخرة ، تلك المذاهب الرامية كلها الى جعل الاخاء اساس الاجتماع ، وشعاراً للالفة ، ورأية وشريعة لجميع المشاريع .

فاخذ هؤلآء المصلحون ، على اختلاف نزعاتهم ، يعللون البشرية باقبال عصر ذهبي يصبح فيه المجتمع مجتمعاً رائقاً جمالا ، مجتمعاً خالياً من الحسد والبغضاء والطمع والمنازعات والانتقام ، مجتمعاً فردوساً أرضياً أو جنة عدن ، مجتمعاً تسود فيه المحبة بين الناس ، فيعانق الاخ اخاه ، ويعيشون في بحبوحة الهناء ، فيزول روح الانانية ، وتبيد المشاحنات ، وتتقارب الامم متمازجة ، ويستتبّ السلام والأمن والهدوء ، ولا يكون السلطان الا للعقل والمحبة والعدل في مصير الامم . وكأني بهم يهتفون نحو الانام قائلين : « ألا ايّها الشعوب تصافحوا ، فهذا من فضل التقدم والعمران . اذ منذ اليوم لا حرب بعد ، ولا نزاع ، اذ ان الائتلاف والاتفاق قد سحق راس هذا التنين الذي يهلك الافراد ، ويمحق الشعوب . عن قريب سوف تعزل المدافع والرشاشات والطيارات وبقية العدد الحربية في متحفة العاديات ، لتكون شاهداً على بربرة عصر قد خلا . وما ذلك لان نظام الالفة قد سار بالامم والدول ،

واقلع بهم الى شواطىء المحبة والاخوة والسلام . »

ان هذا كله من المبادىء الحسنة التي يرجى منها الخير ، بشرط ان تكون مستندة الى روح الانجيل . لكن لا يتوقع منها الا الشر اذا كان القصد منها افساد النفوس . وهذا ، والحق يقال ، ما جرى بالواقع كما تشهد به الحروب الهدّامة وما ينجم عنها ، ولا يزال ناجماً من الخراب والدمار المادي والادبي والاجتماعي والديني في كثير من الاقطار والامصار .

قد يشاهد في كل زمان ان اعذب الالفاظ ، عند ارباب الفضيلة ، تضحي اهول الالفاظ ، عند اهل الاثم . من ذلك لفظة الاخوّة ، فانها ، بين المسيحيين ، تدل على شاعرة المحبة القلبية ، وأما عند اعدائهم ، فهي كلمة تهديد وارعاب يتذرع بها ارباب الثورات . فباسم الاخوة قد راى العالم متساقطة رؤوس الاشراف والاماجد ؛ باسم الاخوة قد ثُلّث العروش العظيمة ، وتدهورت الممالك الفخمة ؛ باسم الاخوة قد اهريقت دماء الملوك والقياصرة ؛ باسم الاخوة قد عُذّبت ونفيت الكهنة والاحبار ، والرهبان والراهبات ؛ باسم الاخوة قد شُنقت القواد والامرآء ؛ باسم الاخوة قد امتهنت القداسة وهتكت الفضيلة ؛ باسم الاخوة قد احتقرت الديانة واضطهدت الكنيسة . اجل! ان كل هذه الفظائع قد ارتكبت باسم الاخوة المقدسة . مما جعلها اسماً على غير مسمّى . اذ متى دّلت الاخوة على هذه الامور الشنيعة . فاذاً ما هذه الاخوة سوى اخوّة كاذبة ، شنيعة ، كريهة ؛ وما ارباها غير اعداء تقمصوا بردآء الاخوان ، بل قل ذئاب خاطفة قد لبسوا لباس الحملان .

فاذا كانت هذه الاخوة الكاذبة ، فما ادراك ما هي الاخوة الصادقة؟ الاخوة الحقيقية ، بمعناها المطلق ، هي الاتحاد بين جملة افراد احياء ، او هي كثرة الافراد المدعوين اخوة في وحدة شخص هو الاب . هذا

جوهر الاخوة الداخلي . اما الاخوة المتجلية بمظاهرها الخارجية فهي القائمة على ان يبذل المرء طوعاً ماله وما عز لديه ، حتى نفسه عينها في سبيل خير غيره وسعادته . فمن اعطى شيئاً بطواعة وبروح المحبة فقد اتى فعلاً من افعال الاخوة . لان الوحدة بين الكثيرين — وهي روح الاخوة وحياتها الداخلية — لا تظهر جلياً الا بالبذل الفعلي لما نملكه ولما نحن عليه . ومن شأن هذا البذل ان يتم طوعاً ، لان العشرة الاخوية بين افراد احرار يستحيل ادراكها دون العطاء الاختياري ، والبذل بحرية تامة .

هذا حد الاخوة الحقيقية الجديرة وحدها ان تحقق ما ينطوي في طيات هذه اللفظة من الخير والرقي . فالبذل اذن بسخاء لخير الغير هو الاخاء الفعلي الدال على الاتحاد بين الافراد ، القائم عليه جوهر الاخاء عينه . فكلما سعى المرء في بذل شيء هُوَ له ، أو هو منه ، أو هو ذاته ، في سبيل منفعة القريب كان ذاك المرء اشد اخوة ، واصدق اتحاداً . وبخلاف ذلك كلما اجتهد الرجل ان يحبس لديه ما هو لغيره ، وكلما حاول الطلب والاخذ ، دون العطاء ، كان انزل درجة في الاخوة . على ان هذا الاختلاف ، وان كان من الاوّليات المقرّرة ، هو امر جوهري يجدر بنا الاستزادة في تبيانه ، لدحض مغالطات المضلين الذين لا يزالون يجاهرون بين الملا بالاخوة المشوبة . فان الاخاء في نظرهم ليس بمتوقف على العطاء ، بل على الأخذ ؛ ولا على بذل الخير الذاتي ، بل على قبول خير الاخرين . هؤلآء هم ارباب الانسانيّة المنادون باسم الاخوة العذب ، والطامعون في الاخذ ، ان لم اقل بالقوة الجابرة ، فلا اقل من ان يكون ذلك بقوة الشريعة . فهم لا يرضون بالاخاء الناشيء عن المحبّة ، بل باخاء مرتّب بنظام القانون . فمن رأيهم ان للشريعة ان تأمر ، وللشريعة ان تطلب ، وللشريعة ان تعيّن مقدار ما يجب ان يهبه الاخ لاخيه . وفي نظرهم

ان التفاني ليس بكافٍ لمنحهم كل ما يتمنون . ولذلك فعلى الشريعة ان تقوم به . وان هي عجزت ، فللقوة القاهرة ان تؤسس تلك الأخوة بين البشر . بين الاسرة الانسانية اناس اغنياء ، واناس فقرآء . وهذه الحال ، على زعمهم ، مما لم تعد البشرية قادرة على قبول وجوده . وعليه فمن الواجب اللازب ان يزول هذا التفاوت بين الناس في باب الثروة ، أو بالاحرى ليخلق بجميع البشر ان يضحوا اغنياء ؛ وهذا حق لكل فرد من افراد المجتمع . والوسيلة العملية للتوصل الى هذا هي ان ينزع من المثرين فائض ثروتهم ويسدّ به نقص الفقرآء . وعلى الأخوة الكبار ان يعطوا للاخوة الصغار ؛ أو قل ان الحق ان يعوض عن اهانات وتعدّيات الازمنة الغابرة ، بان يصبح الاخوة الصغار كباراً . وعند تقلد هؤلآء زمام الادارة في الالفة الاجتماعية يعود العالم جنّة ارضيّة .

على ان هذه المبادىء الموهومة الوخيمة لحرية ان تنبذ ورآء الظهر وان يتمسك العاقل بعرى الحقائق الراهنة المستمدة من ينبوع الدين القويم في شان الاخوّة الصادقة القائمة في البذل الاختياري لمالنا ولذاتنا ، مما ينشأ عنه الاتحاد والمشاركة والرفاه والسعادة . والسبيل للتوصل الى هذه الضالة المنشودة ان نميـــل الى الشعور الاخوي ، مصدر المحبة ؛ وان نتجرّد من خيرنا لاغنآء قريبنا وتخليصه من حال الفقر ، وان ننكر ذاتنا لتحرير اخوتنا والعيش معهم تحت نير المسيح الطيّب ، واخيراً ان نموت ، اذا اقتضت الاحوال ، لحفظ حياة القريب .

هـذه هي الاخوة الصادقة كما يجب ادراكها ، خشية ان تصبح ، عاجلاً ام آجلاً ، شعاراً للبغضاء ، وسلاحاً لسفك دم الابرياء ، ومجلبة للانحطاط والبربرة ، عوضاً عن أن تُرفع رايةً للاتفاق وتصير وسيلة للتقدم والعمران في مجتمع الانسان .

* * *

وسيلة تحقيق الاخاء الصادق .

على راي ارباب الاخوة الشائنة ، لا يمكن تشييد بناء الاخوة الا على اساس الطبيعة لا غيره . وقوام هذا الفريق سائر اعداء الدين من عقليين ، وحلوليين ، واشتراكيين ، وشيوعيين . أما حسب العقل والدين ، فالاخاء مستمد سرّ وجوده من مصدر فائق الطبيعة ، ومنتشر بطريق المحبة والتضحية .

اجل ان الطبيعة وحدها ليست بكافية لاصدار الاخوة . فانها اذا جرت مجراها ، لا تحمل الانسان على الكمال الاجتماعي ؛ بل بالخلاف انها تبعده عنه . وذلك لان الانسان من طبعه ليس بميال الى الاخوة . والتاريخ شاهد على ان الطبيعة ، مع ما مر عليها من السنين والقرون العديدة ، لم تتمكن من ان تولّد في المجتمع روح الاخوة . نعم ان هناك من يرتئي ، تبعاً لزعيم الاصلاح في هذه الاعصر ، جان جاك روسو ، بان الانسان يولد صالحاً ، وما يضحي طالحاً الا بعيشه في المجتمع الذي يفسد ما فيه من الصلاح . حاشانا ان ننكر ما في الطبيعة من الصلاح ، وما قد وضعه الله في خليقته من الجودة والخير . الا اننا اذا فحصنا طبيعة الانسان فحصاً مدققاً ، واستبطنا اسرارها ، خاب املنا ، واضمحلت جميع اوهامنا . اذ نتحقق ان في اعماق قلب الانسان شيئاً قاسياً ، جافياً منفراً ، طالما حاول الانسان تجاهل وجوده ، الا وهو حاسة تعدّدت اسماؤها على وحدة جوهرها . وهي « حب الذات ، او الاثرة ، او الانانية » اعني تلك القوة المنافية لكل اخوّة . فما هي علة هذا الحادث ؟ عندنا ، نحن المسيحيين ، خلافاً لغيرنا ، الجواب على ذلك بسيط ، وخليق ان يحل المشكلة حلاً مرضياً . وهو ان السبب في ذلك الخطيئة الاصلية . اذ من المعلوم ان هذه الوصمة المشؤومة قد فصمت عرى الاتحاد بين الله والانسان ، وبذلك قد قطعت العلاقات بين الانسان واخيه الانسان . وهذا الانسان بانفصاله

عن الله قد تدهور في هوة المحبة الذاتية ، فوجد ذاته عندئذ منفصلاً عن اخيه ، لا بل راى فيه عدوّاً ازرق . وبعد ان رفض ان يكون الله مركزاً له ، اصبح على مثال الشيطان ، مركزاً لذاته . مما نجم عنه ان محبة الانسان المفرطة لنفسه حملته على بغض القريب ، وان التمتع بذاته دفعه الى الانفصال عن الآخرين ، وان رغبته في اكثار ثروته اغرته على سلب مال الغير ، وان حبّ الاستقلال كان محركاً له على استعباد الناس ، وان ضنه في حياته اوصله الى قتل غيره . هذه هي حالة الطبيعة بعد الخطيئه الاصلية . فاسعوا ، بهذه حالة الطبيعة ، ان قدرتم ، الى ايجاد الاخاء . هذا كان شان البشرية في العصور الوثنية . فان الانانية كانت السائدة المتحكمة ؛ فاصدرت سيطرتها الانقسامات ، والفقر ، والعبودية ، والموت .

اجل ان الاثرة كانت سبباً في المجتمع الوثني لفصل البشر بعضهم عن بعض . فلم يكن هناك ، كما هو الشأن في الجمعيات المسيحية ، نظامات ومراتب ومقامات متدرجة ، متنسقة ، متساوقة ؛ بل عوض ذلك لم يوجد الا طوائف متفرقة ، وقبائل متنافرة ، واقوام متباغضة ؛ مما لم يزل مشاهداً حتى اليوم في البلاد المتسكعة بعدُ في دياجير عبادة الاصنام ، على ما عبر عليها من الازمان المتطاولة . فلو كانت الطبيعة الساقطة ميالة الى الاخوة والمصاحبة ، فما الداعي لوجود هذا الانفصال ، وهذه الحواجز بين الشعوب ؛ مما ينافي روح الاجتماع الحقيقي . وليس هناك من داعٍ سوى ان هذه الامم سائد فيها روح الانانية المنغرس في اعماق الطبيعة التي لم ينفذ فيها بعد روح المسيح ، فلا مندوحة لها ان تثمر غير هذه الثمرة الرديئة ، لانها شجرة رديئة .

ومن عواقب الوثنية نزول الفاقة في العامّة بطريقة هائلة ، لا تمثل لنا حقيقتها اكبر مجاعات ايامنا الحاضرة . وهذا ليس بغريب . لان من ميل الطبيعة سلب الغير ، لاغناء النفس ، مما كانت الوثنية عاجزة

عن مناهضته . والذي كان من الضروري ان ينجم عن ذلك ، هو تراكم الثروة عند فريق ، وتضاعف الفقر عند الفريق الآخر . وهذا لم يكن ليظهر مظهره في عهد الوثنية القديمة وحسب ، بل انه لا يزال شاهداً عليها حتى في عصرنا هـذا ، كما يجري الامر في بلاد البرابرة ، حيث يموت الالوف والالوف من شدة الفاقة والجوع ؛ وذلك على مرأى ومشهد من ارباب الغنى الراتعين في هنـــاء ونعيم ، تطيب منهم النفس عند رؤيتهم هذه المشاهد المؤلمة . وان كان هذا الموقف موقف الاغنياء ، فما موقف أولياء الامور وانصار الاخوة أمام هذا التعس وهـــذا البؤس ؟ ان موقفهم اليوم موقف امثالهم في القديم . فانه لم يرَ قط في رومة ، ولا في اثينة ، ولا في مصر ، ولا في أشور وبابل ، ان رجلين قد اتفقا فجمعا مالا وانفقاه في سبيل اعانة الملهوف ، واغاثة البائس ، واشباع الجياع ، وكساء العراة . اجل ان هذا لم يكن ليخطر على بال احد في تلك الازمنة . وما المضلون العصريون الا ظالمون لنسيانهم أوْ قـلْ لتناسيهم بان الدين المسيحي كان اول من الهم البشر هذا الفكر المقدس ، فكر قسمة المال بين الاخوان .

ثم مما شانت به الوثنية الاخوة هو الاستعباد . وما الاستعباد الا استعداد في الطبيعة لم يكن لها من قِبل الا اتباعه . فارباب الغنى كانوا مستولين على ارواح العباد الفقرآء بطريقة الرق . فكان هولآء المساكين لدى اسيادهم بمنزلة المُلك ، يتصرّفون بهم كما يهوَون . وقد امسوا في نظرهم كالانعام يحرثون لهم الحقول ويجرّون العربات . واذا هم عجزوا عن الشغل باعوهم او قتلوهم ورموا بجثتهم في الانهار ، او تركوها لتكون فريسة للكواسر .

هذا واذا جرت الطبيعة الى اقصى مجراها ، فلا بد من ان تؤدي بها الاحوال الى ارتكاب الجرم الفظيع وهو ابادة الاخوة بقتـــل الاخوان . سرحوا رائد النظر في تأريخ البشرية ، وتتبعوا ماجريات الامور ، منذ مهد الانسان حتى يوم الجلجلة المشهود ، اي من يوم قتل

هابيل الى موت المسيح ، تروا ، على ممرّ القرون والاحقاب ، نهراً واسعاً طاغياً ، نهراً قد ملأته الدماء ، دماء اخوان سفكتها اخوان . لا بل اقول انه من عقيب يوم الجلجلة حتى هذا العصر ، لم تزل تلك الانهر الدموية متدفقة في كل مكان لم يسد عليه روح المسيح او قد زال عنه . اذا هناك لا يُعرَف للاخوة من معنى ؛ هناك ذريّة قائين قتالة الاخوان . زيدوا على هذا ما يأتيه البرابرة والمتوحشون الذين لا يكتفون بافقار اخوتهم او سلبهم او قتلهم ، بل انهم يرتعون بأكل لحمانهم ، وشرب دمائهم ، وافتراس قلوبهم .

اما الدين المسيحي فهو مبدأ انتشار المحبة الاخوية في البشريّة ، اذ ما كاد يلهب قلوب بعض الافراد يوم العنصرة ، حتى اشتعلت نار الحب متأججة ، وانتشرت في ذلك العالم المتجمد بجليد الانانية . هذا هو الاجيج الذي علا في المعمور بقوّة ذاك القائل : « أتيت لألقي ناراً على الارض ، وما اريد الا اضطرامها . » فحينئذ شهدت البشريّة مشهداً لم ترَ مثله منذ البدء ، وهو مشهد اناس يحبون بعضهم بعضاً دون غرض من اغراض الطبيعة ، اغراض اللحم والدم . راى الوثنيون هذا المشهد ، مشهد تلاميذ المحبة ، وعلى جباههم شعار معلمهم المستولى على البشريّة ؛ فلم يتمالكوا من ان يصرخوا قائلين : « انظروا كيف يحبون بعضهم بعضاً . » هذه هي المحبة الالهية التي القيت على الارض ، وبفعلها تولدت المحبة الاخوية في قلوب جميع أتباع المسيح اله المحبة . ومنذ نشأتها لم تزل ، في كل جيل وقرن ، تأتي بالعجائب الباهرة .

كانت الانانية الوثنية قد القت بين البشر روح الانقسام . اما الاخوة المسيحية فألحدت فألفت بين القلوب . الوثنية افقرت الجمهور ، المسيحية اغنتهم . الوثنية استعبدت القوم ، المسيحية حرّرتهم . الوثنية اماتتهم ، النصرانية احيتهم . الوثنية كانت سبب الانفصال ؛ لان فيها

روح الانانية ؛ النصرانية من شأنها الاتحاد ، لانها مبنية على اساس روح المحبة ؛ وبروح المحبة تتولد الاخوة . مهما كان السبب الخفي لهذا السر ، فهو الواقع الذي ظهر لعيون الجميع في كل مكان ، وهو تأليف كل ما كانت الطبيعة قد فصلته ، تأليف بين الشعوب والاقوام ، والملل والنحل . وعليه فالخاصة والعامة ، الاغنياء والفقراء ، المتمدّنون والبرابرة ، البيض والسود ، اليهود واليونان ، الافريقيون والاسيويون ، الغربيون والشرقيون وجدوا ذاتهم بغتة متخلقين باخلاق واحدة ، متحدين بعرى محبة واحدة ؛ فاخذوا يجتمعون في الولائم الاخوية في الدياميس او في المدن . ولم يعد منذئذ انفصالات بل درجات ؛ لم يبق طوائف ، بل تباينات . ولم يعبر على ذلك نصف قرن حتى سمع العالم باجمعه صوت بولس الرسول القائل : « يا اخوتي ، انتم جميعكم واحد في المسيح . » فحياك يا دين المسيح ، حياك وبياك ! فانت قد جمعت كل ما فصلته الطبيعة ، لانك دين المحبة الاخوية .

كانت الوثنية تبيح للانسان سلب مال الغير للاستغناء . اما النصرانية فمبدؤها ان يغني المرء غيره ببذله ماله . وبهذه الوسيلة قد تحققت على مدى القرون المنفعة الثانية للاخوة . اذ من خصائص الدين ان يحمل الرجل المسيحي على الكمال الادبي بالزهد في الغنى والثروة والمقاومة لروح الطمع الدنيوي بالفقر الاختياري . ومن مزاياه ايضاً انه لا يدفع صاحبه الى هذا الزهد في المال وباقي خيرات الارض لمجرد الزهد ، بل انه يسبغ تلك الخيرات على قريبه المحتاج . فالغاية اذن من الفقر الاختياري هي السعي ورآء مساعدة القريب ، والتفاني في خدمته . وهو مصدر كل الاعمال الخيرية التي لم تزل النصرانية تنشئها ، وهي فخرها . فان كانت الرغبة في مساعدة البائسين لم تزل شديدة في قلوب المسيحيين ، منذ صدر النصرانية ، فالسبب في ذلك هو ان الرغبة في التجرّد والزهد لم تخمد ابداً في قلوب الصالحين .

انه ليضيق بنا المقام ، ان اردنا ان نصف كل ما اتته الاخوة المسيحية من الامور المذهلة في العالم لمناهضة الفقر والبؤس . ولهذا نجتزىء باظهار مصدر هـذه العجائب ، الا وهو قلوب القديسين الملتهبة بمحبة السيد المسيح مؤسّس الاخوة . لانه منذ انفتاح هذه الكنوز الثمينة المكتنزة في جنان الرب الذي قال عنه الرسول المجتبى انه افتقر ، وهو الغني ، لاغنائنا . لم تزل حتى اليوم تتدفّق في أحضان البشرية العطايا الطوعية لاغاثة الملهوفين ، وسد عوز المحتاجين . فحياك ايا دين المسيح ، حياك وبياك . لانك تساعد الفقرآء بالهامك الاغنيآء الفقر الاختياري . حياك ، فانت دين الاخآء ولا سواك .

هذا ، والدين المسيحي ينشىء في قلوب اتباعه رغبة التحرير . فقد كانت قاعدة الوثنية التملك بالاستعباد . فجاءت قاعدة النصرانية مناقضة لها ، اي انها تفرض التعبد لاعتاق الغير . وهـــذا ما اجراه مؤسس الدين نفسه ، هو الذي صار عبداً ليعتقنا من نير العبودية ، ممّا اضحت النصرانية معه دين الافتدآء ، كما ان المسيح هو الفادي . نعم ان هذا السر هو من الاسرار الفائقة الطبيعة ، الا انه مع ذلك قد أثر في النظام الطبيعي تاثيراً بليغاً . على ان السعي في التحرير من الرق الذي وضع اساسه السيد المسيح قد نشأ من ذاته بين المسيحيين ، وأزال كل ما كان قد صدر من مفاعيل الانانية في الجمعية البشرية . ليس هنا من مقام للبحث عن تأريخ مناوءة الاسترقاق ، مما جآء بفضل الدين المسيحي . بيد انه لا يغرب عن بالنا ان في ثنايا ديننا قوة ازالت شيئاً فشيئاً ، وكسرت بطريقة فعّالة شوكة استعباد البشر لاخوانهم البشر . مسلّم ان النصرانية عند ظهورها لم تدفع العبيد الى رفع لوآء العصيان والفتك باربابهم . فان الرب اتخذ لمحق الرق طريقة اخرى ، وهي انه نبّه في قلوب العبيد الشعور بالمقام والشرف البشري ، وازال من نفوس الارباب شدة الظلم والقساوة . اذ انه هو الآله المتعالي ،

هو الاله والانسان معاً قد تمثل في شخص العبيد والموالي، والمهم ادراك كلمة، ما عتمت ان تساقطت معها القيود، قيود العبودية من ذاتها. وهذه الكلمة هي ان «المسيح كل شيء في كل شيء.» اذ كيف يمكن ان يكون بعدُ اناس عبيداً، واناس اربابا، على حين لم يبق في المسيح الا اناس اخوة متحدون بحياة الله. وعليه فما لم يرَ قط، قد شوهد عياناً بعد ان تم هذا السر. وهو زوال الاستعباد. بل قل انه جرى ما هو اعظم من ذلك، اي ان اربابا عرضوا، من تلقاء نفوسهم، على العبيد اطلاق سراحهم، فحلوا بايدي الاخاء المسيحي قيوداً كانت قد كبلتهم بها ايدي الاثرة الوثنية. وحين كان هذا المعتوق يرقى الدرجات الكهنوتية أو ينظم في مصاف امرآء الكنيسة كان يشاهد منظر أجل واشدّ وقعاً في النفوس، منظر ذاك السيد القديم راكعاً امام العبد الذي اعتقه، لينال البركة من يده التي فك سلاسلها باسم المسيح الفادي. فحيّاك! يا دين المسيح، حياك وبيّاك! يا دين العتق والحريّة، حيّاك باسم الأخوة والاخوّة.

بيد ان لفضيلة الاخوّة المسيحية درجة عليا، وطريقة مثلى، الا وهي انها تؤدي بصاحبها الى بذل الذات والتضحية التامة في سبيل القريب. فقد كان سفك الدم اساساً للوثنية، فاضحي بذل الذات بالموت الاختياري لانقاذ الاخوة مبدأ النصرانية. وهذا ما اكمله السيد المسيح، اذ لم يرضَ ان يصير عبداً فقط، بل ان يضحّي ذاته ذبيحة لخلاص العالم. ولهذا قد علّم المسيحيّين ان يرقوا الى قمّة كمال الاخاء، باهراق دمهم حبّاً بغيرهم. فهذا الهيام، هيام النفوس الى قبول الموت للاحباء، قد صدر من المصلوب الالهي ونزل الى قلوب اتباعه. اذ كم وكم من الرجال والنساء، بل من الفتيان والفتيات، أدّوا باهراق دمهم الشهادة للاخوّة المسيحية. وما ذاك الا لان قوة قد انحدرت من علو الجلجلة ودفعت جماهير من النفوس سارت في

العالم رافعة الراية البيضآء ، راية الاخوة ، بازآء فصائل ذرية قائمين الناشرة الراية الحمرآء ، راية قتل الاخوة .

هذا ما قد جرى ولم يزل جارياً في كل زمان ومكان . وهو انه في جانب نهر الدم المسفوك بسيوف الانانية المولدة الموت ، لم يبرح سائلاً نهر الدم المتدفق من المحبة الناشئة عنها الحياة . وفي عهدنا هذا ان شهداء المسيح ليسوا بقليلين . فهم اولئك الابطال الذين يتركون اباءهم وامهاتهم واخوانهم واعزاءهم ويظعنون عن اوطانهم ذاهبين قاطعين المسافات الشاسعة الى بلاد بربرية يتجشمون فيها المصاعب والمشاق ، ولا يعتمون ان يسفكوا دمهم شهادة للحق والدين ، وحباً باخوتهم ومن اجل مضطهديهم . الا يا دين المسيح ، دين التفاني والتضحية ، دين الاستشهاد ، حياك وبياك ! لانك تحمل على قبول الموت لاعطاء الحياة ، انت دين الاخاء لانك دين المحبة . وانت دين المحبة لانك دين الحق الصادر من قلب السيد المسيح ، مصدر المحبة ، وواهب المحبة ، وناشر المحبة ، لانه الاله المسجود له ، اله المحبة .

العلاقات بين الاسرة والالفة الاجتماعية

كثيرة في عصرنا الابحاث ، عديدة الخطب والمحاضرات ، وافرة الجمعيات والمؤسّسات ، التي من ورائها تحقيق الاصلاح في حياة البشر ، افراداً ومجتمعاً . ولقد سمعتم او قرأتم او بحثتم عن مثل هذه الشؤون من مختلف نواحيها . على ان المتوخين الاصلاح – كتّاباً كانوا أم خطباء ، من اهل النظريات ام من ارباب العمليات – كثيراً ما يحصرون ابحاثهم أو اعمالهم او جمعياتهم في ما يرجع الى حالة الفرد او الى حالة المجتمع . ولقد يفوت الكثيرين منهم توجيه النظر او العمل الى عنصر متوسط بين هذين العنصرين . الا وهو عنصر العائلة ، التي منها تصدر الافراد ، ومنها تتكون الالفة البشرية . ولِمَا عليه هذا الموضوع من الخطورة ، ولاسيما في زماننا هذا ، قصدت ان ابحث في هذه المحاضرة عن العلاقات السائدة بين الاسرة والمجتمع الانساني ، بانياً الكلام على ثلاثة اركان ، اسعى في اثبات حقيقتها بما حضرني من الادلة العقلية . وها هي ذي الاركان الثلاثة . اولا : الاسرة اصل المجتمع . ثانياً : الاسرة مثال للمجتمع . ثالثاً : الاسرة حِمىً للمجتمع .

الاسرة اصل للمجتمع

قلت اولا : الاسرة اصل للمجتمع . وهذا يجري بثلاثة طرق : طريق الصدور ، طريق الترقية ، طريق النقل أو التقليد .

ان المؤرخين والجغرافيين يتقصون غاية التقصي ، قصد الوقوف على الينابيع الفيّاضة الصادرة عنها الانهر التي من شأنها اروآء الارضين . على ان ما يفوق ذلك خطورة هو اكتشاف الينبوع الذي تتبجّس منه انهار الاجيال البشرية ، تلك الانهار الجارية فيها بغزارة مياه الرقي والفلاح ، مياه التمدن والكمال الانساني . فما يا ترى هو ينبوع الحياة الاجتماعية ، وما هو سر صدورها ؟ هناك امران ليسا بخفيّين على ذي نهى ، وهما حقيقة محل هذه العين ، وحقيقة تدفّق مياهها المتواصل .

مما لا ريب فيه ان نهر الحياة الاجتماعية خارج من ينبوع العائلة . اذ الاسرة هي العين الزاخرة للوطن ، هي العين المفتوحة دائماً ، دون ان تنضب ابداً . لانها لا تزال تمتلىء من جداول قد شقتها يد العناية شقاً جعلها في مأمن من ان تمسها يد البشر بضر .

غير خافٍ ان المياه الجارية وسط الانهر غير مختلفة عن المياه المتفجرة من العيون . اجل ! ان هذه المياه ، مهما كان نقاؤها عند صدورها عن العين ، فهي عرضة للتغير تغيراً ما ، حين اختلاطها بمياه المجاري الكثيرة . غير ان مياه الانهر ، من باب الاطلاق ، ليست بانقى من مياه سواعدها ؛ ومياه السواعد ليست باشد صفاء من مياه العيون . بناء على هذا ، يسوغ القول بان الحياة الصادرة عن العائلة قابلة التغير . وهذا ما يحدث واقعياً في مجرى هذا الدهر الجارف تياره كثيراً من الفساد . الا ان هذه الحياه ليست في المجتمع باجمل منها في العائلة .

لنفرضنّ هنيهة كل الهيئة الاجتماعية مركبة من عائلات عاطلة عقولا ، فاسدة قلوباً ، مهزولة ابداناً . فمهما كانت الشرائع فيها سامية ، والوسائل المادية متوفرة ، فهي ، دون مشاحّة ، في حالة التعس ، مهيأة للاستعباد ، صائرة الى الانحطاط . لان الافراد الخارجين من العائلة ، وهم فاسدون ، لا يلبثون ان يصبحوا اشراراً وفتاكاً ، بعد

ولوجهم في المجتمع . فبهم تمسي الجمعية منحطة ، والبشرية بربرية .

لكن اعكسوا الأمر مفترضين الجمعية كلها مؤلفة من أسر شبيهة بالينابيع الصافية ، الصابّة في الالفة مياه المبادىء المستقيمة والاخلاق الحميدة ، والدماء النقية . فالذي ينجم عن هذه الحالة هو بشرية سامية جبّارة بالعقول ، سامية جبارة بالقلوب ، سامية جبارة بالدماء ، اي بشرية متدرّجة في مراقي العظمة ، راتعة في بحبوحة الرغد والهناء . وعليه يتابع نهر الحياة جريانه جرياً هادئاً ، دافعاً امامه امواجاً نقية تصبها سواعده . وان امتزج به شيء من الفساد ، فهو ما يزال يتجدّد متنقياً بفضل الصفاء الآتي من ينبوعه .

هذه صورة بسيطة طبيعية للحقيقة الاساسية المتوقف عليها تقدم العالم وسعده وهي : ان الجمعية البيتية هي للجمعية الاجتماعية كالينبوع للنهر . ومن ثم فالحياة في الوطن كالحياة في العائلة .

وذلك ان الاسرة ليست بمصدر الحياة البشرية فحسب ، بل هي فضلاً عن هذا وسيلة لانمائها . اذ انها ، كسائر الاشياء المخلوقة ، قائم نماؤها في مبدأ وجودها . فاذا كانت العائلة مولّدة للحياة ، فهي القادرة ايضاً على توسيعها ، اي انها بعد اعطائها الوجود ، تهب ترقية الوجود .

اذن عبثاً يُسعَى ، خارجاً عن العائلة ، في طلب التهذيب الذي هي صاحبة سرّه . اذ في نظام الطبيعة ليس الا معلمة واحدة قد اقامتها العناية الالهية ، وهي العائلة . الاسرة جمعية أسّست للتربية ، وهي وحدها المستطيعة تأدية هذه الخدمة ، لانها وحدها الشرعيّة .

اما المؤسّسات الاجتماعيّة الاكثر افادة ، والاسمى رقياً ، فهي التي تصون في العائلة هذه الخدمة المتوفرة العوائد . فلا تغتصب ، لمنفعة السلطة القابضة على زمام الحكم ، تلك القوى الطبيعية التي وضعتها العناية في الجماعة العائلية ، لكي يتهيأ بها الرقي الحقيقي للحياة الاجتماعية . وداعي ذلك ان العائلة الحائزة الحقوق والسلطة للتربية

عمل يد الالوهية . واما المؤسّسات البشرية فلا تأتي فعلاً صالحاً الا عند معاضدتها منشآت الله . لان الفئات الحاكمة ليست في نظام الله ، بمدرّبات الحياة ، بل محاميات . الاسرة هي تلك المؤسّسة المخلوقة لتربية وتهذيب الاجيال ، والحكومة معدّة لتصون بقوتها ما تنشئه العائلة بحبها . الوطن يجلّل بستر حماه العائلة ؛ والعائلة تربي تحت سقفها الذرية الناشئة لشرف الوطن والدفاع عنه .

مقام ارباب السلطة العامة سامٍ وشريف . حتى ان اعظم الفتوح واشهرها لا يعادل ، في سبيل رقي العالم ، هذه الحماية التي تقوم بها السلطة نحو الاسرة ، تلك المباءة التي فيها ينبت الوطن وينمو .

أما روح الثورات فلا يدرك هذا الادراك غاية العائلة والسلطة الشرعية . فانه يحلم بسيطرة السلطة العامّة على العائلة سيطرة قهارة . ومن أضغاث احلامه ان للحكومة وحدها الحق في التأسيس والترقية . وكأني بها في نظره ألوهيّة يجب السجود لها والتضحية على مذابحها لحقوق الاولاد ونفوسهم وقلوبهم ، فضلاً عن اهتضام حقوق أهلهم في امر تنشئتهم وتثقيفهم المدني والديني . وهكذا ، بحجة تكريم الجمعية العامّة ، يسعى هذا الروح الشرير في الحط من قدر الجمعية البيتية الخاصة .

اننا لا نجحد الاهمّية النسبيّة لتأثير الجمعيات العامة في انماء الحياة وترقية البشرية . بيد ان هذا العنصر الداخل في تقدم الشعوب ليس الا ثانوياً . اذ ان سرّ الترقي ليس في الاندية والمحافل ، ولا في الاسواق والطرقات ، حيث تجري التظاهرات ، وتثور عواصف المشاحنات والاعتصابات ؛ لكنه في الدور حيث يسود السلام وسكينة الحياة العائلية . ليس هو في ايدي الملوك ، ولا في ايدي المشترعين ، ولا في ايدي الفاتحين . فاين هو اذن ؟ الا اسمعوا ايها الآباء ، وانصتن ايتها الأمهات ، ولتجب ضمائركم الى كلام يرفع في عيونكم مقامكم في البشرية . ان السر العظيم في تهيئة وتكملة الحياة الانسانية هو في داخلكم اي

في نفوسكم وقلوبكم واحشائكم ؛ هو في ايمانكم ومحبتكم ؛ هو في اخلاصكم وبذلكم نفوسكم . الخلاصة هو في تعاضدٍ متناسق بين الملوكية القديرة والخدمة المهتمة اللتين خولتكم اياهما العناية الالهية ، لاكمال الحيـــاة الاجتماعية ، باعلاء الحياة البيتية .

فالعائلة اذن تنمية الحياة كما هي مصدرها . يضاف الى ذلك صفة ثالثة وهي انها نقلها او تقليدها . ومن هذا القبيل خاصةً تعتبر العائلة المؤسسة البدائية للجمعية العمومية ، والعلة الفعالة لتقدمها الاجتماعي .

ان التقليد والتقدم ليسا على طرفي نقيض . لان الترقي ليس في الوقوف والجمود ، ولا في التنقل والتحول . ولذا فليس كل جديد تقدماً ، ولا كل تغيير تحسناً . ان الرقي قائم اولا في جوهر الاشياء القديمة ، ثم في ازدهار وتجدد كل ما لا يبيد . فهو الشباب الدائم لكل ما لا يشيخ ولا يهرم . هو رأس مال التجارة البشرية . هو القيم الاجتماعية المتراكمة على مدى الادهار . هو تمتع القرون التالية بغنى القرون الخالية . هو الارث الذي تخلفه الجماعات القديمة للجماعات الحديثة .

فالتقليد اذن اساس التقدم . اذ بالتقليد تتكون السلالات العظيمة التي عليها تعتمد البشرية . بالتقليدات تثبت المؤسسات . اذ انها تسلم وتورث امجادها وقديم مفاخرها للتي تتبعها .

ماذا يا ترى كان يجري بنا ، في كل حقبة من حقب الدهر ، لو لم نحفظ في حاضرنا ارث ماضينا ، ولو كنا نرفض ونلعن دائماً القديم دون مزجه بالجديد ؟ ماذا يا ترى كان يحل بالتقدم عينه ، لو كان لا ينفك من استئناف عمله ، محطماً بذات يده سلسلة تقاليده ؟ انه لما عاد ، والحق يقال ، رقياً بل انحطاطاً ، ولا اتحاداً ووحدة ، بـــل تفككاً وتجزؤاً ، ولا مواصلة للكيان والحياة ، بل متابعة للتقاطع والممات . اي انه كان يفني ذاته بذاته . ولذا فالبشرية المتجزئة تفقد

حقيقة الرقي والعظمة ، لان فكرة العظمة والرقي هذه تنشأ خاصة من التقليد . وخارجاً عن هذا المحيط لا يشاهد سوى شخصيات ضئيلة ، وانانيّات مستنكرة . ومن هذا القبيل اصاغر القوم الذين ينكرون اصلهم ، مدعين ان كل شيء صادر عنهم . وان هم ادعوا بالسمو ، فسموّهم خليق بالازدراء . لان هؤلاء الجاحدين تلقيهم المجد من امجاد اجدادهم ترونهم في الوقت عينه ساعين في تخليف عزهم لاولادهم وحفدتهم . كل هذا يدلنا على ان في البشر شعوراً غريزياً يوحي اليهم ان التقليد اول عنصر للتقدم . لان التقليد وحده يجلب الى الحاضر عظمة الماضي ، ويخلّف للمستقبل رفعة الحاضر .

فان اردنا ان نخوّل الجسم الاجتماعي كمال الحياة ، ونسيّر الحياة سيراً حثيثاً في سبيل الرقي الحقيقي ، تحتم علينا — مع قبولنا بالتغيرات الناشئة من البيئات الزمانيّة والمكانيّة — ان نحافظ على سياق التقليد في باب المبادىء والاخلاق والمؤسّسات .

والحال ان ما يصون غاية الصون تقاليد البشريّة هو العائلة . لان التقليد ملازم لروحها . وكما ان التقليد ترقٍ ، فالاسرة تقليد . ان الحياة الصادرة عن العائلة ميمّمةً شطر الالفة الاجتماعية ليست بموجة منفردة تعبر فتتلاشى ، بل هي جملة امواج متتابعة ، متلاصقة ، متدفقة على مدى الازمان . هذه الحياة من جوهرها تقليدية ، اي انها منوطة بالماضي الذي يسبقها ، وبالمستقبل الذي يتبعها ، وبالحاضر الذي يسير معها .

والحال ان هـذا الشأن شان المرء في عائلته . فهو بين الاجداد الذين سبقوه ، والحفدة الذين يلحقوه . وما هو في حاضره سوى حلقة في هذه السلسلة البشرية التي تمتد بها الحياة في فضاء الادهار المتعاقبة .

في كل عائلة ثلاثة تقاليد : تقليد المبادىء الذي يغذّي الحياة العقلية ، تقليد الاخلاق الذي يقوّي الحياة الادبية ، تقليد الدم الذي ينشّط الحياة البدنية .

الاسرة مثال للمجتمع

رأينا العلاقة الاولى للجمعية البيتيّة بالجمعية العمومية ، وكيف انها متوقفة على الحياة الصادرة بالولادة ، والنامية بالتربية ، والمنقولة بالتقليد. فلنحاولن الان الاثبات ان الاسرة مثال للالفة . لكن من المتحتم بادىء بدء ان نفهم بان المثال لا يعني تحول الشيء وامتزاجه بنموذجه . فانه من المتعذر تحقيق الحياة العائلية بكل خواصّها ومتطلّباتها في الهيئة الاجتماعية ، الى حد ان تضحي الالفة عائلة عظمى ، تتّسم باسم الجمهورية الاجتماعيّة الاخويّة ، على ما توهمه ارباب الفلسفة العصريّة الخيالية .

اذن ليكن مقرراً ان من شأن العائلة ان تبقى عائلة ، والالفة ، ألفة ؛ اي بتمييز الواحدة عن الاخرى ، واستمرار الاولى مثالا للثانية. ومن تتبع في خلال القرون المتعاقبة حالة الاسرة والالفة ، وقف على حقيقة واضحة وهي انه كلما قويت أو تزعزعت العائلة ، قويت او تزعزعت الجمعية . وهذا التآزي الواقعي ، وهذا التلازم البيّن لما يؤيد ما تتوخى اثباته من ان المؤسّسة العائلية مثال للمؤسّسة الاجتماعية .

للعائلة نظام يتعذّر على البشر تغييره ، لان واضعه الله عينه . كيان الاسرة بسيط ككيان الاشياء السامية . فهي مركبة من ثلاثة عناصر متّحدة اتحاداً متناسقاً ، اي الأب والأم والابن ، أو الملِك والوزير والرعيّة . مما ينشأ عنه السلطة والطاعة والخدمة : سلطة غير معارضة ، طاعة ودّية ، خدمة مخلصة . العائلة ، بنمط تكونها هذا ، حريّة بان تكون نموذجاً لكل جمعية حسنة القوام . وحالتها هذه بمثابة الخلاصة لكل حق اجتماعي . وهي مدرسة للادارة المثلى ، لا بل تحفة لسائر المقامات والمؤسّسات .

من الشروط الضرورية لقيام كل جمعية كاملة ان تكون فيها

سلطة غير معارضة ، اي غير مصبحة هدفاً للمناقشات ، ومن ثم للانكار. هذا لا يعني ان كل سلطة من ذات وضعها غير قابلة للاعتراض أو الجدال . لان هناك فرقاً بين الحكومة والسلطة . وهذا لا يدل كذلك ان كل فعل من افعال السلطة — حتى السلطة الشرعيّة — من ذات طبعه بمنجاة من كل احتجاج . اذ هناك تباين بين جوهرية السلطة ومزاولتها . وعدم قابلية مسّ الواحدة لا ينجم عنه عدم قابلية مسّ الثانية . وغير خاف ان البحث هنا قائم على الكائن الادبي ، اي على نفس السلطة ، لا على قوامها المادي . فان السلطة ليست قوة مادية ، بل قوة ادبية مستندة الى العقول . ومُلكها راكز على الحق ، وان امست بفعل مختلف الظروف عزلاء . والحال من اللازم اللازب ان تكون السلطة التي هذه صفتها غير ممسوسة بضر الاعتراض ، أو الاحتجاج ، او الانكار .

مما لا شك فيه ان المعارضة لجوهر السلطة لسيف بتّار يطعنها في الصميم فيبيدها . اذن اما ان تكون السلطة بمعزل عن كل مناقشة ، والا فلا وجدت قط . اذ انها لا تعتبر في الوجود لمن يستبيح تعمد الشك في قوتها . ثم لقد تستمر السلطة سائدة احياناً بقوتها المادية القاهرة ، بيد ان قوتها الادبية تأخذ بالزوال في اول ساعة يتجرأ المرء على الارتياب في حقيقتها . اذ انها لا تعود سلطة محترمة ، بل سلطة قاهرة ليس الا.

لاجل هذا فكل السلطات المدنيّة ، اذا شاء اصحابها انزالها منزلة معتبرة ، نافذة ، اتفقوا مُجمعين على جعلها فوق كل جدال ومعارضة ، صيانةً منهم لمقامهم ، ودوام حكمهم . لان من الامور الراسخة في عقول البشر ، والمؤيدة بشهادة الاختبار ان السلطة المستهدفة للارتياب والاعتراض سلطة آئلة ، عاجلاً ام آجلاً ، الى الزوال والاضمحلال .

ومما يتطلبه مجرى الامور الطبيعي ان لا تتزعزع سلطة فتتلاشى وحدها . لان السلطات المقامة بارادة الله لتدبير البشر — شاء الناس ام

أبوا – قائمة على سنّة التناسب والتماسك والتكاتف . ومثلها مثل الاشجار المنتصبة في الغابات . فانها متصلة العروق ، متشابكتها هذا التشابك ، حتى انه لو زعزعت العواصف احداها ، تزعزعت معها كثيرات من مجاوراتها . فكذا القول في السلطات الادبية . فانها ، لتمازجها واشتباكها ، تقوم فتدوم معاً ، وتتضعضع اركانها ، فتتساقط ، فتتلاشى معاً . واذا كانت المنتابة بالاهتزاز والسقوط من اهم تلك السلطات واسماها ، فعندئذٍ يحدث في العالم الاجتماعي من الزلازل اهمّها ، ومن النكبات ارعبها . وهذه هي افات عصرنا هذا ، الذي فيه شبت ولا تزال تشب نيران الثورات المتتالية الناشئة عن الارتياب والاحتجاج على السلطات الشرعيّة . ومن ثم نجم السعي ورآء هدم بنيانها وتقويض اركانها .

من السلطات التي هاجمتهـــا الثورات العصرية هجوماً عنيفاً هي السلطة العائليّة . فما كان منها الا ان اضعفت قواها ، واهتضمت حقوقها وامتيازاتها . وقد دفعتها الجرأة الوقحة الى اسقاط التاج الملوكي من على هامتها ، فكانت المغبة الوخيمة ان الفوضى ضربت اطنابها حيث شنّت الثورات غاراتها ؛ كما هي الحال اليوم في بعض البلاد الغربية حيث تزعزعت ، فتضعضعت ، فتلاشت ، أو كادت تتلاشى الحياة العائلية . على ان الطبيعة البشرية ، بل قل العناية الالهية ساهرة على هذا المعقل القائم على أسس الغريزة الطبيعية ، صداً لهجمات هذا العدو الهائل ، وابقآءً للسلطة الابدية مثالا للسلطة الشرعيّة ، التي هي نظام وشرف الهيئة الاجتماعية .

العنصر الثاني لكل جمعية منتظمة ومنسقة هو عنصر الطاعة الودية . وسرّ هذا الاتفاق الفعّال بين السلطة والطاعة ليس في الخوف الخانع صاحبه تحت نير الطغي والبغي ، ولا في العبودية الشائنة ، ولا في الجبن المذل ، بل سره في الحب الدافع المرء الى محبة الآمر يدفعه الى محبة الآمر . هـــذا هو الفن الاسمى في الادارة ، والمهم لديمومة الجماعات

والهيئات . فهو ليس بقائم اذن في انشاء سلطة مخيفة ، بـــل سلطة محبوبة ، اذ ما المنفعة من السلطة القاهرة والتاج الهائل ، اذا كانت القلوب نافرة ، والنفوس ماردة ؟ ان المرؤوسين ليسوا بدواليب تدور بقوة الة صماء ، بل هم خلائق ناطقة حرة ، سائرة في سبيل نظام حي . زبدة القول ان السر الواجب على الرؤساء معرفته ، والمشكل المقتضى حله هو كيفية تحبيب السلطة ، وجذب القلوب ، باقامـــة قسطاس العدل ، واعلاء منار الحق ، بطريقة تقنع ، فتلذ ، فتطرب .

يظهر هذا السر بادىء الأمر سهل الاكتشاف . الا انه بالحقيقة المشكلة المعقدة المستعصاة على ارباب الحل والعقد . اذ من اشق الامور الجمع بين المودّة والسلطة ، بين المحبة والقوة . وهذا ما به يتجلى ضعف الذين لهم القدرة على كل شيء في العالم ، سوى امر واحـد ، وهو معرفة اكتساب المحبة . ومما يزيد في صعوبة جلب المحبة ، ان المودة في ادارة الشعوب شيء لا يعتاض عنه بشيء آخر . اذ ان اول حمى تحتمي فيه السلطات الثابتة ، الجالبة السعادة ، هو حمى المحبة والامانة ، والاخلاص .

وهذه الحماية المقدسة قد اقامتها العناية الالهية في معقل الملوكية العائلية . فان الولد الذي اسعده الحظ فاستمر محافظاً على فطرته الصالحة ليجدُ في قلبه المحبة طبيعية لسلطة ابيه آمره ، حتى حـين لا يأمره . فتدفعه الغريزة ، دون ارشاد خارجي ، الى محبة السلطة ، من غير ان يخالج فكره ادنى اعتراض عـــلى جوهرها ، فيرى الطاعة شرفاً عائلياً ، هو شرف الانجال الكرام والذرية الطيبة العنصر . وقد وضع الله في طبيعة الاب والابن سر هذا التبادل المتناسق : اي من الجهة الواحدة حق صريح للاب في الامر ، ومن الجهة الاخرى حاجة شريفة في الابن للطاعة . وهذا الحق وهذا الاحتياج يجدان اتفاقهما في حضن

المحبة الحاوي في داخله السلطة والطاعة . وهذه هي الصورة المثلى للهيئة الاجتماعية الثابتة الاركان .

وكمال هذا المثال ، مثال العائلة للمجتمع ، متوقف على ان يضاف الى عنصري السلطة والطاعة العنصر الثالث ، فهو الخدمة المخلصة . فان الله عز وجل قد اقام في العائلة بين الآمر والمأمور احسن واقـــدر الوسطاء الا وهو الشخص الباذل نفسه ، اي انه وضع بين الاب والابن الام المرتبطة بكليهما معـــاً ، والواجدة في قلبها لكليهما حباً جماً ، واخلاصاً صحيحاً .

في كل مملكة منتظمة نرى بين الملك الأمر والرعية المأمورة قائماً الوزير المقصود من مقامه التوفيق بين الرئيس والمرؤوسين . ولذا كانت الصفة الملائمة ان يتحلى بها صفة الام ، اي المحبة المولدة الخدمة باخلاص ، وبذل النفس في ما يعود الى مصلحة الطرفين .

العائلة اذن مثال حي للهيئة الاجتماعية بعناصرها الثلاثة ، اعني الأب المتجلية فيه السلطة الشرعية ، والابن المتلائلة فيه الطاعة الودية ، والام الساطعة فيها الخدمة المخلصة .

وكلما زادت الجمعية تشبهاً بالعائلة ، زادت كمالا . وكلما كانت العائلة محققة فيها الصفات الخاصة بهذه العناصر الثلاثة ، قدرت ان تعد للمستقبل ذراري راقية وجمعيات كاملة . والعائلة المزدانة بهذه الميزات تنزل منزلة دار للاختبار والاعداد ، وتلقين الحياة النامية في البيت والمتسعة في الوطن .

وهذا ما يسهل عمل اولياء الامور ، فانه من الهين قيادة اولاد حسني التربية ، يجدون امراً طبيعياً ان يعملوا في الالفة العامة ما قاموا بادائه في الالفة البيتية الخاصة ، اي مزاولتهم الفضائل الاجتماعيـــة : الطاعة والمحبة والاحترام . وبهذه الخصال الحميدة ، والاعمال المجيدة ، يصبحون ابناء الوطن الحقيقيين ، لكونهم اولاد العائلة المحبين ، وبهذا

يعدون ذاتهم ليكونوا ليس شرف الجمعية ومجدها وحسب ، بل قوة لها وحمى . وهذه هي العلاقة الاخيرة بين الاسرة والالفة ، فلناخذن بالبحث عنها .

الاسرة حمًى للمجتمع

ان كان من الحق ان يقال بان الوطن يحمي العائلة ويدافع عنها ، فمن الأحقّ ان يقال بان العائلة تحرس الوطن وتذبّ عن حياضه . لان محبّة العائلة ، كما أفرغها الله في قلب الانسان ، لهي قوة لا تقهر ، وسور حصين يصون الجمعية المهدّدة بهجمات الاعداء من خارج ، والمنتابة بالمحن والنكبات من داخل .

ان اول شرط ضروري لحمل ابناء الوطن على صيانته والدفاع عنه هو وجوب تعلقهم به ؛ وان يكون هذا التعلق كتعلق الحياة بشيء حي . فان لم يكن بين المرء ووطنه رابطٌ حي ؛ وان لم يرتبط به ببعض الاصول ، او بشيء من العروق ، فلا يكون هذا الرجل وقتاً من الاوقات قوة للوطن وحمىً . ان ما يولّد القوة للوطن والحراسة له هو الحب الخاص لهذا الوطن اي الوطنية . فالمهم اذن معرفة ما هي هذه النقطة الحيّة ، او ذاك الموطن الحساس ، الذي به يتعلق الانسان بهذا الشيء العذب الجذاب الذي ندعوه « الوطن » .

الوطن ! الوطن ! ما ألطف هذا الاسم ! ما احلاه ! ما اقوى سحره ! ما اشدّ أثره في الالباب الحساسة ! اننا عند سماعنا باسمه تهتز كل جوارحنا وتطرب قلوبنا . أجل ! كلمة عسجدية ، كلمة سحرية كهربائية هي كلمة الوطنية . كلمة تتيه في عجائب معانيها العقول الرفيعة ، وتثلج لحسن اثرها النفوس السامية ، وتنشرح بهجة وحبوراً

القلوب الرقيقة . لكن من اين هذه الجاذبية العديمة المثال ، وهـذه البهجة التي يعجز عن وصفها كل لسان ؟ وما هذا الذي نحبّه في حقيقة هذه الكلمة ؟

أمياهُ العيون ، أم مجرى الانهار ، ام عظمة البحار ؟ أنضارة المروج ، أم اعماق الوديان ، أم شموخ الجبال ؟ هل الارض التي تطؤها اقدامنا ، أم السمآء التي تنظرها عيوننا ؟ هل الهوآء الذي نستنشقه ام النور الذي نستضيء بـه ؟ لا شك ان للاحوال الطبيعية ، والظواهر الجوية من الأثر البالغ في نفوسنا ، وعقولنا ، وقلوبنا . اجل ! لا نجحد ما تفعله فينا مشاهـد الوديان ، والسهول ، والجبـال ، وصفآء المياه والزهور والظـلال ، ونقآء الهوآء وبهـآء السمآء وتألق الانوار . فان هـذه العناصر كلها تتحد فتمتزج في مجموعة الحقائق والتخـيّلات المركب منها حب الوطن . لكن في ضمن جميع هذه الحقائق حقيقة واحدة فـتّانة ، تفرغ الحياة والجمال والبهآء في هذه المناظر والعناصر ، الا وهي « حقيقة العائلة »

مفتاح المحـبّة الوطنية المحبة الابويّة أو العائلية . اذ الابوة قوام الوطنية . حتى ان الغربيين اشتقوا اسم الوطنية من الابوة . اذ كلمة Patrie الفرنسية ماخوذة من اللاتينيه Terra patria اي الارض الابوية ، أو بلاد الآباء والاجداد . وبهذا المعنى لفظة Father land الانكليزية ، التي تعريبها : بلد الآباء ؟

فكل ما يظهر في عيوننا محبوباً ، جذّاباً ، فـتّاناً في الوطن ، انما هو صادر عن المحبة العائلية . وبالحق ، ان طاب لنا هوآء الوطن ، فذاك لاننا تنشقناه اول مرة في بيوت آبائنا . وهذا الميراث الوطني لا يعز علينا الا لاننا فيه نجد آثار آبائنا واجدادنا . وان كانت هذه السواحل ، وهذه السهول ، وهذه الوديان ، وهذه الجبال ، وهذه الانهر ، وهذا البحر ، وهذه القرى والمدن تبين ساحرة في عيوننا ، فما السبب

في ذلك الا لاننا بين ظهرانيها قد شعرنا بملاطفة امهاتنا ، ووقعت على انظارنا اول ابتساماتهن . أجل ! في كل مظهر من مظاهر الوطن قد عرفنا رقة القلوب الابويّة ، وحنان الاحشآء الأمّيّة . اذن يحسن بنا ترداد القول بان المحبة الوطنية نتيجة المحبة العائلية ، وان هذه المحبة الاهليّة ، بنموها وتوسعها ، تضحي المحبة الوطنية .

من هذا ينجم انهم على ضلال مبين اولائك الذين يدعون ان حب العائلة مناقض لحب الوطن . وحجتهم الواهية ان الحب الاهلي يحصر في نطاق ضيق قلب الانسان الواسع . لكن هل يا ترى ان الزهرة تقلّ الرائحة الفائحة منها ، لكونها راكزة في محل معين من الارض ، منه تستمد الحياة والنضارة ؟ اولا تفتقر محبة الوطن للنمو — كغيرها من المحبّات — الى ان تغرس في تربة ملائمة ، لتمدّ فيها عروقها ؟ أو لم يكن في وسع الله — هو الذى صنع كل شيء بنظام واتقان وعذوبة — ان ينشىء بين جاذبيات محباتنا نظاماً وسياقاً ، كما انشأ ذلك بين جاذبيات العناصر الكونية ؟ فعلى هذا المنوال لا نجدن تنافراً أو تنازعاً بين المحبة التي تربطنا بالعائلة وبين المحبة التي تربطنا بالوطن . والعامل في ذلك نلفيه في قلب الانسان وحكمة الله ، ونظام الكائنات . زيدوا على هذا انه كما ان هناك محبة للذات مقبولة مشروعة في محيط محبّة العائلة ، فكذلك محبة العائلة تحيى وتنمو ضمن محبة الوطن . والمحبة الوطنيّة تتوسع ممتدة في مجال المحبة البشرية . وما ذلك سوى سلسلة جميلة تنزل من قلب الله ، عن طريق الخلائق ، جاعلة كل الكائنات الحية في توازن ووحدة معاً ، رابطة اياها بمركزها العام .

فقد ضل اذن من تخيل وطنية قائماً بنيانها على ردم العائلة . اذ على اخربة المقدسات الشرعية لا ينشأ سوى شيء واحد ، وهو البربرية . فان اضمحلت العائلة ، او تلاشت محبتها من القلوب ، فلا ينجم عن

ذلك الا وطنية معدة للخراب . وشبهها في البيئة الاجتماعية شبه المسوخ في البيئات الكونية . وكل وطنيـــة لا تجري في قلب الانسان بعد صعودها من ينبوع الوالدية هي وطنية كاذبة ، مفرطة ، عنيفة .

فاذا اردنا اذن وطنية حقة خالصة ، قادرة على الدفاع عن الوطن ، فلنجعلها تصدر عن المصدر المزدوج : مصدر قلب الاب ، ومصدر قلب الام . العائلة وطن في الوطن . العائلة وطن الذكريات . العائلة وطن الارواح والقلوب . لا بل هي الوطن بعينه محصوراً في المركز الذي يبقى المرء متعلقاً به تعلقاً لا وراءه تعلق ، في هذا المركز الذي جلب حبه الاول يستمر الرجل مرتبطاً بالوطن ، مشتركاً في افراحه واتراحه ، وفي امجاده ونكباته . في هذا المركز يضحي كل ذي شهامة ومروءة لوطنه سيفاً وترساً ؛ جندياً في الحرب ، جنديـــاً في السلم . وهكذا توثق العائلة المرء بالوطن بوثاق لا يقطعه لا الاضطهاد ، ولا النفي ، ولا البربرية .

العائلة اذن تعد للمجتمع مدافعين ابطالا ، يعتدون الموت في سبيل الوطن واجباً مقدساً . لانهم تعلموا ان يحبوا ويدافعوا عن هـذين الشيئين المقدسين المحبوبين مع الوطن ، وهما البيوت والمعابد . اذ ما الموت من اجل الوطن ؟ ان لغات العالم وغرائز الشعوب تجيبنا قائلة : هو الموت من اجل المعابـــد ، اي في سبيل الدين ؛ ومن اجـــل البيوت ، اي في سبيل الاهل والاقارب .

وان اضفنا الى هذين الشيئين شيئين آخرين ليسا باقـل حرمة ، وهما المهود حيث تحمى الصبوة ، واللحود حيث يحترم رفات الاجداد ، لوجدنا كيف يَربط رباط العائلة الانسان بالجمعية . انزعوا فجأة من بيننا الدور ، والمياكل ، والمهود ، واللحود ، فاي علاقة تبقي بين المرء والوطن ؟ وماذا يحمله على الدفاع عنه والموت من اجله ؟ لا شيء . ان الوطن يفقد قوته بفقدانه رباطه . وعليه فالويل ثم الويل للشعوب التي يزداد

فيها الناس الذين ليس لهم عائلات يدافعون عنها ، ولا مهود يحمونها ، ولا مقابر يحترمونها ، ولا معابد يصلون فيها . اذ الرجل الذي لا اسرة له ليس له ما يربطه بالوطن . اما الرجل ذو الاسرة فهو متعلق بالوطن بابائه وبامراته وباولاده ؛ متعلق بماضيه وحاضره ومستقبله ؛ متعلق بمدافنه ومهوده ومعابده ، مرتبط خاصته ببيته الذي تسكنه عائلته جمعاء .

فترونه يقف بين تلك المهود العزيزة واللحود المقدسة . والدار التي فيها احب اباه وامه ، والهيكل الذي فيه عبد ربه ، فينتظر — — والسلاح بيده وبذل النفس في قلبه ، والشهامة على محياه — كل عدو تحدثه نفسه بالهجوم على وطنه . وان سقط في ميدان الحرب ، فانه يحبو بشديد العناء ، الى ان يضطجع عند عتبة بيته ، ليموت موت الابطال السعداء ، جاعلاً من جثته سوراً اخيراً يحمي به وطنه ، كاتباً على ثرى هذا الوطن العزيز المقدس بحروف من دمه ، هذه الحقائق السامية التي اثبتناها في هـذه المحاضرة ، والحرية بان تكون شعاراً للنفوس الابية ، والقلوب السخية ، ومخلصي الوطنية . وهي « العائلة اصل للمجتمع ، العائلة مثال للمجتمع ، العائلة حمى للمجتمع . فتأسيس الاسرة تأسيس الوطن . ترقية الاسرة ترقية الوطن . نجاة الاسرة نجاة الوطن . الكماليات العائلية كمالات سائر البشرية . »

الاخلاق والمعارف

عصر رقي هو عصرنا السائر في سبيل الكمال ؛ لانه سائر حسب سنة الله في خلقه . على ان الرقي رقيان ، رقي مادي ، وهو تكمل المحسوسات ؛ ورقي ادبي ، وهو الرقي البشري الحقيقي . وهذان الرقيان مستندان الى طبيعة الانسان المركب من المادة والروح . الا ان بينهما تفاوتاً لا مندوحة من وجوده ، لكون النفس اشرف من الجسد. ولذا مهما علا التقدم المادي وسما ، فهو ادنى من ان يرقى الى درجة التقدم الاول والاهم في حياة الانسان . لان التقدم الأمثل هو التقدم البشري ، اي تكمل البشرية ، بكونها بشرية ، وبصفتها البشرية ، وباعمالها البشرية . وهذا لا يعزب عن ذي نهية .

بمعزل عن ترقي الماديات ، يتوق البشر الى ترقيات اعلى واشرف ، هي له بمنزلة العلّة للمعلول . وذلك لان الترقي المادّي انما مصدره التقدم العقلي ؛ حتى انه كلما قدر الانسان أن يرقى في مادّياته ، بالاختراعات الباهرة ، والاكتشافات الخطيرة ، لو لم يتوصل الى ترقية معارفه المنتجة هذه العجائب والغرائب ، التي لم تدُر في خلد اسلافنا ، وهي عائدة بالفائدة الكبرى علينا وعلى اخلافنا . ففوق هذا الرقي المادي هناك ترقٍّ طالما تاق اليه الانسان في كل عصر ؛ وقد نجح فيه غاية النجح في عصرنا هذا المدعو عصر النور اي عصر المعارف. اما المعارف فيمكن حصرها في ثلاثة ضروب : المعارف النظرية ، المعارف الفنيّة ، المعارف الاجتماعية . فكما قلنا في شان التقدم المادي ، يخلق بنا القول في شأن تقدم المعارف ، اي ليس من ترقٍ حقيقي

فيها ولا فائدة تجنى منها ، لا بل لا ينجم عنها سوى المضار والانحطاط للبشرية ، ان لم تكن مقرونة بالتقدم الادبي ، اعني الصلاح في الاخلاق. وعليه نبسط هذه القضية التي غاية الخطبة اثباتها وهي . لا تقدم في المعارف البشرية ، بدون التقدم في الاخلاق الادبية . ونقسم الموضوع الى ثلاث ابواب . نسبة الى انواع المعارف الثلاثة .

الاخلاق والمعارف النظرية

اول رقي يتوق اليه الانسان في عصرنا ، فوق الرقي المادي ، هو الرقي العقلي . لان العقل نور للانسان ، ولذلك وجب ان يتقدم نبراسه امام المرء ، ليتمكن من السير في سبيل الرقي الحقيقي . وبما ان العقل — بما فيه من العلم — نور ، فمن شأنه ان يدل صاحبه على مصيره ، والغاية المتوخاة من حياته ، ويعبّد امامه الطرق المؤدّية الى غيره من التقدمات . فاذا كان الامر كذلك ، نقول : بدون التقدم الادبي ، ليس من تقدم حقيقيّ في العلم . التقدم العقلي هو السير في سبيل الحق ، والتقدم الادبي هو السير في سبيل الخير . والحال ان من اراد ان يقطع شوطا شاسعاً في طريق الحق ، تحتم عليه ان يبلغ حداً قصياً في جادة الخير . ومن شأن العقل ان لا يتحد بالحق اتحاداً متيناً الا اذا كانت الارادة متّصلة بالخير اتصالا محكماً . وكلما ازداد في النفس البشرية تسلط الضلال والشر ، تضاءل نور الحق وتلاشت قوى الخير. ومتى زالت الاستقامة من الاعمال ، بادت الاصابة في احكام العقل . وعليه ففي وسعنا ان نقول نظرياً دون مغالاة ان الانسان لا يستطيع ان يكون عالماً حقيقياً ، ان لم يكن فاضلاً تقياً . والسبب في ذلك ان العلم الكامل قائم على أركان معرفة الحق ومحبة الخير . ومهما كان

نبوغ المرء فائقاً عجيباً ، فان لم يكن هو في شيء من الصلاح ، فلا قدرة له ان يصبح رجل حق . نطلق القول نظرياً ، لاننا لا ندعي ان الرجل الخالي من الفضل عاجز عن ادراك ادنى شيء . فقد يمكن ، دون فضيلة ، التعلم واكتساب شيء من الحقائق . لكن ما هي هذه الحقائق ؟ هي حقائق مادية ، مشتتة ، لا رابط يربطها . اما الحقيقة الثابتة المطلقة ، الصادرة عن رب الحق ، ومصدر كل حق ، فهو عطل منها ، وقصى عن الوقوف عليها . اجل اننا نشاهد في العلم — قل العلم المعرّى من كل فضيلة — رقياً محسوساً . لكن ما هذا التقدم العلمي ، دون التقدم في الاخلاق المحمودة ، وما هو عمله ؟ عمله عمل العلم المتجسم فيه روح الشر ؛ فلا ينشىء الا ما ينشىء هذا الروح الرجيم ، وذلك لان ابليس شرير ومطبوع على الشر . ويا لشره هذا ! فالعلم او النور الطبيعي فيه يضحي قوة لاصدار الظلام . وهذا مثال مطابق كل المطابقة لرقي العلم في وسط انحطاط الاخلاق . لان صانع الشر يبغض النور ؛ ولا لذة له الا في اخفاء الحق تحت ظلمات الضلال المدلهمة . وما يقال في ذا الشان عن الافراد يطلق على الجماعات . فاذا كان الامر كذلك ، فماذا يا ترى يكون مصير العلوم ؟ الجواب هو ان هذه العلوم تحيد عن سبيل الصواب ، وتبتعد عن غايتها . فعوض ان تكون محجة هداية ، تصبح ببداء غواية . الفلسفة ، علم الحق ، تستخدم وسيلة للشك والانكار ؛ درس الطبيعة يمحو درس النفس ؛ معرفة العالم تحجب معرفة الخالق ؛ علم الماديات يخنق علم الروحيات ؛ التاريخ عينه ، سجل الحق ومقرره ، يمسي الة للكذب . الخلاصة نرى كل شيء سائراً في سبيل التضليل . ولذا فالعياذ بالله من العلماء الخالين من الفضيلة ، والفلاسفة العديمي الذمة ؛ لان الشرير الجاهل لا يكون الا شريراً ؛ اما الشرير العالم فهو ضربة ، بل نقمة على البشرية ؛ وهو عدو الحق ، بل هو قوة شديدة لنشر الضلال .

دونكم على سبيل المثال رجلًا رقي معارج المجد والشهرة بفضل ما بثه من التعاليم المعوجة . الا ان ذكاء هذا العبقري ، عند تقدمه في العمر ، قشع عن بصيرته برقع الغرور ؛ فظهر له غيّ شبابه ظهوراً لم يعد له معه للشك مجالا . الا ان صاحبنا قد اودع هذا الضلال في كتبه ؛ وعليه قد بنى مذهبه ؛ فاضحى عنواناً لمجده وصيته ومقامه في مصاف العلماء ؛ وعليه متوقف عزه اليوم ، وخلود ذكره في المستقبل . فاذا كان هذا الرجل خلواً من الفضيلة ، والاستقامة ، والشجاعة الادبية ، نراه بدل ان ينادي على رؤوس الاشهاد من معاصريه ، مقراً بغلطه ، متلافياً تواصل شر اعماله ، يدع الجمهور يتشربون من من مصنفاته سمّ الضلال ، فيموتوا موتاً ادبياً ؛ كل ذلك خشية منه على شهرته الباطلة . وذنبه هذا شبيه بذنب ذاك الطبيب الذي ، مع علمه بسامّية بعض العقاقير ، يترك الناس تستعملها ، فتبيد بما فيها من السم الزعاف . وعليه فاذا اراد الله انزال القصاص في الامم المتمدنة تمدناً ملوماً يسلط على عقول الجماهير طغاة العلم المكرة ، وبغيوم هولاء المنافقين المتشحين بضياء العلم الكاذب ، يحصل في جو العصور المدعوة عصور النور ظلمات وظلمات قاتمة . فيرى حينئذ امراء النهى ، ملوك هذه الظلمات ، يقودون الشعوب المغرمين بهم ، والمشيدين بذكرهم ، الى حافة هوة الضلال والفساد التي لا تعتم ان تتدهور فيها الالفة جمعاً . وهناك الطامة الكبرى ، وقانا الله من شرها .

الاخلاق والمعارف الفنّية

الرقي الثاني المنتظم في سلك التقدمات البشرية هو رقي المعارف الفنية . فان الفن ، والحق يقال ، مظهر من مظاهر الانسانية ؛ به يسمو

الفنان ويتوق الى تحقيق المثال الاعلى الساطعة اشعته على قريحته . والفن عنصر من عناصر الرقي يولد في النفس اشواقاً تحلق بها في فضاء الكمال . فماذا يكون من الفن لو كان قاصياً عن حميد الاخلاق ؟ كما قلنا عن العلم نقول عن الفن . بدون الترقي الادبي ، يتوقف الترقي الفني ؛ لا بل يتدهور في دركات الانحطاط . ان الغاية من الفن اظهار الجمال . والجمال موضوع الحب ، على ما جاء به افلاطون الحكيم . فالحب اذن من اهم الامور للفنّان في مزاولة اعمال فنه . ومن البديهي ان يحب المصوّر المثال الذي يقصد تحقيقه ، والجمال الذي ينوي اظهاره . وعليه فالفن يتطلب قلباً مغرماً ، فضلاً عن القريحة الوقادة والنظر النافذ . حتى ان المدعوّين الى المهن الفنّية يُعرفون بهاتين العلامتين الفارقتين وهما : نور النابغيّة الساطع على جباههم ، وعشق الجمال المنطبع رسمه في افئدتهم . ففي كل طُرفة من طُرف الفن نرى عجيبة من عجائب الحب ، بمعزل عن آية من ايات النبوغ . هذا ولكي يشغف المحب بالجمال الحقيقي يتحتم ان يكون حبه حباً مشروعاً ، حباً ذا نقاء وعفاف ، حباً موافقاً لمبادىء الفضل والصلاح . الفضيلة والفن رفيقان لا يفترقان ؛ والرذيلة والفن ضدان لا يجتمعان . لان الفضيلة نظام ، والرذيلة اختلال في الحب . وموضوع الحب الجمال الذي يعشقه الفنان . مما ينجم عنه ان الرذيلة هي العقبة الكأداء في سبيل الرقي الفني . والرجل الذي هذه حالة لبه يعجز عن ان يشغف بالجمال الامثل الذي من شانه ان يلهب جنان الفنانين العظام ، ذوي القدرة الفريدة على ايجاد الطرَف الغنية العجيبة .

ومن هذه الفلسفة ، فلسفة الفنون ، يجدر بنا ان نستنتج بان التقدم في الفن متعذّر دون التقدم في الاخلاق الفاضلة . اننا لا نعني بذلك ان الرجل الخالي من الفضل عاجز كل العجز عن وجود الجمال في الاشياء وتحقيقه في مصنوعاته . لانه كما ان الرجل الشرير ليس

بمحروم من كل معرفة للحق ، فالرجل الفاسد ليس بعارٍ من كل قوة لادراك الجمال في الفن . اجل ان التأريخ يخبرنا عن رجال كانوا آية في المهارة الفنيّة مع خلوهم من الفضل وحسن السيرة . الا ان هؤلآء لم يكونوا في غاية الفساد ، ولم يكن شرهم ناتجاً الا عن ضعفهم الادبي. لكنهم مهما كانت صفتهم ، لا يخرجون من حيّز الشذوذ عن القاعدة المطردة المستندة الى الطبيعة وهي : ان الرذيلة او المحبة الفاسدة لاكبر عدو للفن الجميل . لان الفن يسعى في طلب الجمال ، ويجهد في تحقيقه . اما الرذيلة فمن طبعها قبيحة ، ولا تولد في النفس سوى السماجة . وهذا امر واقع تحقّقه فلسفة الفنون ويؤيده التاريخ تأييداً. اذ انه ما من عصر نشأ فيه اضطراب ادبي في الالفة ، الا وشوهد فيه قباحة الاخلاق وقباحة الفنون سائرتين كتفاً لكتف .

صفوة القول : كلما توصل فساد الاخلاق الى مخالفة شرائع الخير الخالدة في الحياة الادبية ، توصل فساد الذوق ، في ميدان الفنون ، الى مناقضة سنن الجمال الامثل . ولذا نلاحظ ان الرذائل المتأصلة في نفوس اهل الفن لا بد من ان تبقي لها في الآداب اللغوية ، وفي التصوير ، والنقش ، والموسيقي ، أثراً فاسداً يشوه كل ما فيها من جمال وبهآء وكمال . وعليه فمن حيث الاصول الفنية ليس من شيء اجمل من العبقرية المتجلية في عقل الانسان مع تجلي النقآء في قلبه الذي لم تصبه الرذيلة باذى .

هذا واذا فرضنا لوقتٍ وجود التقدم الفني بقطع النظر عن التقدم الاخلاقي ، فماذا يكون تأثيره ؟ تأثيره هو انحطاط الاخلاق ، وتقهقر البشرية . وسببه ان العلم ، مهما كان بليغاً في البشر ، فلا يصل الا الى الخاصة ، اما الفن فيدرك العامة . وان كان القادرون على تمحيصه قليلين ، فالمتاثرون بمفاعيله هم جماهير . دونكم رجلًا حاذقاً يشعر بنفسه مدفوعاً بحب الفنّ ، فيصنع تمثالا آية في الاتقان ، او يرسم رسماً

غاية في الجمال . بيد انه ، لسوء اخلاقه ، فضلاً عن توخيه كمال الصنعة يقصد ان يبدي فيه مظاهر الملذات والشهوات الذميمة . فهذا الرجل ، عند ابرازه نيته الى حيز العمل ، يرتكب شراً جسيماً . لكنه ، بنشره عمله بين الناس ، يقترف فوق ذلك اثما متفاقماً ، لصيرورته سبباً يدفع غيره الى محرمات لا تحصى ، فيضحي بيد ابليس آلة لنشر الفساد في العالم ، ولنصر الشر بقوة الحذاقة . واذا كان الفنان الفاسد في عصر فاسد ترى الجماهير تعجب بمصنوعاته ، وتكلّل هامته باكليل المجد والفخار . دونكم ايضاً رجلاً — ويمكن اطلاقه على امراة — دونكم رجلاً قد آنس في فساد عصره وسيلة للنجاح ؛ فيقصد اثارة كامن الاهوآء ، ويعمد الى تأليف رواية . فتجيء الرواية آية في التصنيف ؛ لكنها اتون نيران الشهوات ، فتروج رواجاً واي رواج ؛ وتكسب مؤلفها صيتاً بعيداً ، وترفعه في عيون اهل الخلاعة ، فيصبح شهيراً بعد ان كان معدماً . فما يا ترى كسبت الالفة الاجتماعية ؟ الذي كسبته هو اضطراب هائل وتشويش مريع نشأ في عقول وقلوب الوف فالوف من الشبان والشابات . وعليه احصوا — ان امكنكم — عدد النفوس ذات التصون والعفاف التي فقدت نقاوة القلب . احصوا الفضائل الكريمة التي ازالتها المفاسد . احصوا القلوب المنكسرة المتألمة . احصوا العيال البائسة المشتتة . احصوا المخازي والمضارّ الناشئة عن مثل هذه المؤلفات الشهيرة بهذه الشهرة الممقوتة ، وقولوا : هـذا رجل الترقي والتقدم والتمدن ، هذا هو الرجل الفنان ، هذا رجل التأليف البديع ، هذا صاحب التسجيع والترصيع ، هذا فريد العصر وفخر الزمان ، هذا رافع شأن الاوطان . اما نحن فنقول : هذا رجل الانحطاط ، هذا عدو المجتمع ، هـذا نذير التوحش والبربرة ، هذا غراب البين المهدد الألفة الاجتماعية بالخراب والاضمحلال .

وما قلنا في شر التصوير والرسم والروايات يمكن تطبيقه على شر

الغناء والطرب والتمثيل والرقص المختلط والسينما ؛ على فن الازياء القاضية ، حسب الاصول العصرية ، بالتشمير عن الاذرع والسيقان ، وكشف النحور والصدور ، وجزّ الشعور ، والتضمخ بالاصباغ والعطور ، الى غير ذلك مما يتصوره القوم عنواناً للتقدم والتمدن ؛ وما هو بالحقيقة سوى مَدعاة للفساد ، وتجلبة للخراب والدمار الادبي والاجتماعي والديني.

قصارى الكلام ما من شيء يحط من قدر البشرية ، ويقهقرها ، مثل الفنون الجميلة اذا اصبحت قبيحة ، باعتساف اربابها عن سبيل الآداب الصالحة . وما من فئة اشد ضرراً بالمجتمع من فئة الفنانين الخالين من الحشمة ، والمصورين العادمي الفضيلة . ولذا فهم خليقون بان تغلّ ايديهم المشؤومة ، وتكسر آلاتهم الممقوتة ، ويقطعوا من جسم الالفة ، ويقصوا عن الاوطان العزيزة ، بل ينفوا من الاقطار المتمدنة الى البراري المقفرة ، لينجو الورى من شرهم الوبيل .

الاخلاق والمعارف الاجتماعية

ثالث رقي في البشرية هو الرقي الاجتماعي . فما ادراك ما هو ؟ هو سير المجتمع نحو الكمال بوضع الدساتير والشرائع المقصود منها تدبير شؤون البشر على كونهم مؤلفين جماعة . والحال يجب ان يقال عن هذا الرقي ما قلنا عن الرقيين السابقين ، اي ان تقدم المعارف الاجتماعية لا يتم كماله ، ولا يبلغ الغاية المقصودة منه الا بتقدم النظام الادبي . اذ بدونه ، مهما كانت السنن التي يسنها البشر كاملة ، فلا تعود الا آلة انحطاط وهدم اجتماعي . لان اصلاح الشرائع ، وترقية الدساتير ، دون اصلاح افراد الامة ، امر مستحيل .

هذا ضلال اغلب المصلحين العصريين . فانهم عوض ان يجعلوا تقدم الانسان اساساً لتقدم الالفة ، يريدون ان يصدر رقي الفرد عن رقي

الجماعة . وبهذا اوقعوا الالفة في ورطة الانقلابات والثورات التي لا مندوحة لها للخروج منها الا بعد الخراب . فان الاصلاح الحقيقي ليس ببادىء في المجتمع بل في الافراد ؛ وليس خارج الانسان ، بل في داخل الانسان ؛ ولا بابادة بلايا الاجساد وحدها ، بل باستئصال رذائل النفس قبلها . اجل ان الدساتير والشرائع لا تخلو من فائدة لتقويم أود البشر ، لانها تؤثر في الاخلاق والعادات . ولذا لزم ان تكون كاملة ومكمّلة . الا ان كمال البشر ليس بقائم في كمال القوانين ، بل بالعكس ان تقدم الافراد هو الذي يمهد الطريق لوضع الدساتير الكاملة . وقوة هذه الشرائع والقوانين ناشئة عن الفضائل المجمّلة بها حياة البشر الادبية . مما ينجم عنه ان الاشرار غير قادرين على ان يسنوا شرائع صالحة . لان الاناء ينضح بما فيه ، والشجرة الصالحة تثمر ثمراً صالحاً ، والشجرة الرديئة تثمر ثمراً رديئاً .

فلو اجتمع كل اقطاب العالم من فلاسفة وادباء وسياسيين واقتصاديين ، وحقوقيين واداريين ، واستعانوا بما انتجته قرائح اعظم زعماء الفكر في سائر القرون ، فان كانوا هم من الجهة الاخلاقية منحطين ، اي طماعين ، متكبرين ، حسّاداً ، مكّارة ، خالعين ، فلا ترجوا منهم شيئاً مفيداً للحياة الاجتماعية . لان وضع الشرائع الصالحة يستلزم اخلاقاً صالحة ، واصلاح المجتمع يتطلب سابق اصلاح افراد البشر . ولذا فعبثاً تصلح القوانين ، طالما داخل البشرية ، اي النفوس والقلوب والارادات ، باقٍ دون تغيير واصلاح . وما المنفعة من الشرائع الصالحة اذا كان الشعب خالياً من الفضائل الادبية ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فلا يصدر عن هذه الحالة سوى العبودية . وهو ما يشاهد في كل عصر ، بعد الثورات والانقلابات الاجتماعية . وذلك لان الاميال المعوّجة تستعبد الانسان من داخل وتوقعه في الرق من خارج ، والاقوام الذين يتحزّبون ويثورون رافعين لواء الحرية الموهومة ، لا يعتمون ان

يقعوا في الرق العام ، فتستعبد الحريات الفردية للاستبداد الاجتماعي . ومن مطلبات الالفة ان تقمع فيها الاهواء لحصول السلام . فان لم تقمعها الحرية الشخصية في الداخل ، وجب ان تكسر شوكتها السلطة الاجتماعية في الخارج . وماذا يا ترى كان يجري لو ان ذوي الاميال السيئة يتوصلون في الفة خالية من الاخلاق الحسنة الى القبض على زمام الامور ؟ الذي كان يحدث هو ما نراه يجري أيام الانقلاب والحروب الاهلية ، إي الخراب والدمار .

فالنتيجة اذاً من هذا كله انه بدون الارتقاء البشري في سلم الآداب والاخلاق الحميدة ، لا يوجد في المجتمع سوى الانحطاط . وبهذا ظهر جلياً ما بسطناه من القضايا ، وهو ان التقدم الحقيقي لا يقوم في توسع العلم وحده ، ولا في تكمّل الفنون بمفردها ، ولا في ترقي الاجتماعات لا غيرها ، بل مع ذلك وفوق كل ذلك في تكامل الانسان بكونه انساناً . وان قطعنا النظر عن هذا ، فهما عملنا فكله آئل الى التقهقر . وبالعكس ، لنفرض التقدم الادبي ، ولنحققه في الحياة الفردية والاجتماعية ، نجد كل شيء يرقى رقياً ملائماً مفيداً ، وكل شيء يسير في سبيل النظام نحو الغاية المقصودة . ولذا فمن كان مستقيماً ، منصفاً حليماً ، شجاعاً ، صبوراً ، عفيفاً ، محبّاً ، شفيقاً ، يمكنه ان يكون فيلسوفاً ، فنّاناً ، ادارياً حقيقياً بما وهبه الله من ذكاء وعبقرية . لا لان هذه الفضائل من ذاتها تهب العلم بهذا كله ، بل لانها تساعد على اكتسابه واتقانه . فمن سعى في سبيل التقدم الادبي في ذاته اولا وفي اقرانه ثانياً ، تقدم علمياً ، وفنياً ، وادارياً ، واجتماعياً . وما الترقي الادبي سوى استئصال شافة ما في طبيعتنا من الرذائل ، وتجميل نفوسنا ، واخلاقنا ، بمختلف الفضائل . ومن اصلح نفسه ، وزينها بمكارم الشمائل كان النجح حليفاً لاعماله ، ورفيقاً لحياته العلمية والفنيه والاجتماعية . الخلاصة : الاخلاق الحميدة اساس المعارف القديمة والجديدة .

همة الرجال تقلع الجبال

لقد حدد قدماء الفلاسفة الانسان بكونه حيواناً ناطقاً . على ان الحيوانية مزية مشتركة بينه وبين ذوات الاربع . واما الصفة التي تفرقه عن الخلائق الدنيا ، وتدل على حده ومقامه وسلطانه على الطبيعة جمعاء ، انما هي خاصة النطق . والانسان عويلم يحوى في بدنه جميع كمالات الطبقات السفلى والعليا من المبروءات . الانسان حيّ مركب من مادة وروح . فهو الاخير في فريق العاقلات ، وهو الاول في صنف المجسمات . الانسان متصف بخاصة الحرية التي تجعل في وسعه ان يقبض ، بتوقد ذهنه ، على ناصية الحق قبضاً ؛ ويعشق ، بارادته ، الجمال عشقاً ؛ ويهيم ، بقلبه ، نحو الخير الاعظم هياماً . حدثوا ولا حرج عن الجسم وصفاته . الا ان كل هذه البدائع والغرائب التي فيه لم تكن لترفعه الى درجة اسمىء جزء في الانسان . اذ الانسان انسان بجزئه الاعلى ، اعني به النفس العاقلة ، حسب قول الشاعر :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرف من الانسان

بفضل هذه النفس وما ازدانت به من القوى ، قد ظهر في كل عصر فريق من الانام فاقوا بقية الورى بما ابدوه من الذكاء العجيب والقريحة الوقادة والارادة المحكمة . فبزغوا في سماء جيلهم شموساً واقماراً نيرة ، مما خلد اسماءهم في صحف التأريخ ، ورفع لهم اعلام الفخر والذكر الطيب على ممر الزمان .

الا انه غير خاف على ذوي الحجى والنهى ان الكمالات النفسانية

بمثابة الطود الشامخ الموطدة على قمته اركان صرح ممرّد ، يحول دون البلوغ اليه ، والولوج فيه غير النزر من العقبات الكأداء ، يتحتم على المعتزم تذليلها ان يكون من اهل الهمم الشماء والعزائم الحذاء ، واضعاً نصب عينه قول الشاعر :

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلى سهر الليالي
يغوص البحر من طلب اللالىء ويحظى بالسيادة والنوالِ
ومن طلب العلى بغير كدّ اضاع العمر في طلب المحال

فالهمة العالية وليدة الصريمة الماضية هي الاساس لبنيان الانسان الادبي وتقدمه الاجتماعي ، طبقاً للمثل السائر المستهلة به هذه المحاضرة : « همة الرجال تقلع الجبال . » فهذه الهمة القعساء هي هي التي تجابه العراقيل والعقبات المثبطة القائمة في وجه الرجال المتوّخين المثليات ، وهذه المثبطات هي ثلاثة : العوارض الطبيعية ، المؤثرات البشرية ، الاهواء النفسانية .

فعلى من عزم النزول الى ميدان الوغى ، ونوى مصارعة الدهر ان يهتك الستار عن خفايا هذه العقبات ، فيتمكن من استطلاع طلعها ، فيتذرع بالوسائل الملائمة لرفعها ، بل لقلعها . وعندها ينفسح له المجال للسير في سبيل الحياة ، فيفوز بالمرام ، ويصبح من خيرة الانام .

* * *

اما في شأن العوارض الطبيعية فبديهي ان هناك فئة من الناس ، وهم ارباب النفوس الواهنة ، وما اكثرهم ، تقشعر فرائصهم ، وتضطرب قلوبهم لدى طروء ادنى صرف من صروف الدهر . فيبيتون الليالي متقلبين على قتاد الارق ورمض الالام . ويقضون النهار وهم فريسة الهموم والهواجس . مما يشتد معه الهول عليهم ، حتى يتخيل اليهم ان القيامة قائمة عليهم وان الطبيعة قد ضربتهم بكل سلاحها ، قصد سحقهم

وحقهم . وكلما ازداد في مخيلتهم انطباع هـذه الاشباح المخيفة ، والاوهام الهائلة ، امتلاءت صدورهم رعباً . هذا وان ابت العناية الا ان تحيق بهم الارزاء ، فهناك الطامة الكبرى . فانهم يلبثون حيارى مستسلمين لسلطان اليأس صاغرين ، خاضعين لسيطرته ، نابذين كل سعي واجتهاد ، انّين تحت نيره الباهض ، دون ان يبـدو منهم ادنى حراك ، حتى يفضي بهم الامر الى انتهاك القوى البدنية واختلال الحياة النفسانية .

أما اصحاب الارادة المكينة ، فما اعجب ما هم بازآء تلك القوات الهائلة . فلا تزعزعهم عواصفها ولا بروقها ورعودها . اجل لم يغرب عن اذهانهم حالة الانسان وما هو عليه من الصغر بجانب هيئة الطبيعة الضخمة . الا انهم على يقين ثابت ان للمرء سبيلاً الى تذليلها ، والكسر من شوكتها ، بما هو عليه من رجاحة العقل ، وما توفر لديه من مذخرات الحكمة . ولذا فسرعان ما يحسرون عن ساعد الجد ، ويشحذون عوامل ما أودعوه من البصيرة الثاقبة لتفقد المظانّ وترصد الدلائل . فيبادرون الى النزول الى مضمار العراك ولا تزول ابنآء الكريهات ، وخوّاضي الغمرات ، متوسلين بما أوتوه من الحذق والمهارة ، والبأس والبسالة ، لصدّ هجمات هذا العدو ، عدو القوّات القاهرة . فكم وكم من الادوآء الوبيلة القتّالة قـد ناهضها مثل هؤلآء بفضل الفطنة أو بقوة الثقة . وكم وكم من الاموال والثروة الطائلة قد صانوها من الضياع بثبات القلب ورباطة الجأش .

هذا واذا كان الويل مستحيلاً دفعه ، وكان الدهر لا تردّ نوازله ، فلا تظنوا ان ذوي الهمة يولّون الادبار . بل انكم تشاهدونهم واقفين وقفة الظافرين ، مع ما هم عليه من الاضطرار الى الاذعان لحكم هذا الكون الذي يسحقهم دون علم منه أو عن غير عمد . وعليه فليس من مشهد أجمل للعيان ، واوضح للبيان ، وافعل في الجنان من

مشهد رجال من أهل الشهامة والحماسة ، خائضين معامع الهيجآء ، هيجآء مقارعة البلايا ، ومصارعة الآلام ، مناجزين هذا القرن ، غير هيابين ، ولا مستغربين من حملاته ؛ لما قد رسخ في عقولهم من ان ليس هناك من حياة حرّية بالاتصاف بصفة البشرية الا ويصيبها من مفاعيل بطشه سهم وافر . فلا ينفرون من المرعبات الهائلة ، بل يتلقونها تلقيهم خير الحمامات ، الحاملات اليهم اطيب البشارات ؛ ويجدون فيها ما يؤمّل منه الفوائد الجمة ، والعوائد العامة . ومما قد حلّ عندهم محل الحقائق الراهنة هو ان لا آفة أضر بالقوة من آفة الضجر والفشل ، وان الصبر سند المرء في ضعفه ، وان الله قد اناط بالزمان تسلية البائسين ، وانه وعد الصابرين باكليل الظافرين ، مما جآء مؤيّداً بحكم الاقدمين . ومن قولهم :

الدهر لا يبقى على حالة لكنه يقبل ، أو يدبر .
فان تلقّاك بمكروهه فاصبر ؛ فان الدهر لا يصبر .

ومن قولهم ايضاً :

واصبر ، ان شئت اكليل الهنا فبغير حسن الصبر لن تتكلّلا .
فان كرهت الصبر ، فاعلم انما حقاً كرهت ان تكون مكللاً .

هذا ولا يغرب عن فكرهم ما في ايام البلوى من كبير الجدوى ، حتى ان عقيدتهم راسخة ببقآء الحياة بمثابة صحيفة بيضآء صقيلة طالما لا يتسنى لصاحبها ان يخطّ عليها بمداد من عرق جبينه ، لا بل من نعمان جثمانه : « رماني الدهر بنبلان نوازله ومكارهه ، وجرّعني علقماً من كؤوس شدائده ومحنه . فكنت ، بفضل الكريم ، في التجارب صخرة واد ، وفي البلايا طوداً من الاطواد . »

ومن علمهم ايضاً ان الفتنة من شأنها ان توقظ المبتلى من سِنَة الجمود ، وان للمحنة من المقام رفيعه ، ومن الأثر بليغه في توسيع نطاق الكمالات العقلية والقلبية . لا بل لم يفتهم ان الحياة عبارة عن

الطريق ، وان التجربة بمثابة الدليل المتقدّم ، وبيده قضيب من حديد يشير به الى الوجهة اللازم اتخاذها ، خشية الشط عن السراط السوي ، وانه لا منقاش الا منقاش ذلك النقّاش الحاذق ، نقّاش الحياة يستطيع ان يستخرج من صخرة الطبيعة الخشنة التمثال العجيب ، تمثال كياننا الادبي ، وان لا مهماز غير مهماز الآلام خليق ان يكفينا شر مهماز الملذات الكثيرة المضرات .

هذا واذ يمسي ارباب الارادة الفعالة مستنيرين بنبراس هذه الاسباب الجلية الباعثة العناية الالهية على نظم الآلام في سلك الامور المفيدة ، ترونهم مواصلين الثبات على الاضطلاع بأوقار التجارب غير متراخين ، ومن ثم فلا ينظرون الى عوارض الزمان نظرهم الى موانع حائلة دون مبتغاهم ، بل يتخذونها ضرباً من المحركات تستفز منهم الهمم على اتيان جليل الاعمال ، فيثابرون على الشغل بكد واجتهاد ، قائمين باعباء ما ترتب عليهم اداؤه من فروض هذه الحياة المؤدّية الى مقر الغبطة ، وان كان ذلك بطريق محفوف بالاخطار .

* * *

على ان المرء اذا فاز بالتحرّر ، بقوة شجاعته الادبية ، من عبودية الطبيعة القهارة ، فليحذرن كل الحذر من الارتباك بعراقيل المثبطات البشرية . وغير خاف على ذي نهية ان ليس من انسان في وسعه الافتخار بعدم الاستعباد لاحدٍ ايّ كان . اذ مَن منّا لم يلقَ بين معاشريه اناساً قد طبعوا على الشراسة والشكاسة ، اناساً لا تحل أربتهم ، ولا تلين صفاتهم ، اناساً أحر بهم قد قدوا من جلمود . فما احكامهم سوى سلسلة انتقادات جارحة ، يُعربون عنها بالفاظ غاية في الفظاظة . وربما زادوا في طينها بلة ، بما يبدونه من التقريع الشديد اللهجة ، والمعاملة العارية عن كل لطف ورقة . وان هم اخلدوا الى السكوت ،

جاءوا في صمتهم أضر منهم في كلامهم ، وذلك بما يضمرونه من النيات الخبيثة ، وما يظهرونه من التصرفات المنفّرة ، ومـــا يثيرونه من المقاومات العنيفة .

على ان ما يُقضَى منه العجب العجاب هو ان هؤلآء الاقوام — على ما هم مكروهون — يتوصلون الى السيطرة سيطرةً تعنوَلهم معها رقاب الناس ، فينقادون الى أمرهم ذليلين ، لما يمضي في طبعهم الواهي من سيف الخجل ، وما يخرق ارادتهم من صارم الوجل . والسبب في ذلك غير مستتر على ذوي النهى من ان التؤبة ترخي العزائم ، فينحط معها قدر المرء ويزول متلاشياً .

اما الذين لم يذخروا لمثل هـذا الموقف من مؤونة الصبر قسطاً وافراً ، فترونهم ، لاحتدام طبعهم ، يفقدون بهنيهةٍ واحدة كل ما اكتنزوه من الفضل والكمال مدة معاناتهم الاحتمال . فعلى مثل هؤلآء أن يعتبروا ان من يستشيط غيظاً من اجل عيوب الغير فقد اتى امراً مستهجناً . وشأنه في ذلك شأن من يرغي ويزبد حنقاً على الجو لتعكّره ، وعلى الهوآء لشدة برده القارس شتآءً ، والتهاب حرّه اللافح صيفاً . ووجه الشبه هو انه كما اننا عاجزُون ، مهما ثار ثائرنا ، عن صدّ الطبيعة عن الجري مجراها ، فما نحن الا قاصرون ، اذا سخطنا ، عن تقويم ما اعوج في طباع امثالنا . دع عنك اننا في حنقنا على معايب اقراننا لأبعد عن محجة الصواب منّا في انزعاجنا من تقلبات العناصر . لكوننا اذا غضبنا على الطبيعة ، فلا نغيّر فيها شيئاً ، ولا نخفّف ممّا في شدتها . وأما اذا هاج هائجنا على افعال قريبنا الملومة ، فقد طاش سهمنا ، وضل رائد أملنا ، لحصولنا على خلاف متوقّعنا ، وذلك لما نثير فيهم من عوامل الأهوآء الكامنة كمون النار في جوف الارض . وشر الدآء ما كان خفيـــاً ، كما جاء في الحكم . فنزيد في مبلغ هيجانها مبلغاً لا وراءه مبلغ .

وبعد فرقة الشرسين تأتي طائفة المداهنين المحاولين الاستيلاء على امثالهم اما بقوة الامر ، او بطريق الاغواء . وربّ معترض يخيل اليه ان في هذا القول من الاباحة ما فيه للانتقاد والتطاول على المقامات الشرعية ، معاذ الله ان نركب متن هذه الجهالة الوخيمة . فان معتقدنا هو ان للسلطة المقامة شرعاً سمو القدرة والسيادة والحق المطلق في ان تطاع طاعة تامة منزهة عن كل شائبة . الا اننا مع اقرارنا هذا المبدأ القويم ، نذهب الى وجود ضربين من الطاعة وهما : الطاعة الذليلة ، والطاعة النبيلة . الاولى تهين صاحبها ، بجردة اياه عن كل فعل ذاتي ، جاعلة اياه شبه الاشياء الجامدة ، العارية عن كل شعور ، والعديمة الادراك ، فتقذفه قذف الصبيان للكرة . والثانية من خصائصها ان ترفع صاحبها الى الاعالي ، فتضيء عقله بنور ساطع ، يولد فيه العزم والحزم في ما يجريه من الامور . فيريد ويحب ما يؤمر به على منشط ، ولا عن مكره . مما يؤول الى جعل الاعمال اعماله ، فيعزى اليه ما ينشأ عنها من مدح وتجلة ، ويصبح مالك نفسه وسلطانها .

اما الاغواء فما اقل من يفلتون من حبائل اصحابه . اذ ليس هناك من يستنكر ما لعشرائنا فينا من بليغ الأثر ، مما يمكنهم من اصطيادنا في شراكهم عن علم تارةً ، وتارةً عن غير معرفة . وهولآء المغوون على اصناف شتى . فمنهم ألفاء واصدقاء لا يذم عهدهم ، أو زعماء يطمعون بوهن عزائمنا فيخرطوننا في سلك مشايعيهم ومريديهم ، او اصحاب دسائس يبرقعون ابصار عقولنا ببرقع التمويه والمدالسة ، فيطوحونا ونحن غافلون . ومنهم خدم وحشم دأبهم المواربة والمراوغة قصد الفوز بما يشتهون . اجل ان هولآء ومن هم على شاكلتهم يسيطرون علينا بافكارهم ، فتتمكن فينا تأثيراتهم .

زد على ذلك ان اهل الاغواء يسددون سهامهم الحادة نحو ضحاياهم في كل اطوارهم وفي عامة طبقاتهم . فيستهوونهم منبهين فيهم حب

الاستطلاع بما يبسطون امام انظارهم من المشاهد البديعة ، والمعارض الغريبة ؛ مما يهوّن لهم الامر للقبض على زمـــام ارادتهم الواهنة ، فيأخذون بمجامع قلوبهم بمظاهر المودة الكاذبة ؛ ويستحثون ما فيهم من الميل الى الاطماع بما يبذلونه لهم من الاصفر الرنان والابيض الفتان ؛ ويحركون فيهم عوامل الخيلآء بما يمثلون امامهم من بهاء المقامات السامية ، والالقاب الفخمة ، والاوسمة الشريفة .

ناهيك ان الاغرآء لاصلب حجر تصدم به الارادة . ولولاه لمـــا تورّطت المرأة برونق الزينات المعروضة لانظارها ، فاسرفت اسرافاً مستنكراً . وكلما كان المرء يتورط تلك الورطة التي سقط فيها دون فحص وتروٍ ، فآل به الأمر الى ان يقلّب كفّيه أسفاً على جسم كان آية من ايات النضارة ، ويقرع سنّه ندماً على نفس كانت رافلة بحلل النقاء . ولما جازف الرجل آجلته بحطـام عاجلته ، طلباً لاذخار المال الفاني .

واما من كانوا على غير هذا الغرار ، فما اعظم نفسهم وما اشرفها! وما اجدرها بالحرمة والتوقير ! اذ لا يؤثر فيهم الاغواء ادنى تأثير ، لما فيهم من مضاء العزيمة ، وشدة الصريمة ، والبسالة الادبيّة . مما به يتمكنون من التملص مما ينصب لهم من المكائد ، ومما يجعلهم في كل زمان ومكان مسلطين على ذاتهم كالارباب المطلقين .

* * *

على ان المرء لا ترتقي همته أو شجاعته الادبية الى أوج كمالها الا بالقائه عن عاتقه نيراً اخر . الا وهو نير استعباده ذاته لاهوائه ، وان كان قد فاز بمظفر من المثبّطات الطبيعية ، ونجا من الحبائل البشرية .

ورحم الله مفكراً من مفكري عصرنا ، قـــال ، ولله درّه من

قائل : « غيرُ مستَبْعَد ان يُرى قائد من أبسل القواد ، غداة ظفر باهر ، متقمّصاً بخلال امرأة من اشد النساء ضعفاً وفزعاً . وذلك لابطانه في اثار جروحه طبعاً واهناً ، لا قوة له ولا همة . » على ان الانسان كائن مركب من عناصر غاية في التباين ، تتمثل فيه — على ما هو عليه من صغر الحجم وضيق المجال — دولة فسيحة الارجاء ، ترتج فيها امّة مختلفة افرادها رغائب واميالا ، ومنافع ومطامع . فمنزلة الاهوآء النفسانية كمنزلة الرعية من الدولة ؛ والارادة بمثابة وليّ الأمر القابض على زمام شؤونها . فكما ان صاحب الملك لا يعمد الى استئصال شأفة رعيته وقطع دابرها ، طلباً للسيادة ، وسعياً وراء الامن والسلام ، بل يبذل قصاراه في حملها على الطاعة والخضوع ؛ فيسن لها الشرائع ، ويوظف عليها الضرائب ، مستفيداً من مزايا افرادها ، بعهده الى كل منهم ما يلائمه من الخدَم ، رغبة منه في تعميم الخير ونشر المنافع ، فالشأن هذا الشأن في الارادة ، اذا قامت بأعباء مهمتها احسن قيام . فانها لا تعمل على قمع ما فطرت عليه النفس من الغرائز ، او ما ينشأ فيها من الهيام والتوقان الذاتي ، بل بدلا من هذا تأخذ بالسيادة عليها ، مقوّمة ما يظهر فيها من الاعوجاج ، مرخية العنان تارة ، مضيقته أخرى تبعاً لمقتضى الاحوال ؛ مستعينة بها دون استسلام الى ما كان من اميالها مضراً .

ولا يغرب عن ذي نهى ان من كان من الناس قد تغلبت فيه الاهواء المنحرفة ، فجنحت الطبيعة الى ما تهواه ، واضطرت الارادة الى ملازمة الصمت فاقدة السلطة ، لا يلبث النظام ان يتداعى فيه بنيانه ، فتتقوض اركانه ، ويحل الاختلال على انقاضه ، ضارباً فيه اطنابه ؛ بما ينجم عنه امحاق شخصيته واضمحلال قدره الادبي . اذن الشأن كل الشأن ان يحرر المرء ذاته من رق ذاته ، فيسود في مملكة نفسه سيادة امير لا يعارضه معارض . والى مثل هذه السلطة الفائقة

قدراً وجدوى خليق بالرجل ان يطمح ببصره ليفوز مستولياً على رغائبه الحسية ، راداً مخيلته عما تمتطيه من مطايا الشطط ، ومزيلاً ما يعتري مزاجه من الحور .

فاذا ثبتت هذه المقدمات ، كانت نتيجتها ان ليس من شيء احط بقدر الانسان من وقوعه تحت نير حواسه . فسواء انقاد الى شهوة الشره السافلة ، او ارتطم في حمأة الملاذ الذميمة ، فهو بذلك عامل على تذليل ذاته ، وكسر صيته ، بل قل على اتلاف صحته ، ونسف بناء كيانه . على ان الاهواء الدنيئة ، اذا فازت بالنصر ورسخت اقدامها ، فاستتب لها الامر في طبيعته ، لا تعتم ان تعمد الى سبيل الظلم والجور على قواه جمعاء ، فيهوي لبّه في مهواة الذل والهوان ، بعد ان كانت نفسه لا تصبو الا الى شريف المطالب ، وتستحثه على سامي المقاصد . ثم ترتخي عزائمه ، فيستوطىء مهاد الخمول ، ويخلد الى الصغار والضعة . ولداعي فقدانه القدرة على نظر صورة الكمال المثلى ، يُرى قاعداً لا تتوق نفسه الى مأثرة ، ولا تسمو همته الى منقبة .

اما الرجل الذي قد اخذته للصلاح والاصلاح اريحية ، فنشط للتغلب على نفسه الامّارة بالسوء ، فعليه ان يضع في مقدّمة منهجه واجب التملّص من رَبقَة تلك الاهواء ، أهواء الطبع المنحرف . ويتم له ذلك ، اذا تمكن من كسر شوكة شهوة الشره ، فانها من أظهر العلامات على الطبع الواهن ، لا بل من أوّل علله . ثم ليعمدنّ الى كبح جماح الاميال البدنية البذيئة ، الهائج هائجها في جوانحه ، موقناً حق اليقين انه ان لم يسرع ، بادىء بدء ، الى اذلالها وقهرها قهر النمور والاسود ، بل يدعها تسرح وتمرح دون رادع ، فما يكون منها يوماً الا انها تهجم عليه هجوم تلك الليوث الثائرة فتطؤه بأرجلها ، أو تنشب فيه براثينها ، فتمزقه بانيابها اي ممزق .

هناك فئة من الأنام — وليسوا بالنزر النزير — ما شمروا عن ساعد

الجد ، باذلين كل نفيس وعزيز في سبيل الانتصار على عدو الحواس ، مستردين حريتهم الادبية ، الا وقد وقعوا في عبودية طاغية اخر ، الا وهو طاغية المخيّلة الجامحة التي قد أطلق لها العنان . وهذا — ولا مشاحة — رق لا يقل مضرة عن رق الحواس السافلة ، وان كان منشأه عن مصدر ارقى . ومن مفاعيل هذا الاستعباد هو الفضول المفرط الذي من خصائصه حرمان الانسان سلطانه على ذاته . فيدفعه الى مشاهدة المناظر البذيئة ، والتوغل في قراءة الكتب الرديئة ، وانعام النظر في الصور والنقوش السمجة ، وتجاذب اطراف الاحاديث غير اللائقة . من مفاعيله ايضاً ان يحمل صاحبه على قتل الاوقات الثمينة في الايغال في فيافي التخيلات ، مفسحاً المجال في عقله للهواجس الذميمة ، وملذذاً قلبه بالمودات ذات النتائج الوخيمة . من مفاعيله ان يؤجج في نفسه ما قد خمد من نيران الأحقاد والضغائن . فيظن المرء ذاته هدفاً للظلم ، ظلم ما يتوهم وجوده من الاعداء الألداء ، أو يئنّ من شدّة امراض وعاهات يتخيلها عابثة ببدنه . من مفاعيله القاء الانسان في هوة القنوط الذي ينتزع منه روح الثقة بالله والاعتماد على ذاته ، فيذهب بهمته ويلاشي شهامته ومروءته .

على ان بين الوسائل الملائمة لدفع اخطار هذه الآفة وسيلة المزاج المعتدل . الا انه نادر الوجود ، لما هو مشاهد ومحسوس ان علة الأمزجة صادرة عن عدم وقوفها عند الحد الأوسط ، اي عن جنوحها اما الى الافراط واما الى التفريط . واذا شئنا حصر النظر في الحدين الاقصيين منها ، رأينا ان بين الناس قوماً جامدين ، وقوماً هياجين ، يجدر بالاولين ان يحركوا بمهاز ، والاخرين ان يُلجَموا بلجام .

اما أرباب المزاج الجامد فليسوا بخلو من كل كمال . الا ان قواهم خاملة ، بطيئة ، غائصة في بحر سِنة لا قعر له . ومهما جد المرء في ايقاظهم ، ذهبت مساعيه سدًى . وذلك لما هم عليه من الثقل ، ثقل

خمود لا وراءه خمود . وكأني بهم اذا أخذوا في الشغل يسحبون ذواتهم سَحباً ، ويبدأون اداء العمل ساعة كان الواجب عليهم أن ينهوه . زيدوا على ذلك انهم لا قوام لافكارهم ، ولا تناسق في اعمالهم . اسعوا في طلب النظـــام ، فهيهات ان تلقوه في احوالهم واشغالهم وبيوتهم ، ولاسيما في نفوسهم . يُرَون صارفين الاوقات في النزهات ، وقاضين سحابة العمر عن غير جدوى ، ومن ثم عاملين عـلى اتلاف وجودهم .

أما اهل المزاج الهياج فهم وهؤلآء على طرفي نقيض . فانهم اذا جارَوا ما انطوت عليه سليقتهم ، كان دأبهم التهجم والتهور . واذا لم يقم لصدّهم عائق من العوائق ، لا يعرفون في العمل رفقاً ولا اعتدالا ، بل يقدمون عـــلى الامور دون تدبّر واعمال فكرة . واذ انهم لا يستدركون مغبّات ما يأتونه من الاعمال ، يطوّحون بنفوسهم فيتدهورون في دركات الضلال والاعتساف ، فيندمون حين لات مندم . ولقد يبلغ منهم افراط النشاط مبلغاً فاحشاً ، حتى يخال لناظرهم انهم يفترسون العمل افتراساً . بيد انهم يصرفون جل همتهم في مزاولة امور عديدة ، دون اكتراث منهم بضبطها واتقانها . هـذا واذا حالت دونهم عقبة من العقابات ، احتدم طبعهم وتفجّر ولا تفجّر البركان يقذف نيران فظّ الاقوال ، ويحرق بلهبات سيء الأعمـــال . مما جاء أقوى دليل وأبين برهان على خلوهم ، في دولة نفسهم ، من كل سلطان .

هذا ومن استبطن بواطن الهمة ، بل الشجاعة الادبية ، وانكشف له المعمّى عن المخبآت في المثبّطات القائمة في وجهها ، والتي تكسر شوكتها وتخفّف من حدتها ، وكان ، بمعزل عن هذا ، من ذوي المبادىء القويمة الراسخة ، ومن المستمسكين بحبال التقوى والصلاح ، ومن المتوخين الصور المثلى والطرق الجلّى ، عمد الى فكّ نفسه من هـذه القيود التي تعرقل سيره الى الامام ، بيدي التعقّل والفطنة ، وكسرها

بفأس الحزم والعزم ، وحطمهـــا بطرقة الشجاعة والبسالة الادبيّة ، واضعاً تجاه انظار عقله ما اوردناه في المطلع من المثل القائل : « همة الرجال تقلع الجبال . »

العصر وشهامة الاخلاق

عصر رقيّ هو عصرنا ، لكونه عصر النور ، كما يقولون . ونعني بالنور ليس النور المادّي الذي تقدّم ، والحق يقال ، تقدّماً باهراً . اذ بعد ان كنّا ، مثلاً ، نستضيء بمسارج الخزف الموقدة بالزيت ، ها نحن أولآء نستصبح بقناديل الكهربآء التي أحالت الليل الى نهار . أجل ! لا نريد بالنور النورَ الحسّيّ وحسب ، بل بنوع أخصّ النور المعنوي ، نورَ العقول والألباب ، نور العلوم والفنون ، نور المكتشفات والمخترعات العجيبة ، نور المدارس والمعاهد العالية والجامعات الشهيرة . بالحق لقد رقي عصرنا ، فنال قصب السبق على ما غبر من الأعصار . بيد ان هذا التقدم هل تراه أصعدنا في معارج الفلاح في مجال الفضائل الاجتماعية السامية ، مجال الشهامة والنبالة في الاخلاق ؟ ان هذا ، ويا للاسف ! لا ينطبق على واقع الحال . اذ ماذا يتوخى أهل زماننا على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم ؟ انهم لا يتوقون الا الى المـــلاّذ الحسّيّة ؛ ولا يرغبون الا في التفنّق ورغد العيش ؛ ولا يسعون الا ورآء الملاهي ، متهافتين ، ولا تهافت الجياع حول القصاع ، عـلى جمع المال بالحلال والحرام ؛ لان المال في نظرهم وسيلة فعّالة لقضآء الأوطار ، واتباع الشهوات .

عبثاً نطلب من العلم ما هو عاجز عن منحه . لان الفضيلة فوق

طوره ، وغريبة عن مباءته . فلا الرياضيّات ، ولا الطبيعيّات ، ولا الادبيّات ، ولا الحقوق ، ولا الفلسفة في وسعها ان تجعلنا رجالا رجالا . هدف العلم العقل ؛ ولا يصل الى الارادة والقلب الا من باب الانعكاس . في مكنة المرء تهذيب عقله ؛ لكن في الوقت ذاته في مستطاعه اهمال نفسه . ودليله وجود علمآء ذوي نفوس خاملة ، واخلاق سافلة . في جوّ حجاهم الانوار ساطعة ، وفي اعماق جنانهم الظلمات حالكة . لقد ترّقت العقول ؛ لكن انحطّت النفوس ، وفسدت الاخلاق. لقد زادت المعارف والفنون ، بيد ان الضلال لا يزال في انتشار ، والشر في تفاقم . فضعف الدين ، وزال الحيآء ، واضمحل الشرف ، وبادت الاستقامة . فعمّ التهتك والخلاعة باسم الحرية الكاذبة . فيا ليت قومنا بقي على بساطته القديمة ، وحافظ على كنزه الثمين ، كنز الاخلاق الصالحة النبيلة ، التي طالما افتخرت بها بكل حق القوميّة الشرقيّة .

بالحق لا يكفي للرقي تنوير العقول بالعلوم والمعارف المادّية المدنية ، بل يقتضي ارادة حازمة قادرة على الشروع في العمل الجدّي ، عمل استئصال الرذائل ، وغرس الفضائل . وهذا ما سائر عصرنا في سبيل فقدانه . كنا في حاجة الى تحسين الثقافة ؛ بيد ان الحاجة ماسّة دائماً الى ترقية الاخلاق ؛ لان الاخلاق حيـــاة الافراد والجماعات ؛ وهي الصائنة الاقوام والشعوب من الثورات والانحطاط والزوال .

واذ كان من أهمّ الوسائل لتبيان ماهيّة الظلام الحالك عرض النور باسطع اشعّته ؛ ولمعرفة الاسقام والعلل ، وصف الصحة واطرآء نعمها ؛ وللصد عن الجهل والغباوة والتقاعس اعلاء شأن العلم والاشادة بجزيل منافعه ؛ كان الشأن كذلك في مجال الحياة الادبية الاجتماعية ؛ اي من المفيد كل الافادة لاصلاح اخلاق العصر السيئة ، ان ندرس الاخلاق الكريمة النبيلة . ولذا فلنرَ اولا ماهية الاخلاق الشهمة مقابلة باداب زماننا ؛ ثم ما هي الوسائل الفعالة للتحلي بالمزايا السامية ؛ بما يتسنى به اجتناب الخصال الدنيئة المقيتة .

القسم الاول

ماهية شهامة الاخلاق

ما هي شهامة الاخلاق ونبالتها ؟ هي الارادة البالغة ارقى درجة في النمو والتوسع ؛ هي الصلابة في العزم ؛ هي الثبات في اليقين والفضيلة ؛ هي القوة الكامنة المنبثقة من شخص المرء والملهمة الطمأنينة ؛ هي قوة المشيئة المنوطة بقوة العقل ؛ وقوة الادراك متعلقة بالنظر الثاقب في مبادىء الحياة البشرية . هي المثابرة في الاتجاه نحو الهدف بشجاعة وبسالة ، رغماً عن المحن والاخطار والاهواء ؛ هي الجلادة في خدمة الحق والصلاح ، في ميدان الواجب ؛ هي النشاط للعمل ، ومباشرته مهما نشأ من العقبات . صفوة الوصف : الرجل النبيل الشهم ، او ذو الارادة الصارمة ، هو العامل بجدّ وثبات على ضوء اليقين الراسخ . فهو الذي اذا صمم شرع ، واذا شرع عمل بدوام .

عقد النية اول مطلبات انجاز مشروع من المشاريع ، او اتيان عمل من الاعمال البشرية . لكن اين هم القادرون على التصميم . قليل ما هم ! انه لتمر في ادمغتهم مقاصد ورسوم جمة مرّ السحاب تدفعه الرياح العاصفة . التحير والتردد دأبهم ، والقلق والاضطراب ديدَنهم . وان اقبلوا احياناً على العمل ، فذلك ليس نتيجة عزم منهم ؛ بل لان قوة قاهرة ، او حاجة ماسّة اضطرتهم . وما هم في هذه الحالة الا ككرة تتقاذفها أقدام الظروف المتقلبة على هواها .

اما الرجل ذو الشهامة فانه عارف كيف ينوى ، لاطلاعه على

حقيقة واجبه . وان عجز عن رؤية ذلك رؤية واضحة ، فلا يتمنع عن استشارة ذوي العلم والخبرة . ومتى ايقن بوجوب اتباع السبيل المطلوب ، ترونه يقصد بعزم وحزم . واذا كان الشأن في مسألة المصير ، او المسلك ، او المهنة ، يشاهد هذا الشاب الحازم مستأمراً وكلاء الله على الارض . وبعد التفكر ملياً ، وعجم عود نفسه من حيث الذوق والجدارة ، يتّخذ هـذا المسلك ، او يتبع تلك الدعوة ، أو يزاول تلك المهنة .

واذا كان الأمر من قبيل المشاريع الخطيرة ، استطلع قواه ، وأعمل الرويّة في المنافع والمضارّ ، وفي درجة الفلاح أو الاخفاق . وعقيب ان يكون قد راز الامور بحجاه ، ومازهـا بنهاه ، يمضي نـيّته امّا عـلى الاقدام ، وامّا عـلى الاحجام . لا تخالوه تجاه العمل هيّاباً ، بل احسبوه اليه تواقاً . فالدم الفائر في عروقه ، والاشواق الهائجة في نفسه ، والحماسة المتقدة في لـبّه ، كل ذلك يدفعه الى الامام . بيدَ هَبْ الشأن في صدد مصالح أعلى من مصالحه ، أو القضية في طور غير طوره ، تره يخلد الى الصمت والسكينة ، مهما جشّمه ذلك من الآلام القاسية .

ان كان شابّنا النبيل الخلق جريئاً في الاقدام ، فهو ليس بمتهور . لان الجسارة شبه العُنف ، في وسعها الظهور بمظهر الخلق المتين ، خاصةً حين يتوسم النجح بجانب بطل المغامرة ؛ لكن ما ذاك الا تقليد وتزوير . فالحقيقة الثابتة في نظر أولي الخبرة هي ان لا خلق ولا شهامة دون الفطنة . وهذا ما يعسر ادراكه على معشر الشبان ، لنظرهم الى الفطنة نظرَهم الى الجبن . وان نحن اشرنا بها عليهم ، اتهمونا بتهمةٍ نحن منها برآء ؛ اتهمونا بسوء النيّـة ، نية تحطيم أجنحة نفوسهم المتحفّزة في كل حين للطيران . والحال ان جل مرامنا رؤيتنا اياهم قافزين من عشوشهم الضيّقة ، ناشرين اكنافهم الحديثة المتينة ،

محلّقين كالنسور في فضآء تنازع البقآء . اجل ! يا معشر الشباب ، لقد خلق الله قلوبكم كالزهور لكي تتفتح ، فتفيح روائحها العطرة ، وكالانهار ، لتجري فتمتد . اذن وسّعوا ألبابكم ، ايها الشجعان ، وسَماعة شواطىء البحار . كونوا كرمآء في توقانكم الى المعالي ، وفي بذلكم النفس في سبيل الغير كما في سبيل مصلحتكم . احبّوا العظائم التي تستأهل الشرف قدام الله والناس . ولكن قبل الاقدام على العمل ، عوض ان تندفعوا مع تيار الاحلام ، احلام الشبوبية الغرّة المعجبة بالذات ، جسّوا نبضكم ، وانظروا هل انتم اقوياء ، وهل تسمح لكم الفطنة بالنزول الى الميدان . وربما تطلبت منكم نبالة الخلق توقع حلول الساعة المرهونة بوقتها . فريثما تدقّ تلك الساعة ، ألا ارضوا بتأدية مهمتكم اليوميّة بتواضع واختيار .

على انه ليس بكافٍ ابراز القصد للاتصاف بالاخلاق الحسنة واجتناب مساوىء الآداب العصريّة . كثيراً ما تتّقد قلوب الشبان بنيران الحرارة والحماسة ، فتتجلّى في انظارهم الفضيلة متجسّمة في حياة أحد ابطالها ساطعة كل السطوع بانوار جمالها وسناها . فحينئذٍ من ذا الذي لم يقل في داخله : انا ايضاً سوف اضحي من صنف الافاضل ، أو من كبار القوم الاماثل ، لا بل من مصاف القديسين الاعاظم ؟ هناك كثيرون ، بعد سماعهم خطبة رنّانة ، أو محاضرة فتّانة ، في شأن واجبات الحيـــاة ، ترونهم يعدون ببذل قصاراهم في خدمة المصالح الخطيرة المتطلبة انكار النفس . بيد ما هذا كلّه ؟ ارادات ضعيفة ، مواعيد عابرة ، لا بل مجرّد أيمان غير ثابتة ، ليس من ورائها ادنى نتيجة . ليخفُت دويّ الاقوال الملتهبة التي اثارت الحماسة بين ضجيج التصفيق العجّاج . ليجتزْ هؤلآء المتحمّسون عتبة القاعة المباركة حيث رقصت افئدتهم طرباً وانشراحاً . ليطبقوا الكتاب الذي شعرت فيه نفوسهم — وهي في ألفة احد البسلآء — بحاجة الى الترفع عن ابتذاليات

الحياة العادية . أجل ! اذ ذاك يجدون نفوسهم كما كانت سابقاً . فقد جاءت مقاصدهم لتضمحلّ عند مدخل الحياة العملية ، كما تتبدّد متلاشية الامواج الصخبة على الرمال الساحليّة . ها هم اولآء في الحاضر كما كانوا في الغابر ، لا ينفكون من اصعاد الزفرات ، والاكثار من الحسرات ، وهم ينوؤون بعبء عيشة خلوٍ من الكرامة والشهامة ، وقد اعتراهم الجبن والرهبة . وهذا لون من الوان اخلاق عصرنا الواهنة .

على ان من رغب في القصد وسعى في العمل في سبيل المشاريع الاجتماعية ، تحتم عليه توقع العقبات في وجهه وهذا ايضاً من معايب الاخلاق في زماننا وفي بلادنا .

انتم يا اولي الهمم الشمّ ، لا مندوحة لكم ، عاجلاً ام آجلاً ، من ان تجدوا نفوسكم يوماً من الايام ازاء اناس يمتعضون لرؤية الخير والفضيلة . وبما فطروا عليه من الجور ، يحاولون صدكم عن سبيل الصلاح مزدرين بكم ، معتدّين ايّاكم من الاقوام المتأخرين في عصرنا هذا عصر الرقي والحضارة . فيقولون لكم : « ان هذه المبادىء التي تعتقدون بها ، وهذه التقاليد التي تسيرون بموجبها ، ان هي الا خرافات عجائز . واليوم محتوم على كل امرىء مجدد متبع لاصول التمدن الحديث خلع هذا النير البالي الذي بقي الناس احقاباً طويلة مستعبدين تحت وقره الباهظ . »

وان لم يفلح الهزء ، عمدوا الى التهويل بقولهم : « اذا تماديتم في غيكم ، فقدتم مقامكم ، وابعدتم عن مركزكم ، لا بل القيتم في غياهب السجون ، او أجليتم الى الفيافي والقفار . » فما موقف ابناء الزمان تجاه هذا الوعيد ؟ منهم من يطأطئون الرؤوس صاغرين مضحين بحريتهم . لكن منهم من لا يهابون فيؤدّون الواجب لكونه فرضاً عليهم ، دون مباهاة ولا صلف . يسعي المزلقون في جذبهم الى المسارح الخلاعية ، او الى اشراكهم في اعمال ومضاربات مشتبهة ، فيردّدون : « هذا حرام ،

هــذا حرام . » يضحك الارديا من حشمتهم أو تحفظهم . لا بأس ! فهذا لا يهمهم . اذ هم موقنون ان لا بد ما يأتي يوم يسلم الحق بيدهم ، ويضطر موقفـهم الشريف الى ان يحترمهم هؤلآء الجبناء الذين يخجلون في صميم قلبهم من حالتهم البؤسى ؛ هذا عـلى فرض أنهم لم يفقدوا كل شعور واستقامة . وهكذا يقف أولو الشهامة والنبالة موقف الصناديد تجاه سخريّة أهل العصر الارديا ، وتجاهَ وَعيد الطغاة. واذ ان القضية قضـيّة الواجب ، فليس في مستطاع شيء قسرَهم على التسليم ، وان كان الموت الزؤام عينه . لانهم على عقيدة وطيدة ان تجرعهم كأس الحمام عن طيبة خاطر لَهُو من الناحية الاخلاقية أرقى درجةٍ من درجات العظمة . فان جُثو المرء على النِـطع ، ومده عنقه مكشوفاً ، وشعوره بهامته ساقطة على الحضيض شهادةً للحق والعدل، لَهُو هو المصير الخطير الذي لا ورآءَه خطورة في هــذه الدنيا . حينئذٍ يُسـمَع هؤلآء الابطال يجيبون محتذين مثال شبان العهد القديم الثلاثة ، سابقي شهدائنا في ذا المضمار : « اننا لا نخرّ سـجّداً الا بحضرة آله ابائنا . لك القوة في قتلنا ، ايها الملك ، بيد ان الله قدير عـلى نجاتنا . وان لم يحسُن في عينيه انقاذنا ، فلا بأس في ذلك . فهذا لا يثنينا عن المضي في اجراء مقصدنا . »

من المحتمل ان المقاومين الهزء والوعيد يزلقون في وهدة التمليق . فيسمعون مثل هذا القول : « ان كنت ، يا هذا ، فريسةً لسيء الظنون، أو كانت سمعتك سمعة الجهل والغباوة ، فملّـق ، تصبح ابيض كالثلج . ملق ثم ملق ، تُضحِ ، عاجلًا ام اجلًا ، من اعاظم الزمان . » هناك من يقعون تحت سيطرة العدو الألد ، لعجزهم عن التملص من سحر وفتنة اولئك البنات ، بنات الهوى ، الجهنميات التعيسات ، المترّصدات للفتيان الأغرار . ولا لذة ولا غبطة لهن الا ان يرين الغيرَ مرتبكين في حبائلهن ، لا بل متمرغين معهن في حمأة الدعارة . هناكَ من يُبـهَرُونَ

ببريق الاصفر الرنان ، ويُفتنون ببهاء الامجاد . ففي سبيل تبوّ المنصات، او تزيين الصدور بالشارات ،ترون الرجال المحسوبين على جانب عظيم من الرصانة والشهامة مطأطئين الهامات بين ايدي اناس كانوا في نظرهم ارذالا ، فيمسون لهم عبيداً رقاقاً .

انظروا الى هذا الشاب الذكي المثقف ، حامل الشهادات العلميـة والفنية . انه طلق اللسان ، ذو قلم سيال ، ومقدام في الاعمـــال . لكنه مُملق لا يملك شروى نقير ؛ لا مسلك له ولا مهنة ؛ وهو محروم من كل سند وحمى . ها انه قد بلغ مفرق الطرق ، اي سن العشرين ، حيث يتحتم على المرء ان يولي وجهه شطر غاية في الحياة . فاي السبل يكون سبيله ؟ أعن اليمين ، ام عن الشمال ؟ هل السير الى الامـــام بالشغل في مكتب او متجر او مختبر او دائرة من الدوائر الرسمية ؟ لكن للبلوغ الى اي شيء ؟ وبكم من الزمن ؟ انه يلقي نظرة على حاله الرثة وعلى جيبه الفارغ ؛ كل هذا والابواب موصدة في وجهه . فاذ ذاك هو ايضاً يدوي في اذنيه صوت فيناجيه مناجٍ ، وهو غائص في احلام الرغائب النفسانية ، والمطامع المادية : « هلمّ سر في هذا السبيل، سبيل القوة والثروة ، سبيل التقدم نحو الجاه والاعتبار . ان في نيتك ان تصيب من هذا شيئاً . وهذا عين الصواب والحلال . انت ذو ذكاء ومعرفة ، وخلق ونطق وقلم ، فالمستقبل في قبضتك ، وما لك الا ان تشاء . فهل ترضى بالاشتراك في النزول الى ميدان الاعمال والمشاريع ؟ ففيها مكنون الذهب الابريز ؛ ويهون عليـك جمعه باقرب الطرق، واسرع الاوقات . لكن لذلك شرط واحد ؛ اي نعم شرط واحد ، هو الانحناء . اجل هذا لا مفر منه . يجب حتما ان تنحني وتخرّ ساجداً ، مبخراً ، مقرباً ، مضحياً للصنم المعبود ، صنم هذا الدنيا . » اما الشاب الشهم النبيل فادرك غاية التجربة ، وادار ظهره بشجاعـــة وبسالة ، طارداً لاعناً شيطان الطمع والجشع ، زاهداً في كل ثروة محرّمـة ،

وفي كل جاه ومنفعة دنيئة . اجل انه لن يكون على شيء من هذا كله . اجل انه يبقى خاملاً كاسباً خبزه ، بالكد وعرق الجبين ، لكن لا بأس ! المهم انه لم يعبد ربين : الله والمال ، ولم يسجد لعجل الذهب ، ولم يشترك في الرقص الاثيم صحبة بني اسرائيل .

هذا هو الشاب المتحلي بالاخلاق النبيلة المتفوقة على آداب عصرنا المنحطة . لكن اسعوا في طلبه ، رجعتم خائبين . لانه نادر الوجود ، اعز من بيض الأنوق ، اعز من الابلق العقوق .

هناك عقبة اخرى . والمتوصلون الى ازاحتها هم ايضاً من اولي المروءة في الاخلاق . في ميدان العالم انام فطروا على كرم الطبع . فاول ما يرون الخير ، لايعتمون الا وقد عزموا على تحقيقه . فيسرعون في العمل . لا صعوبة تقعدهم ، ولا ضحية ترهبهم . دونكم فتى من الفتيان كان سائراً سيرة الطيش ، بيد انه ارعوى على يد احد انداده الصُلاح . فها هوذا قد نزل الى حلبة المشاريع دفاعاً عن الحرية والحق والعدل . عنصره من اطيب العناطر . فيشمر عن ساعد الجد ، ويلج في كل فرع من فروع الاعمال المبرورة ، ساعياً في تأسيس الاندية الادبية والاجتماعية ، وتأليف الجمعيات الخيرية ، وتكوين الاخويات التقوية . يشارك في القاء المحاضرات ويؤازر في نشر المقالات ، لبث روح العلم والثقافة ، ولتوثيق عرى الاخاء والوئام بين مختلف العناصر في المجتمع . لكن ارجعوا بعد جملة اسابيع ، او ان شئتم ، عقيب بضعة أشهر ، تروا كل تلك النار المتأججة المتصاعدة الى كبد السماء قد تضاءلت ، فبردت ، فخمدت ، فتلاشت . ماذا نقص لهذه الارادة في سيرها هذا الباهر ؟ قد اعوزها تلك الفضيلة التي حددها امام اللاهوتيين والفلاسفة مار توما الاكويني الدمنكي بكونها تدفع النفس الى المثابرة على مساعيها الحسنة ، الى ان تراها قد تمت رغماً عن طول الزمان ، وكثرة المضادات ، وشدة المحن ؛ الا وهي فضيلة الثبات ؛ تلك الخصلة

الجالبة المجد والفخر لمن ازدان بها ، والنازلة منزلة الاكليل المعقود على هامة بقية الفضائل اخواتها . بدون الثبات لا يصبح المحارب ظافراً ؛ ولا يعود الظافر مكللاً . انزعوا الثبات ، فلا يبقى للخدمة ثمن ، ولا للاحسان شكران ، ولا للقوة ثنآء . انها لفضيلة نادرة جداً ، وعدم وجودها او قلته آفة عصرنا او آفة آفات بلادنا ، في مختلف اطوار الحياة ، وشتى المشاريع والمؤسسات . لان من طبعنا البشري التغير وعدم الوقوف على حالة واحدة ؛ ولان الزمان هدام كل شيء ومستأصل كل شيء ، لاسيما بيننا نحن ابناء الشرق ، ابناء الشمس الصاهرة . فان الحماسة تتولد بسرعة في قلوبنا ؛ لكنها تخمد ، لا بل تذوب كالشمع بسرعة اعظم ، عند وقوفنا تجاه الحياة الواقعية .

دونكم عقبة اخيرة وهي خمود الهمة والقنوط . اننا عند ابتدائنا بالعمل نحس من ذاتنا بعزم مكين هذه المكانة حتى اننا لسلامة طويتنا لا يخطر ببالنا قابلية الاخفاق في مشروعنا . ها نحن اولآء منذ زمن مديد نناهض عيباً من العيوب . وقد ناصبناه بصلابة وجلد ، ظانين الظفر حليفنا . غير ان هذا العدو ، الذي خلناه مكسوراً او راقداً رقاداً مؤبداً ، يستيقظ فجأة فيطفر طفرة هائلة نفقد لاجلها توازننا الادبي ، فنكر القهقرى مغلوبين . وبعدئذٍ تتوالى الكرات الواحدة وراء الأخرى ، الى ان يأتي وقت نلقي السلاح صارخين صراخ الفشل والقنوط : هذا مما لا يطاق ، هذا من رابع المستحيلات . وان انتم سعيتم في خير الغير ، لقيتم مثبطات أخر للهمة . انكم تبذلون كل عزيز لديكم في سبيل فريق من الانام . فلمصلحتهم تضحون نفوسكم ، ناسين مصالحكم الخاصة ، ولولا تدخلكم المنزّه عن الغرض ، لكان نصيبهم الخزي والعار ، والبوار والدمار ؛ فانتم اذاً أهلٌ للثنآء والامتنان . لكن ان صادفتم هؤلآء غريقي بحر افضالكم ، تروهم يتجاهلونكم ، لا بل يهينونكم بنسيانهم أو تناسيهم ، انتم أصحاب المنة عليهم . تجدّون

في مناصرة قضية من القضايا الاجتماعية ، واقفين ذواتكم ومواهبكم واوقاتكم حتى مالكم في سبيل انجاحها . الا ان اولئك الذين كان مفروضاً عليهم مؤازرتكم يفرغون كنانة جهدهم في عرقلة مساعيكم . وذلك حسداً منهم لكفاءتكم وحسن ادارتكم ، وخشية كسفكم انوارهم الضئيلة بساطع ضيآء فضلكم المتلالىء .

هذا هو حال عصرنا بمحاسنة ومعايبه . وهذه هي حالة الاخلاق فيه متفاوتة الدرجات بين الحسن والقبيح ، بالنظر الى الآداب المثلى ، الآداب الشهمة النبيلة ، الواجب ان يتلالأ نورها في حياتنا الاجتماعية . فلنرَ الآن كيفية السعي والوصول الى التجمل بحميد الاخلاق .

القسم الثاني

كيفية التحلي بالاخلاق النبيلة لمقاومة الرذائل العصرية .

ان الانسان متضارب الاحوال بالنسبة الى اطوار حياته . فان الولد في نعومة اظفاره تتلاعب به الاميال والاشواق متتالية دون انقطاع . تؤثر فيه العوامل على اختلاف انواعها . وتنفذ فيه التأثيرات خارجيها وداخليها . يظهر فيه شيء من العناد ، غير انه خلو من الافعال الارادية .

فان نما الصبي وترعرع فاصبح شاباً يافعاً ، تجلى فيه الفرق الجسيم عما كان عليه قبلاً . ففي طور الصبوّة ، كان من الهيّن حمله على قول ما يريده غيره ، وجذبه يمنةً أو يسرة . فقد كان في سائر هذه الاحوال متأثراً في اعماله بارادة غريبة ، أو بدافع الغريزة ، أو بركوب رأسه . أما في عمر الشباب ، فهو عارف ما يريد ولماذا يريد . يتوخى مقصداً من المقاصد ، فيسعى في ايجاد الوسائل المؤدّية اليه ، فيستخدمها ، ولا

قبل لشيء أن يصدّه عما ارتسمه لذاتـــه من الخطط . للرجل منفسح لتركيز انتباهه ، ومراقبة حركاته ، واستغلال قواه ؛ فهو سلطان ذاته. أما الولد فهو عرضة للعوارض الطارئة ، والمؤثرات الخارجية . علة ذلك ان في الصبي كانت قوة ، وهي الارادة ، بلغت ، مع نموه ، الى أوج ازدهارها بفعل المسببات الطبيعية والأدبية . الصبي لا يعرف كيف يشاء ، لا بل هو عاجز عن ابراز فعل ارادي . أما الرجل فيعلم انه مريد ، وفي وسعه الارادة . فقد خضعت فيه هذه القوة لسنّة التطور والتكامل .

غير خافٍ ان المشيئة قوة من قوى النفس مهمّتها جعل المرء يعزم بتفكر ووجدان على اتيان عمل يختاره . والحال تدلنا الخبرة من الناحية الطبيعية ان كل الطاقات من شأنها النمو والتوسع . ولنا في في جسدنا برهان ساطع على صوابية هذه القضية . فان عضلاتنا تنمو وتلين بالرياضة البدنية . ومثل هذا المشهد جارٍ في قوانا العقلية . اذ بعد ان يكون العقل مظلماً في الصبي لا يبرق في افقه سوى بعض الوميض ، يأخذ باللمعان والتلالؤ في الفتى الراشد كلما اكتسب معارف جديدة . وما الغاية من التحصيل في المدارس الا انماء هذه القوة . كم من الانام كان يُتخيل فيهم ، أوان صباهم ، علائم العبقرية ؛ لكن لحرمانهم من نعمة التثقيف ، لم يبلغوا ما كان يتوسّم فيهم .

على هـذا النمط الارادة ايضاً ، ومثلها مَثل بذر زهيد انتزعته هَبّة ريح ؛ فاختلط بحصى الطريق واوراق الخريف اليابسة المتناثرة على الحضيض . فاذا بحفنةٍ من الثرى غطته ، وقطراتٍ من الماء سقته ، وأشعةٍ من الشمس أحمته ؛ فاخذ ينمو نمواً ضئيلاً ، استمر مدةً منتفعاً من الماء والشمس والهواء . فاذا هو يوماً قد أصبح شجيرةً قويّة صلبة . وعندئذٍ هبّت العاصفة فهزّت اغصانها ونزعت أوراقها ، لكنها قاومتها .

وبعد ان كانت غرسة ضعيفة ، اضحت دوحةً باسقة ، ثابتة ، غير متزعزعة ، ثبوت الجبّارة وسط الغابة .

اذن شأن الارادة التوسع ، على مثال كل قوة . بيد ان نموها ، على خلاف القوى الماديّة ، لا يعروه حائل ، لعدم وقوعها تحت سيطرة المادة . التروض يلين عضلاتنا . لكن يأتي يوم تصيبها النهاكة ، بسبب تلف الالياف ، فتزول رويداً رويداً لينتها وصلابتها . أما الارادة فلا قدرة بشرية في وسعها عرقلة سيرها الجريء ، ووضع حد لتوسعها . نعم انها قوة مرتبطة بالاعضاء البدنية ، ومنوطة بالقوة العقلية ، مما يدفعها الى اتباع مصير هذه وتلك . فاذا اظلم الادراك ، تاهت الارادة ؛ وان ألم بالبدن بعض الخلل ، خارت المشيئة ، ان لم تقاوم مقاومة شديدة ؛ وان اصاب الدماغَ شيء من الكلوم وتحطمت مراكز الحركة ، فهناك الدمار لكن اذا استمرت كل هذه الاعضاء صحيحة ، فالارادة ، كالقلب المجدد دائماً شبابه ، قادرة على النمو غير المنقطع ، حتى تبلغ الكمال الجدير بكل خليقةٍ التوقان اليه ، وان كان محدوداً طبعاً ، لكونه بشرياً كسائر البشريّات . في مكنة الارادة البقاء قوية متينة في نفس شيخ هرِم قد اعترته رعشة الموت ، كما هي صلبة في نفس شاب مفعم نشاطاً ومتقد حماسة . الفضيلة لا يخطها المشيب ؛ فهي مستمرة نضرة ، بديعة المحاسن ، رائعة الجمال ، كالغادة الهيفاء يوم الزفاف .

على ان هناك فريقاً من الانام ، ولاسيما بين معشر الشباب من الشقين ، في عصرنا هذا ، عصر الرفاهية ورغد العيش ، يحاولون التملص من تجشم العناء ، عناء اكتساب الشهامة في الاخلاق ، بغيةَ الاستمرار في حالة الضعة والخمول دون وخز في الضمير ، فيتشبثون بوهن طبيعتهم مدعين انهم ولدوا ، دون ذَنب منهم ، وهناء خَلقاً وخُلقاً . فيرومون البقاء على ما هم عليه ، بما ان طبعهم لا يتغير ؛ فيقضون سحابة العمر بهدوء ورخاء البال . انها والحق يقال لفلسفة غريبة في بابها الفلسفة

القائلة ان الفضيلة مسألة مزاج . بيد ان ما تنتجه ليس رجالا اشداء حزماء ، بل عصابات من الخلعاء . الحق انه ليس أحد من بني البشر الا وفيه جرثومة تجعله يوماً قديساً ، أو جرثومة يصبح بها ابليساً . اذن كل البشر خليقون بالتهذيب الادبي .

اراد احد الفلاسفة الاقدمين ان يثبت لاهل وطنه اثباتاً جلياً حسياً ان كل تهذيب قائم على التريض . فعمد الى الوسيلة التالية : يوماً من الايام اذ كان ابناء البلد مجتمعين في الساحة العامة اتى بكلبين ، فاطلقهما ، بعد ان وضع على مسافة منهما ارنباً حياً ، وصحناً فيه لحم . فما كان من الاول الا ان ركض ورآء الارنب ، وارتمى الثاني على اناء اللحم . واذ لم يفهم الجمهور هذا اللغز ، قال لهم الفيلسوف : « ولد هذان الكلبان من اب واحد وام واحدة ؛ بيد اذ كنت قد روضت كلا منهما ترويضاً مختلفاً عن الآخر ، اصبح الواحد صياداً ، والآخر شرهاً . فهذا الحال يكون حال اولادكم ، فينشأون شجعاناً او جبناء ، طبقاً للتربية التي تربونهم على اصولها . »

لا يولد الانسان في العالم بطبع غير متغير ، كما يزعم طائفة من الفلاسفة ، ولا ، كما يدعي فريق آخر منهم ، أن الخلق يتفجر فجأة تفجر المياه المحتبسة ، نحو الثلاثين أو الاربعين من العمر . كثيراً ما تشبه نفسنا بحقل ينمو فيه في آن معاً الاعشاب الجيدة والاعشاب الرديئة . وقد تتطلب حراثته احياناً الاستعانة بغيرنا . من هنا نشأت مهنة المهذبين . بيد ان السهم المهم عائد الينا . وفي هذا القسم من العمل لا مندوحة لغيرنا للقيام مقامنا . فيتحتم علينا الاقدام بعزم وشهامة على الولوج بين الادغال والعليق والاشواك ، والعمد الى القطع والتقليم والتشذيب ، مما به يسهل الطريق للنور والحرارة والهوآء لتنتشر في جوّ اميالنا الصالحة التي من طبعها التوقان الى الحياة والنمو .

هناك حقيقة واقعية ان الطبيعة لا تغمرنا جميعاً بمواهبها الحسنة

على حد سواء . اذ فوق رأس الطفل الفاتح ناظريه لنور العالم تحوم عقبان آثار الماضي . والدم السائر في عروقه ينقل بذور الفضيلة وحياتها، أو جراثيم الرذيلة وموتها . وما حياتنا الا مواصلة حياة ابائنا ؛ وتشعر اعناقنا بثقل ما افرطوا به . الطبيعة محكمة سرّية ، واحكامها جارية خالدة . الخليق بالحفدة الرازحين تحت وقر آلامهم المبرّحة ان يجدوا اسبابها في شطط أجدادهم .

سنّة الوراثة العضويّة ، والوراثة الخلقية ، حقيقة اثبتها العلم ذاته . فان الصحة البدنيّة ، والنشاط العقلي ، والاستعداد الخلقي ارث يخلفه لنا اباؤنا . وما شخصيتنا سوى ثمرة القوّات الماضية ؛ ونتيجة عمل الزمان . غير خافٍ ان الادواء النافذة في الدم تسري معه . وبفعل التآلف الواقع بين النفس والجسد تؤثر معايب البدن في الروح تأثيراً مشؤوماً ، مما ينجم عنه ان ابناء الجبناء يكونون جبناء ؛ وابناء الكذبة كذابين ؛ وانجال الشجعان شجعاناً ؛ وانجال الصالحين صلاحاً ؛ واعقاب الاردياء أردياء . كل ذلك ، دون ريب ، مع فرض الشذوذ لهذه القاعدة في سائر الاحوال ، والمحافظة على سلطة وحقوق وقوّة الحرية البشريّة .

هناك اعتراض على هذا القول وهو : ان كانت الحال على هذا المنوال ، فمن العبث طرق باب البحث عن تقويم أوَد الطباع ، والاتصاف بشهامة الاخلاق ، بما ان كل امرىء متحمّل أوزار ذنوب ابائه . فان كانوا فاسدين ، كان هو فاسداً لا محالة ؛ وان كانوا صالحين ، فهو يكون صالحاً من باب الضرورة . الرد على الاعتراض هو : اجل ، بفعل سُنّة التأسّل يولد البعض مزدانين بصفات حميدة تعينهم اعانة فعالة على اتمام المفروض عليهم من الواجبات ، ممهّدة في وجههم سبيل السير والرقي نحو المثل العليا . أما الآخرون فهم ، منذ نعومة اظفارهم ، منحنون تحت عبء الاسقام ، وملاقون في طريق الفضيلة عقبات

كأداء تؤخرهم وتثقل خطاهم . للفريق الواحد تنزل ممارسة الاعمال الصالحة منزلة الافعال الطبيعيّة ، وللفريق الثاني هي بالحق ضرب من العناء الجسيم ، المتجدّد كل الساعات .

أمّا فرضنا جميعاً فهو قائم على مناهضة الاميال الفاسدة الآتية الينا عن طريق الوراثة ، والتي في مكنتنا ، على كل حال ، التخلص منها بمقدار وافر . لكل منّا مزاج خاص . فعلى كل منّا درسه وفحصه ، قصدَ اصلاحه ، وبغية استغلاله في سبيل الخير ، اذ في ذلك كل الفائدة . أجل ، لنا عيوب — وسبحان من لا عيب فيه — فعوض اضاعة الوقت في التأفف والتحسّرات العقيمة ، لنبادرنّ ، بعزم ونشاط ، الى استئصالها من نفوسنا . وهذا اسمى شرف للانسان ، اي ظفره ، بقوة ارادته وفضيلته ، بعاهات الطبيعة ، واخضاعه دائماً الجسد لسلطة الروح .

نحن اذاً صنّاع خلقنا ومقوّموه . كل امرىء نحّاتٌ من شأنه اصلاح رخامه أو صلصاله ، الى ان يخرج من المادّة الخشنة ، مادة امياله المعوّجة ، تمثال شخص عاقل ، حرّ ، فاضل ، شهم ، حازم . لو كان لنا منفسَح لتغيير ملامح وجهنا ، فاي اعتناء كنا نبذل في سبيل تحقيق تلك الامنية ؟ لكنّا بحثنا عن أجمل المساطر نكوّن منها لنا صورةً مفرغةً في قالب الكمال ، وخِلقةً في اسمى الجمال . وكان كل واحد منا يبتغي ان يكون أغرّ الطلعة ، أبلج الغرة ، مشرق الجبين ، أزهر اللون ، اكحل الجفون ، أسيل الخد ، أدلف الأنف ، دقيق الشفتين ، حسن شآبيب الوجه . الى غير ما هناك من الصفات والمحاسن التي يتوق اليها عشاقها . ولذا يقول بعضهم اسفين : اننا مع كل ما يستنبطه لنا الفن العصري من الوسائل ، لا نتوصل الى تحسين حال محيانا النحِس الطالع . فجل ما في مقدرتنا تَوريتُنا لوقتٍ التشوه النازل فيه من جراء الزمان والعُمر والآفات والعلل .

أجل ، ان هذا لصحيح في ما يعود الى البدن . لان مصيره الى الاعتلال والهزال والاضمحلال . بيد ان الأمر ليس كذلك في ما يخص النفس وقواها . فنحن قاطبةً قادرون على تركيب هيئتها ، وتهذيب اطباعنا وتقويم اعوجاجها ، وتحسين وتجميل كياننا الروحي والادبي . ربما لا نبلغ الى نتيجةٍ خارقة العادة . فذاك ليس بضروري، لان الله لا يطلب منّا الا المتاجرة بالوزنات المسلّمة بيدنا . فالينا راجع استثمار هذه المواهب الممنوحة لنا من كرمه تعالى ، أو اهمالها عقيمةً دون ادنى ثمرة . ذلك لكوننا فطرنا أحراراً ، والرب عينه يحترم حريتنا . فعلى حسن أو سوء استعمالنا هذه المنح يتوقف رقينا أو انحطاطنا ، وبالتالي سعدنا أو تعسنا .

الخلاصة : العلم نورٌ بدونه يبقى العقل مظلماً . العلم غذآء العقل ، كما ان الجهل سمّ له قتّال . العلم منار يُهتدَى به في سبيل الحياة . العلم زينة المرء وجماله . العلم كنز ثمين لا تعادله كنوز الدنيا . العلم اساس التقدّم والرقي في كل زمان ، ولاسيما في عصرنا هذا ، فقد أتى بالعجائب والغرائب . بيد ان العلم وحده لا يكفي للعمران البشري، ان بقي مادياً لا ينظر الا الى المحسوسات . العلم دون الاخلاق عقيم، لا بل يضحي مصدراً للمضار المختلفة . في الانسان نفس متصفة بقوّتين هما الادراك والارادة . فالعلم راجع الى العقل ، والاخلاق الى الارادة . فمن اراد الفلاح والسير في طريق الحياة سيراً مرضياً ، سيراً مفيداً له وللمجتمع ، عليه ان يقرن العلم بشهامة الاخلاق . العلم ليس في مستطاع الجمهور ؛ لكن الاخلاق الحسنة لازمة للخاصة والعامة .

فالواجب اذاً ، واجبُ كل عاقل مدركٍ خطورة الامور ، الآخذ في العمل بجدّ في هذين السبيلين ، سبيل المعارف القويمة ، وسبيل الاخلاق الشهمة . وليمشِ فيهما على ضوء المبادىء الدينيّة التي هي أساس وطيد للعلم والآداب معاً . اذ بدون الدين لا علم صحيح ،

ولا آداب متينة . لان الله جل جلاله مصدر العلوم والاخلاق والدين الذي يأمر بهما .

فضلاً عن المنفعة الشخصية المتوقفة عليها القضية ، ان مصلحة المجتمع والوطن تتطلب ذلك . اذ ان المحيط في حاجة ماسة الى رجال ونساء، الى شبان وشابات ، حائزين من ضروب العلوم والفنون قسطاً وافراً، ومزدانين فوق ذلك بسيرة مستقيمة ، بقدرة على بذل النفس بسخاء في سبيل الخير العام ، وببأس وبسالة في مقاومة الضلال والشر . اذن الارادة الصارمة ، الاطباع المتينة ، اي شهامة الاخلاق ، هي مفتاح باب النجاح في ميدان الحياة الفرديّة ، والعائلية ، والاجتماعية ، اعني الحياة البشرية الحقة ، في كل زمان ومكان ، ولاسيما في عصرنا الحاضر وفي اوطاننا العزيزة . فمن اقبل على اكتسابها أفلح ، وهو بالغ الغاية المتوخاة في هذه الحياة . لان من سار على الدرب وصل ؛ ومن لم يركب الاهوال ، لم ينل الرغائب .

العقل السليم بين التصوريين والماديين

ان تأريخ الفلسفة لمشهد غريب . فقد تقع طائفة من المشاكل في عصر من العصور ، ويُعرَض لكل من هـذه المعضلات حلول شتى . فيقتسمها الفلاسفة والعلماء نازلين في ميدان الجدل ، وكلهم بين مهاجم مُنكِر ، ومدافع مُثبِت . والبشرية تصغي الى اقوالهم غيرَ متّبعة مذهباً من مذاهبهم المتطرّفة ، محتفظة برأيها المستنِد الى ما دُعي « بالحسّ العام ، أو العقل السليم . »

فما هو هـذا النور ، نور العقل السليم ؟ هو في نظر الانسانية مجموعة من المبادىء أو المعلومات الواضحة من ذاتها ، يَستمد منها الورى بواعث احكامهم ، وقواعد تصرّفهم . وهذا هو عين الحق . لان هـذه المبادىء هي حلول واقعية لسائر المعضلات المبحوثة في الفلسفة والعلم . اذ كيف يستطاع السير في السبيل القويم ، لو لم ندرِ التمييز بين الخير والشرّ ، وبين الحقّ والباطل ، وبين الجمال والقبح ، وبين كائن وكائن ، وبين الوجود والعدم ؛ ولو لم نقف على غاية هذه الحياة ، ووجود فاطر المبروءات وطبيعته ؟ وماذا كان يجري بنور النهى ، وماذا كان يحل بالمجتمع البشري ، لو وقع ارتياب في هذه المعلومات الراجعة الى اكثر الحقائق الجوهرية ؟ والحال ان هذه المبادىء الراسخة في ألباب جميع البشر ان هي الا أجوبة على هـذه الاسئلة : ما هو الكون ؟ ما هي طبيعة الاشياء ؟ ما هو مصدر المعارف البشرية ؟ ما هو الحق ؟ ما هو الخير ؟ ما هو الجمال ؟ ما هو مصير الانسان في هذا العالم ؟ هل هذا العالم صُنعُ المصادفة أو معلولُ علةٍ عاقلة ؟

اذن العقل السليم هو جملة حلول لهذه المشاكل المفحوص عنها في العلم والفلسفة . فهو فلسفة سابقة الفلسفه المعروفة ، لوجودها فطرياً وطوعياً في عامّة الضمائر ، بمعزل عن البحوث العلمية .

فعلى هذا الضوء ، ضوء العقل السليم ، قصدت البحث عن مذهبين من المذاهب الفلسفية ، وهما مذهب التصوريين المفرطين القائلين بان لا وجود الا للارواح وتصوّراتها ؛ ومذهب الماديّين المغالين الذاهبين الى ان لا حقيقة الا للمادة والاجسام . فابسط اولا المذهبين متآزبين ، ثم ارى اين هي الحقيقة المستندة الى نور العقل الرشيد والعلم الصحيح .

القسم الاول

من الصفات التي امتاز بها الانسان هي ميزة المعرفة ، المفترضة دائماً حدّين هما العارف ، غير المتغير ، والمعروف اي موضوع المعرفة ، ومن شأنه الاختلاف . وما يقع تحت انظار بصيرة المرء المتفكر ، اذا هو أعمل الفكرة ، ينقسم الى عالمين متضاربين ، نسبةً الى القوى التي يستخدمها في عمله . فهو يدرك بعينيه ويديه وبقية حواسّه الخارجية الاشياء الماديّة الموجودة خارجاً عنه . لكنه يقف بسبيل آخر على ما يجري في باطنه . فهو يعرف ما يلذّ له ، وما يحزنه ويؤلمه ؛ ويدرك ما يصدّقه أو يرتاب فيه ؛ ويدرى ما يرغب فيه أو يكرهه ؛ ويشعر بما يريده أو يتأمّله . وهو مطلع ايضاً على المنظورات البرانية هل هي مدورة أو مربّعة ، كبيرة أو صغيرة ، صلبة أو لينه ، جامدة او سائلة .

بيد ان جميع الناس متباينون غاية التباين في استعمال هاتين القوتين المختصتين بالادراك . فعلماء الطبيعيات المحسوسات يوجّهون انظارهم الى مواضيع ابحاثهم الموجودة في الخارج . وكل ما يقتبسونه من العلم يأتيهم بهذا السبيل . ولذا نراهم موجّهين كل انتباههم شطر هذه الوجهة الخارجية ، عادلين كل العدول عن الناحية الداخلية . ولسبب تعودهم

عدم الاهتمام الا في المكتشفات التي يكتشفونها بمشاعرهم ، يؤول بهم الشأن الى نسيان قابلية الاستنباط بغير طريقة ، وفي ميدان غير هذا الميدان ؛ والى التوحيد بين فكرة الادراك بالنظر واللمس وبين فكرة اليقين والتأكيد ، مقنعين ذاتهم بانه من المتعذر على المرء التصديق الا بعينيه ويديه .

اما الفلاسفة ارباب النظر والتعميق ، القاضون سحابة عمرهم في مراقبة اعمال الفكر ، وتقلبات الاهوآء والعلل وحركات المقاصد ، غير المنفكين عن التأملات حتى وقت اكلهم وشربهم ، والسائرون في هذا العالم دون رؤية او سمع او ملاحظة شيء البتة في الخارج ، فانهم لشدة استغراقهم في التبصر في ماجريات حياتهم الجوّانية ، ينقبض عقلهم برمته في النظر الباطني ؛ فيبقى العالم الخارجي غريباً عنهم غربةَ العالم الداخلي عن علماء الطبيعيات ؛ فيتجلى لهم الوجدان تجلي المصدر الوحيد لكل علم حقيقي ، ولكل يقين ثابت . فلا يثقون الا قليل الثقة بحواسهم ؛ لا بل يجنحون احياناً الى تصور العالم المادي خيالا وهمياً .

وان سئل احدُ الفريقين عما في وسع المرء معرفته معرفةً اكيدة ، فلا مرية في ان فكر اهل الطبيعيات يتجه حالا الى الاشياء الخارجية الواقعة تحت حواسهم ، وخاطر فلاسفة التصور التجريدي ينثني الى الحوادث التي يوحيها اليهم وجدانهم . هذا هو ميل كل قبيل من هؤلآء المفكرين . لا بل هناك بين الطبيعيين اشخاص متهورون ينكرون تأكيد الظواهر الداخلية ، كما يصادَف بين التصوريين من يجترؤون على جحد تحقيق الاشياء المادية . واذا احتدم الجدال ، فكل حزب بما لديهم فرحون . لان هذا هو سير العقل البشري في سبيل المذاهب والاحزاب والتعصب الأعمى .

بيد ان العقل السليم يدلنا على ان هذين المذهبين منافيان معاً .

اذ من المتعذر علينا معرفة ما يجري في داخلنا بعيوننا وايدينا ؛ بما ان عيوننا لا تراه ، وايدينا لا تلمسه . كما انه من الناحية الأخرى نحن عاجزون عن الشعور بالعالم البراني بوجداننا ؛ بما ان هذا العالم الخارجي ليس فينا . ولهذا لا مندوحة لقوتنا المدركة ان تعلم بطريقة واحـــدة ما هو راكز فينا ، وما هو خارج عنا . ومن الضروري التغاير في طريقة الوصول الى هذين العالمين . فسواء ادرك عقلنا الخارج بالعينين ، او تأمل الداخلَ بالوجدان ، يبقى في كلا الحالـــين هو العارف بذاته . فان انكِرت شهادة البصيرة في احد الحالين ، تعذرت الثقة بها في الآخر . وان صدّقنا الحواس ولم نصدّق الوجدان ، او ان ايقناً بالوجدان وجحدنا الحواس ، نجم عن ذلك في وقت معاً تصديق العقل وعدم تصديقه . وهذا ضرب من المستحيل . وكل من هذين الرايين يجنح الى مذهب من المذهبين المفرطين ، مذهب التصوريين المغالين الجاحدين وجود المادة ؛ ومذهب الماديين النافين وجود الروح .

اما في نظر المصدقين من الناحية الواحـــدة بما يرونه بعيونهم ويلمسونه بايديهم من الاشياء الخارجة عنهم ، ومن الناحية الأخرى بما يشعرون به بقوة وجدانهم من الامور الداخلية ، فيوجد نظامان من الظواهر متميزان ، وكلاهما حقيقيان معاً . في الخارج المساحة والشكل والصلابة في الأجسام ، وفي الداخل السرور والألم والفكر والارادة . بيد ان المساحة او الصلابة ليست صرف ظواهر طائفة في الفضاء ، بل هناك شيء ليست هذه الظواهر الا خواص له . هناك شيء حقيقي يوقنون به وهو المدعوّ مادّة . كذلك من المحال الفرض بان اللذة والألم غير متعلقين بشيء هو المستلذّ ، وهو المتألّم . وكذا من المتعذر ان يكون فينا فكر وارادة ، دون وجود شيء مفكّر ومريد . ولذا يسلم ارباب العقول السليمة بوجود حقيقةٍ تحت الظواهر الداخلية ، كما يوجد حقيقة تحت الظواهر الخارجية . واذ كان هذان النوعان من

الظواهر غير متشابهين، ايقنوا ان الموجودَين اللذين يبرزانها مختلفان. وهذان الموجودان واحدهما يُشعَر به في الداخل نشيطاً، حساساً، مُدركاً، ويدعى «النفس او الروح»، وثانيهما خارجاً يُرَى ممتدّاً، صلباً، ملوّناً، ويسمّى «المادة».

اما التصوّريون المغالون فهم شبه رجلين معدم كل واحد منهما جزءاً ضرورياً للمعرفة. واحد محروم الحواس الخارجية: فلا نظر له، ولا لمس، ولا ادنى شعور بالاشياء الماديّة. والآخر خالٍ من كل شعور بما يحدث في داخله: فلا يرى سوى الخارج؛ وفي الخارج، الا اشياء ممتدة، مشكلة، صلبة. فالاول من هذين الرجلين يكون جاهلاً نصف الاشياء، اي الخارج والمادة وخواصها؛ والثاني يمسي غير عارف النصف الآخر، اي الداخل والروح وافعاله. ولا واحد منهما يستطيع الاعتقاد بما يجهله. وكلاهما يتخيل ان لا وجود الا لِما يشاهده، اعني اما الروح واما المادة؛ واما العالم الدخلي، واما العالم الخارجي.

اجل ان التصوري له حواس؛ لكن لا يريد ان يصدق ما تريه. والمادي له وجدان؛ بيد انه لا يؤمن بما يجعله يشعر به. غير انه مهما عمل الاولون، فلهم عيون وايدٍ وآذان؛ ومهما احتج الاخرون، فهم شاعرون بالحياة الباطنية. ولا يزال الاعتقاد العام، اعتقاد العقل السليم، ينادي فيدوي صوته في آذانهم: «النفس النفس، المادة المادة» ولذا يضطر كل فريق الى ان يفسر ما هي النفس، وما هي المادة.

ان التصوري يحس بوضوح بوجود الحقيقة الداخلية. وهي في نظره مثال كل حقيقة. ولتعوده تصورها علة عاملة، شاعرة، عاقلة، مريدة، يعسر عليه فهم جوهر عديم الحركة والحس والادراك، كما هي المادة. فطبقاً لمبادئه، يفحص ما يوحيه اليه الوجدان في شأن المادة. وبعد تحليله مختلف ظواهر العالم الداخلي يقر بانها على نوعين: منها ما يصدر عن الموجود الباطني ذاته، ومنها ما يلج فيه من الخارج. والظواهر

الخارجية قسمان : احساسات طيبة او كريهة ؛ ثم صُور امتداد واشكال وصلابة والوان . وحسب ذوقه ، هذا كل ما نعرفه من الخارج ، ومن ثم من المادة . وهذه الاحساسات او الصُور هي ظواهر فينا ، مثل افكارنا وذكرياتنا ومقاصدنا وافعالنا . وليست صُور المساحة والصلابة والشكل بصفات حقيقية لموجودات صحيحة خارجاً عنا . لان ذلك وضعُ ما في الداخل خارجاً ، وافتراضُ وجودٍ مستقلٍ لتغيرات داخلية . اذ لا وجود للحلو والمر ، والحار والبارد ، ان لم نكن في الوجود . لان هذا كله احساسات فينا . ووجود المساحة والشكل والصلابة قائم على وجود ادراكنا . لان هذه كلها تصورات فينا . هكذا يفسر التصوريون وجود المادة والاجسام في العالم الخارجي . حتى ان احد الفلاسفة القدماء المتبعين هذا المذهب كان يسعى في اثباته اثباتاً حسياً عملياً . فكان عند سيره يفترض ان لا وجود للحيطان والابواب والعواميد والاشجار والجبال والوديان والأنهار . مما اضطر تلاميذه الى مرافقته خشيةً عليه من الاصطدام بحائط او عامود او شجرة ، فيتهشم بدنه ، او يشج رأسه ، او تقلع عينه ، او تنكسر كتفه ، او يقع في بئر او نهر . وذلك لحسبانه ان لا وجود لكل هذه الأشياء المادية الا في عقله .

اما الماديون فلتعودهم حصر ادراكهم في عيونهم وايديهم ، تتولد فيهم نفس النتيجة التي تولدها العادة المعاكسة في التصوريين . فلا يفقهون من الحقيقتين الا واحدة ، وهي المادة او الجوهر الصلب الممتد المشكل الملون . فتصبح لهم المادة كل موجود . فلا يدركون الشيء العديم الصلابة والشكل والامتداد ، وغير الشاغل ادنى محل في الفضاء ، وغير الملموس ، والمبدا الخفي القائم كنهه في شعوره وعلمه وعمله ؛ كالذي يدعوه الناس « روحاً او نفساً »

واذا كان الماديون متطبعين بعادات عقلية ، فهم يجدون في اكتشاف

النفس بعيونهم وايديهم وانوفهم وآذانهم . وهذا ما يظنون اكتشافه: العالم مجموعة أجسام في عدادها الانسان . ولكل هذه الاجسام خواص جوهريّة واحدة ؛ وجميعها مركبة من اجزآء منبسطة مشكلة . في داخل جميعها أو على وجهها حركات متعددة تختلف بين جسم وآخر ، فتميزها . مثلاً : النبات ينمو ؛ الحجر لا ينمو . الحيوان يهضم ؛ النبات لا يهضم . فهذا ما يفرقها بعضها عن بعض . وتميزُ الاجسام قائم في طريقة التركيب . وهذا ما يجعلها تبرز ظواهر مختلفة . فاذا كان الأمر كذلك ، كانت النفس مجموعة هـذه الظواهر ذات الطبيعة الخاصّة القائمة في الجسم . اذ لو كانت النفس خارجاً عن الجسم ، لاقتضى امكان رؤيتها ولمسها وشمها ؛ أو أقل ما يكون لَلزم اثبات عجز الجسم عن اظهار مثل الظواهر . والحـال عبثاً حاول علمآء التشريح والاطبآء الجراحون بمشاريطهم وسكاكينهم سعياً ورآء الوقوف على وجود النفس في اي جزء من اجزاء الجسم ، من الدماغ الى القلب والى الكبد وغيرها ، فلم يلفوا أثراً لهـا . وهذه الظواهر المنسوبة الى النفس الا يجوز ارجاعها الى الجسم ؟ باي حق يُعزَى الى الجسم بعض الظواهر ، مثل الهضم والدورة الدموية ، ويرفض غيرها ؟ كل ظاهرة حركة . ولا يمكن تصوّرها خلاف هذه الصورة . وما الشعور والفكر والارادة سوى حركات مثل الهضم ودوران الدم والتنفس . وما ظواهر الوجدان الا نتيجة تركيب لجملة اجزاء مادية . فالنفس اذا هي المادّة ، كما ان المادة هي النفس .

هكذا يشرح المادّيون والتصوّريون اما الخارج بالداخل ، واما الداخل بالخارج . فهؤلآء لا يقبلون رؤية ظواهر المادة الا بالنتائج التي تولدها في الداخل ؛ واولئك لا يرضون مشاهدة ظواهر الروح الا في الحركات التي تبدو في الخارج . فاستنتج التصوّريون ان لا وجود للمادة ، واستنبط المادّيون بان لا كيان للروح .

القسم الثاني

بعد ان بسطنا في الجزء الاول من هذا المبحث المذهبَين المتناقضين المفرطين ، لِنرَ في الجزء الثاني اين هي الحقيقة .

الحقيقة ، مثل الفضيلة ، قائمة في الوسط ، طبقاً للمثل القائل : خير الامور الوسط ، حب التناهي شطط . الحقيقة التي نحن في صددها متوسّطة ، حسب نور العقل السليم ، والعلم الصحيح ، بين مذهب التصوريين المغالين ، ومذهب الماديين المفرطين . وهذا تبيان القضية .

المبدأ المستندة اليه الروحية والمادية المعقولة هو ان المادة موجودة وظاهرة في مختلف الاجسام . وهذه الاجسام تقسم الى قسمين كبيرين : الأجسام الجامدة ، والاجسام الحية . الجسم الجامد متصف كالمادة بخواص أهمها المساحة أو الامتداد ، والشكل ، والصلابة . والجسم الحي هو الذي ، فضلاً عن هذه الخواص ، يتمتع بالنمو والحركة . ويظهر الفرق بين الضربين من المقابلة بينهما .

كل جسم حيّ يبدأ بخلية تحويه كله ، لا بالفعل ، لكن بالقوة . وكل جسم جامد هو حاصل ، منذ أول دقيقة من وجوده ، على كل ما يمكنه ان يكون . كل جسم حي يقتبس من بيئته العناصر الضرورية لقوامه وتكوينه ، فيتمثلها ويوّحدها مع ذاته ، لا بل يجعلها ذاته . فهو كائن مفتوح ، مستغرق . وكل جماد لا يقبل في داخله جوهراً غريباً عنه من الخارج ؛ فهو مُغلق ، لا يلجه شيء . كل جسم حيّ لا يعيش الا بشرط ان يجدّد اجزاءه دون انقطاع ؛ فتتغير مادته دائماً ، مع بقاء صورته على حالها ؛ شبه التيار الذي في كل لحظة يبدّل امواجه ، دون تبديل عقيقه ، فيتوسّع ويكبر من الداخل ، فهو نامٍ . أما الجماد ، فان لم يصطدم بادنى عامل خارجي ، بقي كما هو طوال وجوده . واذا زاد حجمه ، فذلك لمجرد اضافة جسم غريب اليه ؛ فيمتد

من الخارج ، فيزيد ، او بالاحرى لا يمتد ولا يزيد ؛ لكنه بانضمامه الى غير اجسام يكوّن معها كومة اعظم ؛ مثل خمسين من الحصى تضاف الى خمسين اخر ، فيتكون من المجموع ركام . للجسم الحيّ اجزاء ليست متميزة وحسب ، بل متفاوتة القوام والخواص والافعال . اما الجماد فكل اجزائه متشابهة وذات طبيعة واحدة ، وقوة واحدة . الجسم الحي يقاوم التأثيرات المضرة ؛ وان عجز عن قهرها ، تساهل وخضع ؛ حتى انه يغير بمقدار وافر اشكاله وخواصّه . اما الجماد فلا يمكنه الا الكيان او عدمه ، فلا يتغير . في الحي تكون الخلية الاولية البؤرة المركزية لكل خواص الاجزاء وافعالها ؛ مما يتعذر معه مس واحد منها دون ان تشعر هي بذلك ، ودون ان تتأثر بقيّة الأجزاء . امّا الجماد فلا شيء فيه من كل هذا . اذ لو شُق حجر قطعتين ، لبقيت القطعتان مستقلتين الواحدة عن الأخرى ، كما كانتا مجردتين قبل ضرب المطرقة .

هذا ومن الضروري ان يكون لكل حيٍ مبدأ حيَوي متميز عن المادة التي هو كالها ، مفترق عن القوى الفيزيائية والكميائية ، وهو عين الصورة الجوهرية . اذ لو كانت المادة عينها مبدا الحياة لكان كل جسم حياً من ذات طبعه . واذ كان غير قابل القول بان كل شيء حي في الطبيعة ، تحتم التسليم بان كل مادة او جسم حي انما يحيا بمبدا مختلفٍ عنه . والحال ان جسم الانسان حي ، ومن ثم حاصل على مبدا حيوي ؛ وهذا المبدا الحيوي هو ما ندعوه « النفس » . فالناجم هو ان النفس ليست المادة او الجسم عينه ، بل هي كائن وجوهر متميز عنه . وبهذه النفس يقوم البدن ويحيا .

ثم ان النفس ممتازة عن الجسم ، وان كانت من طبعها متحدة به ؛ لانها بسيطة اي غير مركبة من اجزاء . والدليل هو انها بشعورها تدرك الاشياء المادية ادراكاً تاماً واحداً ، كادراكها الكتب والدفاتر ،

والحيطان والشبابيك والابواب والحجر وغيرها . والحال غير سائغ ان تكون علّة هذا الادراك كائناً مركباً من أقسام . لانه ، والحالة هذه ، امّا ان كل جزء من الاجزآء يدرك الشيء كله ، مما ينجم عنه معارف متعدّدة وتامّة لشيء واحد ، وهذا لا وجود له ؛ واما ان كل قسم يعرف معرفة جزئية ، فيكون اذ ذاك لكل قسم معرفته ؛ فلا توجد المعرفة التامة في ادنى محلّ ، مما يضاد الاختبار اذ الخبرة تثبت ان معارفنا معارف كاملة . وان فرضنا مركزاً يأتي فيه كل جزء بسهمه من المعرفة ، اقتضى ان يكون هذا المركز بسيطاً . لانه ان كان له اجزآء ، نشأت تلك الصعوبة عينها . وان كان بسيطاً ، فما انه هو النفس ، ثبت ان النفس غير مركبة ، بل بسيطة .

وقد جآء مصداقاً لهذه الحقيقة الاختبارات العلمية . وهذا بعض من امثلتها : عند بحثنا عن عظم من العظام ، نرى بالتتابع كل الاجزاء ، اي جميع ذرات هذا العظم ، ترسب فتمتص ، دون ان يبقى واحد منها ، بل كلها تسيل ، وكلها تتغير . لقد لفّ يوماً أحد العلمآء عظم حمام بحلقة من سلك من الذهب الابيض ، فلاحظ انه رويداً رويداً تغطت الحلقة بطبقات من العظم تكوّنت تعاقباً ، حتى انه بعد زمن لم تعد الحلقة في الخارج ، لكن في وسط العظم ؛ واخيراً وُجدت في داخل العظم ، في مجرى النخاع . فكيف جرى ذلك ؟ كيف يا ترى ان الحلقة التي كانت تغطي العظم اضحت مغشاة بالعظم ؟ كيف ان هذه الحلقة التي كانت في بدء التجربة خارج العظم أمست عند نهايتها في داخله ؟ كيفية ذلك هي انه بينما ، من الجهة الواحدة ، الجهة الخارجية ، كان العظم يكتسب طبقات جديدة تغشي الحلقة ، كان من الطرف الآخر ، الطرف الداخلي ، يفقد طبقاته القديمة التي كانت تمتص . صفوة القول : كل ما كان عظماً ، اي كل ما كانت الحلقة تغطيه ، عند وضعها ، قد أمتُصّ ، فتغيّرت كل مادة العظم ، اثنآء التجربة . وكلما

كرّر هذا الاختبار أو ما يضاهيه ، نجمت عنه عين النتيجة . فكل المادة ، اي كل العضو المادّي ، أو كل الوجود ، يظهر ويزول ، يتكوّن ينحلّ . لكن هناك شيء واحد يبقى ؛ اي الشيء الذي يكوّن ويحل ؛ الشيء الذي يولّد ويبيد ، اي القوة الحية وسط المادة ، والمدبّرة لها . اذن أمتن الاجزاء واصلبها في جسم الحيوان تتفكك كالبقية بتيار الحياة .

وما يقوله العلمآء الطبيعيون في تغيّر وزوال جسد الحيوان يثبتونه كذلك في شان بدن الانسان . وهذا قول من اقوالهم : الحيوان ، وكذا الانسان ، هو موجود ، أو صورة يعبُر دائماً في خلالها مجرى مادة ، فيأخذ منها الضروري له ، ويقذف النافل . وهو بهذا شبيه بجدول ، أو شلال ، أو لهبة . فالاجزاء التي كان مركباً منها قبل هنيهة قد زالت ، فلا يمكنه البقآء الا بشرط ان يأخذ منها جديدة . وهذا التغاير تغاير المادة الذي هو سرّ الحياة الحيوانية ، يجري بسرعة عجيبة . واتفاق النتائج التي حصلت بعد اختبارات شتى هو ضمان واقعي للفرضية القائلة بانه يكفي ثلاثون يوماً لكي يحصل الجسد على تركيب جديد . أمّا اعتقاد العامة بانه يلزم لذلك سبع سنين فهو من باب الغلو الفاحش غير المعقول . مهما يكن من المدّة لتجديد الجسم ، فمن المؤكد انه يتجدد بكماله في برهة قصيرة نسبياً .

فمن الصحيح والثابت علمياً بقرار العلمآء الطبيعيين قاطبةً ان كل ما هو مادة يعبر ويجري ويتبدّل . ومن ثم فكل رجل بالغ أو كهل قد تغير جسمه ، ليس جملة مرات ، بل مرات عديدة ، بحيث انه في العمر الذي بلغه لم يبق له شيء البتّة ، اي ولا ذرّة واحدة ، من جسمه الاول .

لكن اليس فينا يا تُرى شيء لا يعبُر ولا يتبدل ؟ على كل واحد ان يسأل نفسه : حين نفكر ونتذكر مجرى حوادثنا الشخصية ؛ عندما نلقي نظرة على كل هذه السلسلة من الواقعات المختلفة المكون منها

سدى حياتنا ، وعلى احوالنا الداخلية المتتالية والمتضاربة ، أفلا يشهد لنا وجداننا ، رغماً عن كل هذه التغيرات حولنا وفي باطننا ، ان هناك عنصراً ، لا بل كائناً موجوداً قد بقي فينا غير متغير ، موجوداً حاوياً وشاهداً كل هذه الحوادث الخاصة ، ومتحققاً ومثبتاً ذلك في هذه الساعة ؟ الا نقول : كنت صبياً ، انا اليوم رجل . كنت كارهاً العلم ، الآن انا راغب في التعلم . كنت مريضاً ، الآن قد شفيت . ويزيد ضميرنا اثباتاً ان هذا أل « أنا » الخاص بنا قد استمر في الباطن على حاله مدة حياتنا .

واذ كان العلم من الناحية الأخرى يؤكد انه من كل المادة التي تكون منها جسمنا ، منذ بدء وجودنا ، وأول حقبة من حياتنا ، لم يبق ذرة واحدة ، فماذا ينجم الا ان الذي يدعى « أنا » ، والذي يقول « أنا » ، والذي يتذكر ، والذي يقابل حالته الحاضرة باحواله الغابرة ، اعني الذي نسميه « النفس » ، ليس هو المادة ، ولا هو خاضع لسنن المادة . اذن النفس ليست المادة ، اذن النفس ليست الدماغ ، اذن النفس ليست اي جزء اخر من الجسد .

النفس ليست بسيطة فحسب ، بل هي روحانية . وهـــذا دليله : يكون العمل غير مادي مطلقاً ، متى كان موضوعه منزهاً عن الهيولى أو المادة مطلقاً . وهذا لا ريب فيه . لان القوة تبلغ موضوعها بالعمل . فاذا كان الموضوع فائقاً العمل ، مثلاً اذا كان الموضوع غير مادي والعمل مادياً ، عجز العمل عن الوصول الى موضوعه ، كما يقصر الواحد ان يفتح بيده نافذة على علو اربعة أو خمسة أمتار فوق رأسه . وهذه نتيجة المبدأ القائل : تجري الصنائع مجرى الطبائع ، اي ان العمل يتبع الطبيعة . مثلاً ان البنات لا ينمو نمو الحيوان ، وان الحيوان لا يأتي اعمالا انسانية .

والحال ما هي المواضيع التي تستهدف لعقلنا فيقبل اليها من باب

الافضلية ؟ أليست مواضيع العدل والشرف والفضيلة والحق والواجب والضروريات والمطلقات واللانهائيات ؟ فهل هذه الموضوعات التي نسمع عنها كثيراً ونفكر فيها ملياً هي ماديّة او غير مادية ؟ وهل الحق والواجب والآداب والفضيلة والشرف أجسام نراها باعيننا او نلمسها بايدينا ؟ هل هي موجودات ممتدة ، مشكلة ، صلبة ؟ واذا بحثنا عن الحقوق والادبيات والحريات والمنطقيات والفلسفيات محاولين تحديدها وتعريف خواصها ، هل نذكر لها طولا وعرضاً وعمقاً وعلواً ؟ وهل نقول في صددها النصف والثلث والربع والحجم والثقل ؟ كلا ! فان كل هذه الحقائق ، كما نفهمها جميعاً ، ليس فيها ادنى خاصية جوهرية من خواص المادة ، لانها باسرها لاهيُولية . والفعل الذي يبلغها ، والفكر المستطيع ادراكها هو بالكلية غير مادي . والقوة التي يصدر عنها فكرنا ليست مقيدة كلها بالجسم ، لكنها تفوقه . فهي فيه قوة حرة سامية في طريقة وجودها ، وفي اسلوب عملها . وكما ان الجسم عاجز عن منحها عملها ، فهي كذلك متمتعة بوجود لا تأخذه منه ، بل من ذاتها وحدها . وهذه هي خاصية النفس الروحانية .

ولمعترض ان يقول : ان النفس عاجزة عن التفكر دون مؤازرة المخيلة ، مما يثبت ان فعلها ، ومن ثم وجودها ، ليس فائقاً . الجواب : نعم ان المخيلة تقدم المادة الاولى لادراكنا ، لان الصور الحسية تأتينا من الاشياء الخارجية بطريق الحواس الخمس ، طبقاً للمبدا القائل : لا شيء يصل الى العقل الا عن سبيل الحواس . فتمر الصور المحسوسة في المخيلة والحس المشترك . وهذا الحس يقربها من المدركة التي تنزع عنها ماديتها ، فتحولها الى مُثُل روحية ، فيدركها العقل حينئذٍ ، اذ تكون قد اصبحت من طبعه .

زد على هذا انه ، حتى عند التفكر في الاشياء الماديّة ، ان ما يقع تحت قوة النفس هو غير مادي . دونك شجرة من الاشجار ،

كشجرة الأرز . فهذه الارزة التي نفكر فيها اليوم ليست تلك التي رايناها سابقاً . ومن الجائز ان مخيلتنا تتمثلها في غابة ، او على الطريق ، او في موضع اخر . فيتصور فكرنا شجر الأرز بالعموم ، وبالمعنى المجرد . فاذا اخذنا هذا الفعل وحللناه ، بلغ بنا الى الاستنتاج بان شجر الأرز « شيء ، حقيقي ، جوهري ، حي » وهي افكار اربعة عامة الى الغاية . فما معنى فكر الموجود ؟ هو الشيء الكائن او القابل ان يكون . وهل في ذلك مادة ؟ وما الشيء الحقيقي ؟ هو الدال على ان الشيء موجود او قابل الوجود خارجاً عن العقل الذي يدركه . وهل في ذلك مادة ؟ وما الكائن الجوهري ؟ هو الموجود بذاته ، وليس في غيره . وهل في ذلك مادة ؟ وما الكائن الحي ؟ هو الذي خاصته العمل الداخلي الراسخ . وهل في ذلك مادة ؟

وروحانية النفس هي التي تجعلها خالدة ، اعني غير قابلة الموت . الموت انفصال ، او تفكك كل مركب . لان كل مركب ائل الى الفساد والانحلال . لكن المركب الانساني من النفس والجسد ليس كله فاسداً ؛ لانه ليس باجمعه مادياً . فقد راينا ان النفس بسيطة وروحانية ؛ اي انها قائمة بذاتها ، ولها اعمال خاصة بها ، لا تفتقر الى الجسد في ادائها ، وهي التفكر والارادة . نعم هناك اعمال تؤديها بالشركة مع الجسد ، لانها متحدة به . الا انها بمعزل عن هذا لها مجال حيث تعمل مستقلة . ومثلها في هذا مثل تاجر يتاجر مع شريك له في تجارة هي ملك الاثنين . ولكنه بجانب ذلك له مال خاص يتاجر به على انفراد . فاذا انحلت الشركة ، لزوال المال المشترك بينه وبين صاحبه ، بقي له ماله الخاص الذي يمكنه به مداومة العمل في تجارته المستقلة .

يضاف الى ذلك ان هناك غريزة عامة في الكائنات ، وهي غريزة محبة الوجود والدفاع عنه . لان الوجود عزيز وطيب لكل مخلوق . فنرى الجماد يقاوم مؤثرات الهدم ؛ والنبات يحيد عن كل ما يضره ؛

والحيوانات تسعى في البقآء، بدليل حركاتها الجمّة. اخيراً نشاهد أتعس الناس واشقاهم، اذ ضمن لهم البقآء، تهللوا طرباً، مفضلين، مهما كانت شدة بلاياهم، الوجود على عدم الوجود. قد يمكن ان فريقاً من البشر يزهدون في الغنى والسلطة والامجاد؛ لكن ليس من احد غير راغب في دوام العيش. اذن من السُنّة الطبيعية توقان كل شيء الى الوجود. والانسان في هذا كغيره. على ان هناك فرقاً بيننا وبين ما يحيط بنا. ذلك اننا وحدنا في وسعنا ان ندرك، بقوة عقلنا، ما هو الوجود؛ وليس الوجود الحسّي المحصور في زاوية من الفضآء، أو في الزمان، لكن الوجود المطلق، الوجود اللانهائي؛ مما ينجم عنه ان شوقنا هو الى وجود لا نهاية له، وان فينا مبدأ الخلود.

ما خلا الرغبة في دوام الوجود، هناك التوقان الى السعادة. وهذا هتاف كل خليقة بشريّة. فاذن ينبغي القول ان في مقدرة طبيعتنا التمتع بهذا النعيم. غير ان الغبطة لا تتفق وقابلية فقدانها. لان من كان عرضةً للحرمان من سعادته، خاف؛ وان خاف تألم؛ وان تألم كان تعيساً؛ وان حصل في التعاسة فقد فقدَ السعادة. فاذ كانت نفسنا توّاقة الى النعيم الكامل، كان من الضروري ان تكون خالدة من طبعها. ثم ان النفس هي حياتها بذاتها؛ ولتعذّر تجرّدها من ذاتها، تعذّر عليها الموت. فلكي تنقطع من الحياة يقتضي لها الانقطاع عن ان تكون ذاتها.

مما يعزّز تعزيزاً عجيباً هذه القضية، قضية روحانية النفس وخلودها، هو اجمـــاع الشعوب والامم عليها، في سائر اصقاع المعمور، وفي عامة الازمان. والشواهد على ذلك لا تحصى، قديماً وحديثاً. فان هناك معتقدات مترابطة بعضها ببعض في الجماعات البشرية، كبيراتها وصغيراتها، الراقيات منها والمنحطات. فمن اقاصي المسكونة الى الى اقاصيها، يعتقد ابنآء آدم بعالم آخر غير عالمنا؛ وبكائنات سرّية

ذوات طبائع فائقة يتورعون منها ويكرمونها ؛ ثم بحياة مستقبلة معدة لقسم من وجودنا ، بعد انحلال بدننا وفساده . اجل ان الاعتقاد بالألوهية والايمان بالحياة الأخروية منتشران في كل مكان انتشار اليقين بالخير والشر ؛ والى هذا اليقين راجعة عادات وممارسات شتى يذكرها السياح . وهي متوقفة عند القبائل الأشد بربرةً على مثال ما تقوم عليه المظاهر الفخمة من ذات النوع بين الامم المتمدنة . فسواء كرّم الموتى بتشييد المقابر العظيمة ، وبناء الاضرحة المزخرفة ، أو سالت دماء الضحايا في اعماق مغاور الراقدين ، أو أودِعت أجسامهم في بطون الاشجار في الغابات لتحفظ زماناً اطول وتستريح بطمأنينة ، فالفكرة المستخلصة من هذه الممارسات هي ان الانسان يدوم خالداً بعد الحِمام بقِسمه الأشرف ، اي النفس ؛ وان النور يبقى ساطعاً على بقايا قسمه الآخر الذي كان يدعى جسداً .

والحال باي تفسير يُفسّر هذا الواقع المتواصل والمجمع عليه ، في حين نرى ان كل شيء متباين بين مختلف الشعوب : الاخلاق والعادات ، والتربية ، والاوهام ، والكفاءات والمشارب ، والعقول والطموح ، ذاك التباين الذي يفوق على اختلاف المناخ والبلدان ؟ ليس هناك الا شيء يعلل به هذا الاتفاق بين الشعوب ، ألا وهو اصغاؤهم جميعاً الى صوت الطبيعة الواحدة ، وتلقيهم تعاليمها الواحدة .

الملخص من كل ما بُسِط وأثبت في هذا المبحث هو ان العالم عالمان : عالم المادة والاجسام ، وعالم الارواح والعقول ؛ وان الانسان مركب من جسدٍ ونفس تحييه ؛ وهي متميزة عنه ، قائمة بذاتها ، لكونها بسيطة وروحانية وخالدة . هذه هي الحقيقة الفلسفية المستنيرة بضوء العقل السليم ، والخبرة اليومية ، والاجماع البشري ، في كل زمان ومكان ؛ مما ظهر منه ضلال المذهبين المتطرفين ، مذهب الماديين المفرطين بانكار الروح ؛ ومذهب التصوريين المغالين بجحد المادة .

المبحث فلسفي علمي . بيد ان نتائجه جاءت متفقة غاية الاتفاق والعقائد الدينية . لان الدين يعلمنا — كما يدلنا العقل السليم والعلم الصحيح — ان الله موجود ، وانه فاطر الكائنات باجمعها : جمادها ونباتها ، حيوانها وبشرها وملائكتها ؛ وانه صنع الانسان جسداً مادياً ونفخ فيه نسمة الحياة ، اي النفس ، فجاء به على صورته ومثاله . وقد أوجده في هذا العالم ليعيش فيه بموجب وصاياه ، فيسعده في الآخرة في النعيم الدائم ؛ مما يفرض ان نفسه روحانية خالدة . فالدين والعلم الصحيح متحدان لكونهما بمثابة نهرين صادرين عن ينبوع واحد ، وهو الله موحي الدين وملهم العلم . ومن المحال ان يناقض عز وجل نفسه بنفسه ، لكونه الحق بالذات . ومن ثم من المتعذّر تنافر الدين والعلم القويم . وان ظهر بينهما شيء من التناقض ، فذلك لجهل اهل العلم الحقائق الدينية الثابتة ، أو لان بعض النتائج العلمية ليست بناجمة عن تحقيقات صحيحة ، أو ان اربابها لم يدركوها حق الادراك ، ولم يدعموها بحجج دامغة .

والعقل السليم يحمل المرء على التمسك بمبادىء الدين المستقيم ، ونتائج العلم الصحيح . وهذا هو السبيل الامين الذي اذا سار فيه الانسان ، كان حظه السعد في الحاضرة والآخرة .

الملكية الفردية

قبل الولوج في هذا الموضوع ، يتحتم الوقوف ، بادىء بدء ، على ما يُراد بالملكية في العُرف الفلسفي والاجتماعي . فان الملكية تُحدّ عادةً بانها « حق استعمال شيء من الاشياء والتصرف فيه لمنفعة الانسان الشخصية ، بمعزل عن بقية الناس . » فهي اولا « حق الاستعمال والتصرف » لان حق الاستعمال وحده يدعى استئثاراً ، وحق التصرف بمفرده يسمى تملكاً محضاً . ثانياً « لمنفعة الانسان الشخصية » ولهذا لا يقال للمدبّرين والوكلاء ملّاكاً . ثالثاً « بمعزل عن بقية الناس » والا لم يَعُد الشيء خاصاً بل مشاعاً ، شبهَ الهواء ومياه البحار .

يدور محور البحث على اربع قضايا . الاولى : في صوابية الملكية الفردية . الثانية : في نقيضها وهو الملكية المشاعة . الثالثة : في طريقة اكتساب الملكية الفردية . الرابعة : في القيود التي تحدّد استعمال حقها .

القضية الاولى

في صوابية الملكية الفردية

يسوغ في هذا الصدد النظر الى الانسان من ناحيتين : ناحية حياته على انفراد ، وناحية حياته في المجتمع . في الناحية الاولى نجد له ثلاث حالات : الحالة الطبيعية ، والحالة العقلية ، والحالة العملية . وفي الناحية الثانية يظهر له حالتان : الحالة العائلية ، والحالة الاجتماعية . ففي اي حال من هذه الاحوال اعتبرنا المرء ، أمكنا ان نرى صوابية الملكية الفردية .

١ – الملكية الفردية وحالة الانسان الطبيعية

ان الانسان، لحفظ حياته، يستخص لذاته بعض الموجودات في العالم الخارجي، اي يمتلكها. اذ لو كان اضطر الى الاكتفاء بغلات الارض، واثمار الاشجار، وطرائد الصيد، لكان آل به الحال الى ضيق العيش، لا بل الى الهلاك في غالب الاحيان. فالامتلاك يسند حياته الى ركن ثابت يعمد عليه بامان. وحق الاقتناء، اي القدرة على الاحتفاظ والاستئثار بالاشياء اللازمة للعيشة بمعزل عن كل أحد، هو حقّ ذو علاقة وثقى بحق الانسان على الوجود.

ان ابن آدم المنعم عليه من فيض الجود الالهي بسهم وافر، سواء كان من الخيرات الخارجية المادية، أم من الخيرات المعنوية الروحية، قد نال كل هذه الخيور، لاستخدامها في سبيل رقيه الشخصي، ولكونه مفوضاً من قبل العناية الالهية لمعونة الغير. ان المالك ليس بقيم ولا مستغل. لكنه رب الأشياء التي تحت حوزته. وصوابية هذا التملك راكزة في الجبلة البشريّة عينها. فحق الملكية حق طبيعي. لانه اذ كان الانسان كائناً ثابتاً، وكان صورة الله بنفسه العاقلة، حق له التسلط على كل الخلائق تسلطاً طبيعياً. هذا هو الأساس الاولي والجوهري لحق الملكية. فمن الضروري غاية الضرورة، ان شئنا التعميق في كنه الاشياء، ان نعود الى النظام الذي رسمه البارىء تعالى لبراياه، طبقاً لدرجات كمالها؛ ذاك النظام الذي اهتم هو عز وجل في شرحه، في ما ينوط بسلطان الانسان على الاشياء الخارجية، بهذه الاقوال الواردة في سفر الخلق: «وبارکهم الله وقال لهم: انموا واكثروا واملاوا الارض واخضعوها. وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الارض.» وبعد الطوفان: «بارك الله على نوح وبنيه وقال لهم: انموا واكثروا

واملاوا الارض ؛ ولتكن خشيتكم ورهبتكم على جميع حيوان الارض ، وكل سمك البحر قد دفعت في ايديكم . وكل ما يتحرك وهو حي يكون لكم مأكولا كالبقل الاخضر . دفعت اليكم كل شيء . » وقد لخص المزمّر كل هذا بقوله : « ان الله أعطى الارض لابناء البشر . »

اذن الارض خاضعة لسلطان البشر العام ، فعلى المرء استخدام العناصر الطبيعية ، واستخدامها لتأمين عيشته . هذا حق جوهري ، لكونه ضرورياً لبلوغ المصير الانساني . وهو حق يشمل كل الاشياء ، ولاسيما الارض المغذّية المهمة للبشرية . وهو حق صادر عن الطبيعة الآدمية ، ومنتقل الى كل فرد من افراد المجتمع البشري .

هناك من يعترض قائلاً : ان الطبيعة ، اي خالقها ، قد منح الارض لكي يتمتع بها الجنس البشري كله . اذن حق الملكية ليس يستند الى الحق الطبيعي ، بل هو ناجم عن المصادفة ، أو العادة ، أو العنف ، اي عن تنظيم وضعي تابع . غير ان هذا القول ليس من الحقيقة في شيء . وذلك ان الله لم يعيّن نصيباً خاصاً لادنى فرد من الافراد ، بل اراد ترك تحديد الملكيات لهمة ونشاط الورى ، ولمنظمات الشعوب . هذا ومع ان الارض مقسمة الى ملكيات فردية ، فهي موضوعة لفائدة المجتمع . لان ليس من بشر لا يستفيد من اثمار الارض ، مما ينتج عنه ان الملكية ملائمة كل الملاءمة للطبيعة .

في الواقع ان هذا الحق العام للبشرية لم يبق في حال الابهام وعدم التحديد : لا بل يسوغ القول ان حالة المشاركة العامة أو الشيوع لم توجد قط . اذ نرى انه منذ البدء قد جرى بعض الاقتسام في الخيرات ، او نوع من الامتلاك . فان هابيل كان عائشاً عيش الرعاة ، وكان قائين يفلح الارض . وبعد الطوفان نجد نوحاً ، المدعو في التوراة فلاحاً ، يحرث الارض ويكربها ، غارساً فيها الكرم . وغير خافٍ ما يتطلب من الحذاقة الدقيقة هذا الضرب من الأكر . مما لم

يكن ليتفق والحياة المتنقلة ، لفرضه الاستقرار . فيجدر ان يسمى الملكية الفرديّة .

٢ — الملكية الفردية وحالة المرء العقليّة

عند البحث عن الحق الطبيعي ، لا يُنظر الى صورة مجردة ومطاليب وهمية ، بل الى مقتضيات الكائن البشري . ولتمييزه يكفي ملاحظة ما يفرق الانسان عن الحيوان . والحال هناك بون شاسع بين ابن آدم والخليقة العجماء . اذ ان البهيمة لا تدبّر ذاتها بذاتها ، بل الطبيعة تدبّرها بغريزتين ، الواحدة تستفز دائماً نشاطها وتنمي قواها ، والثانية تنبّه وتحصر في وقت معاً كل واحدة من حركاتها : الغريزة الاولى تحملها على الاحتفاظ بحياتها والدفاع عنها ، والغريزة الثانية تدفعها الى تكثير جنسها . وهذه النتيجة المزدوجة تحصل عليها العجماء بسهولة ، بفضل الاشياء الحاضرة الموضوعة تحت يدها . وهذا هو الحد الذي يقف عنده الحيوان ولا يتعداه .

أما الانسان فراسخة فيه ، من باب الكمال ، كل قوة الطبيعة الحسّية . فمن ثم يحق له التمتع بالاشياء المحسوسة . وذلك حسب النظام العام المتطلب وجود الخلائق الناقصة لمنفعة الكائنات الكاملة . ولذا نشاهد بين هذه البرايا الحسّية وبين الانسان تناسقاً متبادلا . اذ في هذه الموجودات استعداد غريزي ، أو دعوة خاصة لخدمة ابن آدم . وفي هذا الموجود البشري حق فطري للاستفادة منها ، اي لتوجيهها الى غايتها الخصوصية . بيد ان الحياة الحسّية ، وان مُلكت بكمالها ، فهي اضيق من ان تستوعب الطبيعة البشرية . وهي انزل من هذه البشرية درجةً ، وقد وُجدت لتصرف ابنائها . أما الانسان فالذي يميّزه تمييزاً جوهرياً عن البهائم هو العقل وذكاؤه . وهذه الفارقة الخطيرة هي التي تخوله السلطة الشاملة على استعمال الاشياء الخارجية ، وتمنحه الحق

الثابت الدائم على امتلاك ما هو منها قابل الاستهلاك ، كما في قدرته الاستيلاء على الباقي منها بعد الاستعمال .

هذا هو مطلب الفطرة الانسانية العاقلة ، اي مستطاعها لا الاستهلاك فقط ، بل الاستهلاك بنظام . وبالحق ان السليقة الانسانية فائقة على الظواهر الحسّية ، ومرتفعة فوق الحقيقة القريبة . فتقيم علاقات سببية متوقعة نتائجها . وعلى هذا المنهاج العام والمركب والمنتج يتوقف استعمال الاشياء الطبيعية . اذن لا يحصر حق الملك في الامور الحاضرة والدانية ، لكون عقل الانسان شاملاً كثرة من الشؤون المستقبلة ؛ اذ انه سلطان افعاله . ولهذا يصبح ، تحت سلطان الله وعنايته وشرائعه الازلية ، سنّةً وعنايةً لذاته ، مما يجعل له حق اختيار الاشياء التي يراها ملائمة ليس للقيام بمطلبات الزمن الحاضر فحسب ، بل بلوازم المستقبل ايضاً ، مما يستخلص منه حتماً ان تقع تحت سلطته ليس غلات الارض بمفردها ، بل الارض عينها ، الناظر هو اليها نظره الى رازقته المستقبلة لشدة خصبها . هذا ومن شأن ضرورات المرء الكرّ كرةً تلو كرة ، لانها غب ظهورها اليوم راضية ، ترجع غداً بمطلبات جديدة . فلزم لذلك ان تضع الطبيعة تحت تصرفه عنصراً ثابتاً ودائماً في وسعه ان يقدم له الوسائل . والحال ان هذا العنصر هو الارض وغلاتها الغزيرة . وهذا الاعتبار يولد حقاً طبيعياً للامتلاك .

٣ — الملكية الفردية وحالة المرء العملية

العمل أو الشغل هو الوسيلة العامة للقيام بسدّ حاجات الحياة ؛ مما يسوغ اطلاقه على شغل العقل كاطلاقه على كد البدن . لان عمل الجسد — اذا نظرنا اليه نظراً فلسفياً لاهوتياً — ليس بخزي ، بل هو شرف للمرء ، لتضمنه ذرائع العيش . وفخر الشغل هذا يأتيه من خاصةِ حاجةٍ جبلية ؛ فهو للانسان شبه الطيران للطير . والحال ان

العلة الجوهرية للجدّ والغاية القريبة المقصودة في عين العامل ، هي كسب المال المأمولة حيازته حيازة خاصة ، اي بمثابة امتلاك شيء راجع اليه ومنوط به . وتتحقق هذه الغاية بطريقتين ، اولاهما حين يشتغل العامل لحسابه ؛ ثانيتهما لمّا يضع تحت تصرف غيره ما له من القوى والصناعة . على كل حال ، الملكية الخاصة مطلوبة بالعدالة الواجبة للعامل .

اجل ان الارض تقدم للانسان بمقدارٍ وافر الاشياءَ اللازمة لحفظ حياته ، بل لكمالياته . بيد انها عاجزة عن ذلك من ذاتها ، دون عمل المرء واهتمامه وكدّه . والحال ماذا يصنع الرجل حين استهلاكه مذخرات عقله وقوى بدنه للحصول على هذه الخيرات الطبيعية ؟ انه يطبع طابعه الشخصي على الاشياء الطبيعية ، بحيث يملكها ملكاً فردياً ، فلا يباح لاحد انتهاك حرمة حقه ، باي طريقة كانت . ان هذا الحقل الذي فلحه العامل قد تغيّر من حالة الى حالة . كان بوراً وها هو الآن محروث ؛ وبعد ان كان عقيماً ، اصبح مخصباً ، فهل من باب العدل والانصاف ، والحالة هذه ، ان يأتي غيره فيدعي بملكية هذا الحقل الذي كربه ، وسقاه بعرق جبينه ؟ وكما ان المعلول يتبع العلة ، كذلك يجب ان تكون ثمرة الشغل عائدة الى المشتغِل . زد على هذا ان انتهاك حق العامل لخدمة غيره ليس باقل جسامةً من امتهان حق الفاعل الحرّ ، يمحو الملكية الفردية . لانه اذا قدّم للغير قواه وصناعته ، فذلك لتوقعه الحصول على ما به يسدّ حاجة حياته ، فينتظر من شغله ليس حق الأجرة وحسبُ ، بل حقاً تاماً على استعمالها كما يشاء . فان هو اقتصد ، وتمكن بتوفيره من شراء حقل ، فهذا الحقل يصبح ثمرة اتعابه ، أو اجرته المتحولة من حالة الى حالة أخرى . فيكون هذا العقار ملكاً للفاعل ، كما ان اجرة عمله ملك له . وهذا ، والحق يقال ، ما به تتكون الملكية ، ملكية المنقولات وغير المنقولات .

٤ – المِلكية الفرديّة وحالة المرء العائلية

الانسان كائن عاقل وحرّ ومن هذا القبيل أقررنا له ببعض الحقوق على الملكية الفردية . بيد ان هذه الحقوق البائن توطدها في كل فرد بذاته ، تتجلى بغاية السطوع حين ملاحظتنا اياها بالنسبة الى الحياة العائلية .

العائلة جمعية صغيرة ، لكنها جمعية تامة الشروط ، وسابقة لكل جمعية سياسية . فلها من ثم شيء من الحقوق ، وعليها شيء من الفروض ، بقطع النظر عن السلطة العامة فمن جملة هـــذه الحقوق حق الملكية الفردية الذي نسبناه ، باسم الطبيعة والعقل ، الى كل فردٍ ؛ فوجب نقله الى الرجل رب العائلة . ناهيك بان هذا الحق ، بانتقاله الى الاسرة ، يتسع باتساع الشخص البشري . تحتم الطبيعة على الاب واجباً مقدساً ، واجب اعالة وتربية بنيه . وبما ان الاولاد هم ، من باب الطبيعة ، توسّع الاب وامتداده ، لزم الاب الافتكار في مستقبلهم ، متوسلاً بانجع الوسائل لتأمين ما يساعدهم على ردّ طوارىء الحياة وصروف الدهر . لكن ايمكنه يا ترى ان ينقل اليهم هذا الحق ، حق الامتلاك ، ان لم يكن قد حازه هو اولا ؟

هناك طائفة من الاقتصاديّين ينكرون حق نقل الملكية بعقد ، او وصيّة ، او من باب الارث . لكن مدعاهم باطل . لان الناس قادرون على التصرّف حرّ التصرّف في ما يملكون ، بشرط ان يكون حقهم قابل النقل ، او لا يثبّط باصطدامه بغيره من الحقوق . والحال ، ولا واحد من هذين الامرين يحدث في شأن الملكية الفردية . اذن حين تثبت شروط العقود المفروضة اما بقوة الطبيعة ، واما بفعل الشريعة يتم نقل الملكية الفردية بحرية .

هـذا وليس الوصية سوى عطية غير نافذ مفعولها الا بعد موت

المعطي . والحال ان العطية ممارسة من ممارسات الملكية الاقل عرضة للانكار . ولا محل للاعتراض يتعذر العطاء بعد الموت ، اي حين يتسلم الممنوح له العطية ؛ لان الأول يهب وهو في قيد الحياة ، ويقبض الآخر بعد وفاة هذا المانح . بيد ان الارادتين ، ارادتي كليهما ، تتحدان اضماراً في الوصية المكتوبة والمقبولة طبقاً للاصول ، كما يجري الأمر في العقد المعقود بالمراسلة بين غائبين .

كذلك في امكان الابناء وراثة والديهم بوصية ؛ لان واجب الأب ليس الاقتصاد للساعة الحاضرة فقط ، بل لطول حياة ابنه ايضاً . هذا فضلاً عن ان الاولاد ، كما سبق اعلاه ، هم مواصلة وديمومة الآباء بحيث اذا زال الواحد ، قام عوضه الآخر .

٥ ــ الملكية الفردية وحالة المرء الاجتماعية

الملكية الفردية موطّدة النظام في المجتمع الانساني . اذ لو حدث ، بعد الغاء هذه الملكية ، ان يندفع الناس بغرائزهم الصالحة ، فيهبوا من سبات جمودهم ، عامدين الى النشاط في العمل ، والاقتصاد ، والتنظيم ، واستثمار رؤوس الاموال المشتركة ، فهذه الجهود تجري بنوع غير منتظم ، وخلواً من أسلوب وغاية . اذ كل فرد يستعمل آلاته دون تواطؤ على منهاج ، مما ينشأ عنه الاضطراب والاختلال في سائر طبقات المجتمع ، وعبودية مكروهة لا تطاق لعامة اعضاء الجمعية البشرية . ومعلوم ان وجود النظام متوفّر كل التوفّر في ادارة الاموال المعهودة الى مسؤولية رجل واحد ، على حين ان الخلل والتشويش يستوليان عند اهتمام الكل في سائر الشؤون .

الملكية الفردية هي ايضاً من بواعث السلام بين الورى ، لانه ان شاء بعض القوم اضطرار الجمهور الى العمل بنظام واتقان ، فمن المؤكد ، بفعل الخبرة ، انهم يبلغون الى حد تضحية القيم الضرورية

للمقام البشري ، من مثل الخيرات المهمة المتضمنة الفرح والسلام والغبطة والحرية في تصوّر الحياة وقضآء الايام .

اجل ، في النقابات المحكمة القوام ، يتحقق النظام الاقتصادي شبه آلة متقنة ، اذ ينال كل فرد حصته بديلَ عمل معيّن بأمر السلطة السائدة . لكن هل تُقضى بذلك الحاجات البشريّة التي لا يوفى حقها الا بطريقة بشرية ؟ بالحق اننا لا نفتقر الى العيش فقط ، لكن الى العيش عيشة انسانية . والحال في هذه الفرضية ، فرضية الوجود تحت حكم جماعةٍ مستبدّة مستعبدة ، يحيا الجمهور حياةً منحطة الى ما تحت المستوى البشري لان سائر تفاصيل وجوده وعلاقاته واعماله وراحته وحياته الروحية والعاطفية ونوعية افكاره ودرجة تربيته ، كل هذا يكون منوطاً بهوى مسيطر غريب عنه . فلا يعود هناك نشاط شخصي فوري ، ولا تبعة ، ولا تصرف مطلق . اذ ان ذلك كله يصادم رأساً الاميال الأشدّ بلوغاً ، والاكثر دواماً في البشرية .

أمّا الملك الفردي ، الموضوع لخير كل واحد ، فينشىء لذةً وغبطة . لان ملكنا ، مهما كان صغيراً ، فهو نتيجة عملنا ، أوْلا اقلّ من كونه الميدان الذي فيه يجري نشاطنا . وهذا الاعتبار يدفعنا الى محبته ، لا بل الى الاكتفآء به .

اذن من كل هذه الوجوه التي نظرنا فيها ، ينجم ان الملكية الفردية حقّ من حقوق الانسان الشرعية والصوابية .

القضية الثانية
في الملكية المشاعة

اذ كان الضدّ بالضدّ يُعرَف ، كان من الملائم ان نلقي نظرةً ، ولو خاطفة ، على ما ينافي الملكية الفردية ، الا وهو الملكية المشاعة ،

التي يدّعي انصارها بانها هي الملكية الشرعية دون سواها، لاستنادها الى الجمعية المؤلفة ديمقراطيةً شأنها ان تدير دفة مشاريع الانتاج. وتوزيع الثروات بين عامّة المواطنين.

فان شمل هذا الشيوع كل الخيرات دون استثناء، كانت الملكية المشاعة المطلقة. أما اذا امتدّ الشيوع الى آلات العمل فقط، فتلك هي المشاعية المخففة. وهذه الاخيرة تقسم الى مشاعية عقارية، اذا طبقت على الاملاك غير المنقولة لا غير؛ والى مشاعية صناعية، اذا كان الاشتراك في الاملاك المنقولة وغير المنقولة. أخيراً اذا سعى الجمعيّون (collectivistes) الى غايتهم بالوسائل المشروعة والتدريجية، دُعوا نظريّين؛ وبالعكس اذا عمدوا الى الطرق العنيفة، سُمّوا فوضويّين. أما اشتراكية الدولة فليست حجدَ الملكية الفردية؛ انما هي صرف تقييد مفرط لحرية المالك، بتدخّل السلطة العامّة، مثلاً، بين أصحاب الاموال والعمال.

١ — دحض المشاعية العقارية

اولا: المشاعية العقارية ليست بصوابية، لانها تضادّ نفسها بنفسها. اذ انها تنفي الملكية الفردية، وتثبت الملكية المشاعة. وهذا تناقض مبين. لانه اذا نفي حق كل فرد، فقد نفي حق كل مجموع. مثلاً: اذ هجم قوم من البرابرة على بلاد مخصبة، فيقولون لأهلها: «أليست الارضُ للجميع؟ فلماذا غير مباح الا لكم استيطانها؟ اذن نحن خليقون باحتلالها وطردكم منها.» هذا والمشاعية تنكر حيازة الاملاك غير المنقولة، وتقرّ ملك المنقولات. وهذا تناقض جديد. لانه ان كان وضع اليد على شيء لا صاحب له ليس بحق في الحال الاوّل، فهو ليس بحق كذلك في الفرض الثاني.

ثانياً: المشاعية العقارية ليست بصوابية، لقيامها على حجج واهية.

وذلك ان المساواة الطبيعيّة بين الناس هي في الواقع قضيّة بيّنة البطلان . لان الذكآء والحذاقة العقلية ، والقوة الادبية والبدنية ، هي كلها اسباب لعدم المساواة . أجل ، ان حق العيش حق واحد للجميع ؛ بيد انه لا يسوغ ان يستنتج من ذلك المساواة في حق امتلاك الارض ؛ اذ بدون اقتنآء هذه الخيرات ، في وسع كثيرين من البشر العيش من اثمار الارض .

ثالثاً : المشاعية العقاريّة غير صوابية ، لاستحالة تطبيقها أدبياً . بالحقيقة من الممتنع قسمة الارض بين جمهور الناس قسمةً عادلة ، لا بل غير مستطاع تجزئة الارض في اقليم من الاقاليم بين عامة سكان تلك البقعة . وهذه القسمة غير قابل اجراؤها للكل ، حتى لِمن هم عاجزون عن الشغل في الحقول . اذ لا تكون ابداً متساوية ، وتقتضي دوام تجديدها ، بما ان البعض يموتون ، والأخر يولدون . هذا بمعزل عن انه حتى اليوم لم يتوصلوا الى ايجاد منهاج وافٍ ، معقول ، عملي ، لهذه الغاية .

٢ – دحض المشاعية الصناعية

أولا : المشاعية الصناعية غير صوابية ، لاعتمادها على أُسس باطلة واهية . انها بالواقع مستندة الى حجتين جديدتين : الحجة الاولى « نظرية القيمة » اي ان السعر الرائج للاشياء ، بموجب مذهب كارل ماركس ، المستمد من المذهب الاباحي ، لا يقوم الا على شغل العامل . والحال في نظام الملكية الفردية لا ينال العامل كامل ثمرة شغله . اذن هذا النظام غير عادل ، فواجب الغاؤه . هذا هو قياس « نظرية القيمة » . لكنا مضطرون الى انكار كل كبراه . مثال ذلك : من المتعذر على العامل الذي قبض نصف دينار ، أجرة صنعه حذآءً ، ان يشتري الحذآء المذكور ، وذلك لانه قد دخل في هذه البضاعة شيء آخر غير

شغل العامل .

الحجة الثانية : « نقد النظام الحالي » . يقول خصوم الملكية الفردية « ان هذا النظام هو نظام الحرية ، طبقاً للقول السائر : دعوا الامور تجري مجراها . هَبُوا الحرية للكل ، فيصدر عن ذلك اكمل نظام . والحـــال ان هذه القاعدة ، قاعدة مذهب الاباحية ، قد اثمرت أمر الاثمار . يضاف الى ذلك المزاحمة الشديدة ، حسب قانون تنازع البقاء الذي يستبط فيه الاكثر ضعفاً ضحيةً للاشد قوةً وبطشاً . كذلك القول عن الفوضى في الانتاج ، لسبب ما يحدث فيها من الافراط ، ممّا ينشأ عنه العُطلات الدوريّة المدهورة الفعلة في وهـدة الشقاء . اخيراً هناك البلبلة في التوزيع . من ذلـك مزاحمة الجياع العارضين شغلهم بابخس الاجور ، ممّا يكثر معه كل يوم عدد المعوزين ، وتنمو من الجهة الأخرى الثروة الطائلة ، ثروة المغبوطين القليلين . » فيستنبط الجمعيون ان نظام الحرية لم يتأت عنه سوى الحيبة المؤلمة . فلزم حتماً زواله ، لتقوم مقامه السلطة العامّة ، منظمةً الانتاج وتوزيع الخيرات ، حين تضحي الملكية مشاعة .

الرّد عـــلى هذا هو ان هذه النتيجة ليست بمحتواة في مقدّمة القياس . اذ انه بين الحرية الاباحية الجامحة ، حرية الافراد الجشعين ، وبين الحزبية المكروهة ، قائم حد أوسط ، الا وهو نظام الشركات الحرة التي تقدر فيها الجمعيات غير المشتبكة في المشاغب الانقلابية ان تنظم الانتاج وتقسيم الثروات ، حسب أوفى القوانين وأعدلها . ولهذا فمع المحافظة على حقوق الملكية الفردية ، يُردَع بحكمة عُنف النقابات الاباحية . ووسيلة هذا التجديد هي انشآء النقابات المأذون لها من قبل الشريعة في التدرّج بالاتحادات النقابية الى المجالس الاقليمية المرغوب فيها .

ثالثاً : المشاعية الصناعية غير صوابية ، لاستحالة تطبيقها ادبياً . اذ من المتعذر على ارباب الجمهورية توزيع الشغل على كل مواطن حسب

قواه وقابليته وحذاقته . فلمن تكون الاشغال اللاذة المحبوبة ، ولمن الاعمال الشاقة المكروهة ؟ لمن الصناعات اليدويّة ، ولمن المهن الحرة؟ وليس باقل استحالةً توزيع الثروات طبقاً لاستحقاق كل واحد . اذ ينفسح المجال للاخطاء والحيل ، والمظالم ، والمكائد ، مكائد الحزبية الجائرة .

الخلاصة : كل هذا كافٍ للتدليل على بطلان ووهمية وسيلة هذا النظام الحاتم قسراً تبديل حرية المواطنين المشروعة المعقولة بالسيطرة المقيتة ، سيطرة الحزبية العنيفة . لان السعي في اجبار جميع سكان الجمهورية المدنية على اتباع نظام اشد الرهبانيات صرامةً ، ان هو الا وهم شديد الخطر ، وخيم العاقبة .

هذا ومعلوم ان النظام الرهباني نظام كمال ، ومن ثم نظام فئة ضئيلة العدد بالنسبة الى مجموع الورى . وهو ليس بمحتوم البتة على عامة المسيحيين ، وباولى حجة على غير المسيحيين . ومن شرائطه الاساسية ألاّ يعتنقه احدٌ قهراً ، بل بملء الحريّة ؛ والا كان اعتناقه باطلاً ، لا الزام له قطعاً . وكذا القول عن حياة المسيحيين الاولين ، حياة الاشتراك او الشيوع في الاموال والمقتنيات ؛ فانها لم تكن اجباريّة ، بل اختيارية ، كما يتضح ذلك من الوارد في سفر اعمال الرسل .

القضية الثالثة

في طريقة اكتساب الملكية الفردية

ان صوت الطبيعة يدعو الى الامتلاك ، بيد ان طرائقه مختلفة ، ومتعلقة بظروف الزمان والمكان ، والتقاليد والاحوال الاقتصادية . فانه غلط فاحش ، وغلط تاريخي وادبي ، القول بان ملكية الارض منظمة ذات صورة ثابتة ، وذات حالة واحدة ، في حين انها بالحقيقة

قد اتصفت في الماضي بكثير من الهيئات ، كما انها اليوم خليقة بتغيرات هامّة . اذ لا يوجد للارض نظام واحد ، بل انظمة شتى .

مما لا مرآء فيه ان النظام اللائق لجمعية اعضاؤها مشتتون ، عائشون عيشة البداوة والرعاية ، في بقعة من الارض واسعة ، يختلف عن النظام الخليق بامة ابناؤها منحصرون في بقعة ضيقة ، راكزون في الارض ومزاولون اعمال الفلاحة . لكن مهما كان النظام السائد ، ينبغي ان يتعلق بالحالة التي خصت بها العناية الالهية تلك الامة . وليس من طريقة للتملك في وسعها ، دون امتهان حقوق البشرية ، ان تنزع عن الارض وظيفتها الطبيعية ، وهي ان تُنتج لسد حاجات البشر ، لا لاعانة هذا او ذاك .

لقد كثر الجدال في اي هو الفعل المحدد عملياً امتلاك الارض . هل هو وضع اليد ؟ ام هو الشغل ؟ وان كان وضع اليد ، فما طبيعة وشكل هذا الاستيلاء ؟ افردي ام اجتماعي ؟

الجواب : الفعل الخارجي المعين الامتلاك هو وضع اليد . وغاية وضع اليد هي المنفعة . والوسيلة المساعدة لوضع اليد على بلوغ هذه الغاية هي الشغل .

على ان الفقهآء والاقتصاديين يختلفون رأياً حين بحثهم عن الواقع الأولي المثبت عملياً حقّ الامتلاك . فالفقهآء يرتأون انه وضع اليد على موقع أو شيء لا صاحب له سابق . والاقتصاديون يرون انه الشغل . لكن الاختلاف بينهم ليس الا ظاهري . فان أنصار وضع اليد يقرّون بان المقصد من ذلك اعداد وتغيير المواد الواقعة في قبضة المرء بوضع اليد بغيةَ الانتفاع بها . والذين يطرئون الشغل لا ينكرون ان أول عمل من اعماله هو القبض على الشيء الذي لم يسبق له مالك ، والا نقصت المادة التي يجري فيها الشغل . فما وضع اليد الا ممارسة النشاط البشري على الأشيآء القابلة ان تكون موضوع سيادة الانسان .

وغايته اعداد الشيء المقبوض عليه وجعله مفيداً لواضع اليد. ممّا لا يسوغ حدوثه في بقاع واسعة وسع القارة. اذ كيف يقدر أحد الناس وحده ان يؤثر في فسحة من المادّة هذا امتدادها؟ وان ساعده غيره في عمله، فلا يعود الشخص الفردي مالك القارة، بل الجماعة. وبهذا تدرك الحدود المحدّده بالطبيعة لحقوق الملكية. وهذه الحدود، كما هي الحالة في شأن الحقوق عموماً، متأتية من داعيين: أولهما طبيعة الشيء الممارَس فيه الحق، ثانيهما الواجبات المتوجّبة على الشخص المستعمل هذا الحق. فينجم عن ذلك ان لا حق لاحد بالادعآء بتملك هذا المدى الشاسع من الارض. اذ من المنافي كل المنافاة للعقل ان يستولي الواحد، مع مضرة غيره، على ما ليس بمفيد له، وهو ضروري لحياة الآخرين. يضاف الى ذلك ان هذا المقدار من الحق ناتج عن غاية الامتلاك، وهي جعل الشيء الممتلك نافعاً بالشغل الضروري لامتلاكه.

اذ كانت قوى الانسان محدودة، وجب ايضاً تحديد حق وضع يده. وان بقي في هذه المادة بعض الابهام، فلا عجب في ذلك. اذ كثيرة هي النقط الداخلة في دائرة الحق الطبيعي، والعقل عاجز عن توضيحها بجلآء. ممّا قام دليلاً على ان الانسان مخلوق طبعاً لحياة الاجتماع. فالعقل يبرز طائفةً من المبادىء، مفسحاً المجال للشرائع الاجتماعية، لتهتم بتطبيقها تطبيقاً مفصّلاً.

ان وضع اليد المعدود عادة في جملة حقوق الامتلاك يحصر في الشغل. لان كل وضع يد يفترض عملاً يضحي به المرء ربّ الشيء. ولذا فالامتلاك يمتد الى حيث تمتد العلاقات التي يقيمها شغل واضع اليد على الشيء المقتنى. فلامتلاك ارضٍ لا تخص أحداً، لا يكفي القول «هي لي»، ولا مجرّد الاجتياز فيها من جانب الى جانب. فان السيادة على هذه البقعة من الارض لا تكون شرعية، ولا يحق اقصاء الغير عنها الا بقدر ما يكون الواحد قد حسنها مثلاً بفلاحتها،

وتحويطها بسياج لحفظ الاشجار والاثمار ، وبشق جداول يسيل فيها الماء لسقيها .

فلنرَ الآن كيف كانت طبيعة وشكل هذا الاحتلال أو الامتلاك، أفردياً كان أم اجتماعياً ؟ يجب التمييز تمييزاً مدققاً الواقع الطبيعي الاوّلي من الحوادث التابعة والعرضية . لان وضع اليد قد صدر ، على كرور الدهور ، من عدة حوادث : كالفتح ، والهجرة ، وورود غرباء، في بقاع جديدة ، فرادى أو جماعات ، عائلات أو عشائر الخ . فهذه كلها واقعات من شأنها ان قد أحدثت قديماً ، ولم تزل قابلةً لاحداث طرائق مختلفة لوضع اليد . لكنا ساعون للوقوف على الطريقة الطبيعية والاولية التي تفترضها بقية الطرائق ، وتجدّدها تجديداً يكاد يكون مماثلاً.

الظاهر ثابتاً بالتأريخ ، ولاسيما بالتأريخ المقدس — كما يبين ذلك ايضاً بتحليل الطبيعة البشرية — ان هذا الواقع الاوّلي كان وضع اليد على يد طوائف من الأسر صدرت من أصل واحد ، فامتدت تدريجاً على الارض ، فاحتلتها ، كلما زاد عددها فتوسعت .

من البدء كانت اساليب الامتلاك قد ظهرت فتطبقت ، دون نهج علمي ، على السلائق المتعدّدة ، سلائق شتى العائلات . فمنذ القديم ، قد وجد رعاة ، ووجد فلاحون . وكلّ عالمٌ ان مثل هذه المهن تتطلب طبعاً مناهج مختلفة في التملك .

البائن من الكتاب المقدس ان جماعات العائلات التي كان فيها للاب ، أو الرئيس ، أو الشيخ ، المقامُ الراجح ، قد وُجدت في صدر المجتمع . فقد سبقت اذاً جماعات القرى ، أو غير جماعات أكبر منها . وهـــذه جماعات الأسر قد أوجدت نوعاً من الامتلاك متوسطاً بين الملكية المشتركة والملكية الفردية . ومن ذلك ، بمساعدة الاخلاق والتقاليد ، قد تولد الحصب والفلاح العائلي والاجتماعي .

القضية الرابعة

في القيود المحددة استعمال حق الملكية الفردية

ان اهل المذاهب المستقلة المعرّفين حق الملكية بانه « حق الاستعمال والتصرّف والاستهلاك » يدعون الاحسان عملاً اختيارياً لا يدفع الى اتيانه سوى انسانية كل فرد ، ثم الفطنة الاجتماعية . بيد ان هذه القضية تنكرها الفلسفة الحقيقية ، وتدحضها البراهين العقلية والنقلية .

ان الخير الفردي متعلق بالخير العام . اذ ان الحق المطلق على الخيرات الطبيعية ، اذا عاد بالمضرّة على الجمعية تعذّر منحه للفرد . مقرر ان لكل امرىء مولود في هذه الدنيا حق العيشة من حاصلات الارض . فاذا كانت الملكية تحرم قسماً من البشر من وسائل العيشة ، اصبحت مجلبة اختلال ، وحُسبت اثماً صريحاً . ولكن الواقع ليس كذلك ، لان الله قد اتحد الملكية الفردية اتحاداً وثيقاً بواجب صنع الاحسان والرحمة .

ان استعمال الخيرات الخاصة التي يملكها شرعاً كل فرد من اللازم ان يكون مشاعاً بعض الشيوع ، لا يعني ان كل واحد يمكنه ، حسب هواه وطمعه ، استخدام الشيء العائد الى غيره ، دون اذن مالكه ، لكن بالدليل الآتي وهو اولا : عند الحاجة القصوى ، لكل امرىء الحق في استعمال مال غيره ، بمقدار احتياجه الى صون الحياة . ثانياً : في حالة الحاجة الثقيلة فقط ، واجب الاغنياء تحت طائلة الاثم الباهظ ، ان يحسنوا الى المساكين ، من فيض مالهم ؛ لان المثرين هم مدبّرو اموال الله . والكلام هنا ليس على الفائض من باب الاطلاق ، لكن بالنسبة الى حالة الفرد الاجتماعية ، وحق المعوّزين في فاضل مال الاغنياء ليس حقاً ملزماً هذا الالزام حتى يقدر على الادعاء به زيدٌ أو عمرو ، بطرس أو بولس . لانه حق لا يلحق باشخاص معينين .

لكن اذا رفض الموسرون اداء الواجب عليهم ، كان في مستطاع الجمعية ذاتها ان تدعيه . وفريضة صنع الاحسان محتومة أولا ورأساً على الاثرياء فرداً فرداً ، أو جماعةً جماعةً ، بتأثير جمعيات الرحمة . وهذا النوع من أدائها يفضل على الرحمة الادارية . الا انه حين لا يكفي العطاء الفردي لتخفيف شدة البؤس ، فعلى السلطة العامة ، وفي امكانها سدّ الخلل بفرض ضرائب على ارباب الثروة ، رغماً عن احتجاجاتهم وتعللاتهم . لان من الشاق على الجماعة رؤية فريق من اعضائها مغموراً بالخيرات ، والفريق الآخر بائداً في الشقاء . أجل انه لمؤلم الاضطرار الى ان يحول الى ضغط شرعيّ ما من شأنه ان يكون نتيجة السخاء الطوعي . بيد للضرورة أحكام .

يَمثل أحياناً أمام المحاكم اناسٌ متهمون بالسرقة . لكن بعد الفحص يبينون صرف جياع سرقوا شيئاً من الدراهم أو الاطعمة ليسدّوا رمقهم فلا يبيدوا . ففي مثل هذه الظروف يقف القضاة موقفاً حرجاً . فيشاهدون محاولين تخفيف الجرم ، وعذر المجرمين . وليس من قاضٍ يجسر فيقول للرجل الماثل في حضرته : « انت غير مجرم ، لانك استعملت حقاً كان لك . »

على ان هناك سلطةً متصفةً بهذه الجرأة ، هي السلطة الدينية . فلكونها متأكدةً من مبادئها غاية التأكد ، يمكنها الاعلان بان مثل هذا الرجل الآخذ مال غيره ، في حالة الضرورة القصوى ، ليس معذوراً في عمله وحسب ، بحيث لم يرتكب جرماً يدعى سرقة ، بل انه قد تصرّف كما يحق له ، وانه غير ملتزم ابداً — وان اغتنى فيما بعد — ان يَرُدّ ما أخذه الا — وهذا واضح — اذا اصبح فقيراً ذلك الذي اخذ هو منه المال .

فلماذا يا ترى حلالٌ في عين السلطة الروحانية استعمال ملك الغير في حالة الضرورة القصوى ؟ لاشك ، لان ذلك التملك ليس في نظرها .

حقاً مطلقاً . هـــذا ولو فُرض انه مطلق ، لامكن ، في مثل هذا الظرف ، ان يُطلب من حائزه التخلي عن شيء منه . والحال ما معنى كون الملكية ليست حقاً مطلقاً ؟ معناه انه يوجد فوقه وقبله شيء يحدده ويقيّده ، مجبراً صاحبه على الاهتمام بالغير وبذل الخدمة لهم ، فلا يُسمَح له — والألم منتشرٌ حوله — ان يعتزل ناحيةً ، اعتزال متحصّن في معقل . مدلول ذلك ايضاً — اذا انعمنا النظر — ان حق الملكية الفردية ليس حقاً من الحقوق الاوّلية ، غير القابلة المس ، والمعبّرة عن حالة الطبيعة في طور تكونها الاول . اذ انه حق مستمد أو مشتق ، وهو ترتيب عقلي ، وبما كان ترتيباً ضرورياً ، لكن ضرورته نسبية ، ذات خواص عامّة ، في مقدرة بعض الاحوال تبديلها ، مما لا يبقى معه شيء لا يُمس ولا يُغيّر . صفوة القول ان حق الملكية ، في ينبوعه العميق ، ان هو الا خدمة مستندةٌ الى منفعة اجتماعية .

يقول فيلسوف النصرانية ، مار توما اللاهوتي : « ان ما هو من قبيل الحق البشري لا يمكنه مضرة او ابطال ما هو من الحق الطبيعي والآلهي . والحال ، حسب النظام الفطري الذي رسمته العناية الالهية ، ان الاشياء الدنيا معدّة لهذه الغاية وهي انه بواسطتها تسدّ حاجات البشر . فلا يمكن التسليم بان قسمة الخيرات وحيازتها — مما هو جارٍ طبقاً للحق البشري — تقاوم واجب تدارك عوز الجميع . وعليه فالاشياء التي يمتلكها المرء بوفور هي مخصصة ، بفعل الحق الطبيعي والالهي ، لاعالة المساكين . » مما يُسوّغ القول للغني الرافض صنع الخير : « انك ، يا هذا ، تحبس عندك خبز الجياع ، وتحصر في خزائنك ثياب العُراة . نقودك فداء التعساء ، وانت دافنها في الارض . »

ولمعترضٍ ان يقول : « تقرر السلطة الدينية بان كل الأشياء مشاعة بعض الشيوع من حيث الاستعمال . ومن الناحية الأخرى تحرم مس مال الغير ، الا في حين الضرورة القصوى . لماذا في حال الضرورة

القصوى ؟ أليس ان حصر المبدأ عند تطبيقه آئلٌ الى هدمه ؟ » الجواب: ان السلطة الدينية تطلب من الرجل المتألم اقامة الدليل على حاجته القصوى لتبيح له خرْم حق الملكية الفرديّة ؛ والسبب في ذلك ، كونه فرداً . اذ من الواضح جلياً ان هذا الفرد لا يمكنه ان يقلب، لخدمته الشخصية نظاماً اجتماعياً خطيراً ولازماً ، شبه الملكية الفرديّة، الا اذا استطاع الاستناد الى حجة غاية في الاهمية . فانه من المستحيل اطلاق الحريّة لكل أحد ان يفكر فيقول لدى ادنى ضيق : « اني في حاجة الى نقود . ولما كانت الاشياء كلها مشاعة من باب الطبيعة، فاستناداً الى الطبيعة استوفي حقي باخذي ما يعجبني من مال الغير.»

فماذا يجري ، والحالة هذه ، بتلك الخيور المقصود صونها بالنظام الاجتماعي للملكية الفردية ، وهي الأمان ، والنظام العام ، والسلام ؟ انها ، والحق يقال ، اذا سارت الاحوال على هذا المنوال ، آئلة الى الزوال ؛ فيرجع العالم القهقري الى حالة البربرة . اذن ينبغي ان تكون مناسبة بين قيمة النظام الاجتماعي وبين اهمية الاباحة بتوقيف نتيجته لفائدة الغير . واذ كانت خطورة النظام الاجتماعي قصوى ، اقتضى ان تكون قصوى ايضاً الضرورة التي تعفي عنه . لكن اذا وقفت حقوق الانسان الفرد عند هذ الحد ، فتعذر عليه استعمال حق الملكية الا في أخر حد من حدود مال غيره ، أفلا يسوغ للجماعة ، او السلطة العامة ، ان تذهب الى مدى أقصى من هذا ؟ ان الاساس الاولي لحق الملكية هو حق التمتع بالحياة ، وذلك بالاستمداد من الطبيعة الوسائل التي القاها الخالق عز وجل . وقد وضع نظام امتلاك الخيرات الفردي لكي يحيا الانسان حياة اسعد ، لا لكي يموت بسبب هذه الخيور . فان وجدت هذه الملكية ، وقتاً من الاوقات ، منظمة نظاماً يعجز معه فريق من الناس عن وجود ما يقتاتون به ، في حين ان الفريق الآخر يرتع في بحبوحة الغنى الوافر ، بل قل الفاحش ، حق

للسلطة العامة التدخل في الشأن متوسلة بالوسائل الحكيمة ، لاعادة الاحوال الى مجاريها ، وتوازن الخيرات المختل الى نصابه .

اما السلطة الدينية ، فحسب مبادئها وتعاليمها ، لا تتعرض رأساً للانظمة السياسية والمشترعات المدنية . ولذا لم يحاول الآباء الاقدمون تغيير نظام الامتلاك السائد في زمانهم ، بـــل وجهوا ارشادهم الى المؤمنين فقالوا لهم : « ان الفائض من مالكم هو حصة الفقراء ، من باب الحق الطبيعي والالهي . ان السلطات المدنية لا تشعر من ذاتها بالقدرة ، دون قلب النظام العام ، على مسّ شريعة الملكية الفردية . فعليكم ، انتم ايها المترون ، بذل جهدكم ، بذلا اختيارياً ، في محو ما في ضرورة النظام من العسف . حينئذ تجد فيكم العناية الالهية ، واهبة الخيرات للورى أجمـــع ، وكلاء وموزعين لارزاقها أمناء صالحين . » وهذا الموقف ، من جهة السلطة الدينية ، كان ولا يزال الموقف الوحيد ، الملائم المفيد .

صفوة المقال كله ان البارىء تعالى قد وضع الطبيعة برمتها تحت تصرف الانسان الذي خلقه ملكاً . فالملكية شرعية صوابية بقوة الحق الطبيعي . والأشد ملاءمةً منها للطبيعة البشريّة وللحيـــاة العائلية والاجتماعية هي الملكية الفردية ، لا الملكية المشاعة ، وان وجد في هذه شيء من المحاسن من بعض نواحيها . وقد جرى الامتلاك بوضع اليد ، يرفقه الشغل ويعزّزه . على ان الملكية مقيدة بواجب صنع الخير والاحسان ، اعني فرض اعانة الأغنياء للفقراء من فيض مالهم . وبهذه الوسيلة يحصل الجميع على ما يلزمهم للعيشة عيشة سعيدة راضية ، يعقبها بلوغهم الى مصيرهم الاقصى في الحياة الخالدة .

ابطال البشرية

تعريفهم وحقيقة وجودهم

ليس بالعسر على من الِف مزاولة علم التأريخ ان يقف على حقيقة بادية لعيني كل ذي بصيرة. الا وهي تحققه ان في كل عصر وزمان، وبين كل شعب وامة، وفي عهد كل مملكة ودولة، قد ظهر فريق من الانام فاقوا عامة معاصريهم، بما ابدوه من الذكاء العجيب، والقريحة الوقادة، والارادة المحكمة؛ وذلك من فضل ما اوتوه من الآلآء السنية، والمنح البهية. فبزغوا في سماء عصرهم شموساً ساطعة، واقماراً نيرة؛ بما خلد اسماءهم في صحف التأريخ، ورفع لهم اعلام الفخر والذكر الطيب، على ممر الازمان والادهر. فهؤلآء هم الذين سعوا في توسيع نطاق الاجتماع وبسط الحضارة، وتأسيس المدن الفسيحة الأرجاء، وتأليف الممالك العظيمة، وتقريب الابعاد، وتيسير المواصلات، وترقية الجمعية البشرية في معارج النجاح والفلاح والكمال. في راسهم اولئك الذين انصرفوا في حياتهم الى اشرف ما في الانسان، اي الى النفس، فأقبلوا عليها مهتمين؛ وكان اسعادها دينهم، وتهذيبها ديدنهم. منهم خدام الدين الآخذون على عاتقهم امر الارشاد، وتحريض الورى على التقوى وعمل الخير والمسالمة. فيهم الفلاسفة والجهابذة الدائبون في البحث والتنقيب والاستدلال والتدوين؛ غاية منهم اخراج البشرية من دياجير الجهل الى نور العرفان. بينهم زمرة الاطباء الساعين الى صيانة البدن من الاسقام الطارئة عليه، بكشفهم اسباب الادوآء وتلافيهم

اياها بالعلاجات الشافية . في طبقتهم المشترعون العظام . اصحاب القوانين والدساتير الشهيرة . في عديدهم الحكام والقضاة والفقهآء الباسطون العدل، والمحافظون على الحقوق . في جملتهم الملوك والسلاطين الكرام ، والقواد والامرآء الشجعان ، والمحامون عن البلدان والأوطان ، والساسة المحتكون، والمخترعون الحاذقون ، والمكتشفون الماهرون . الخلاصة هم كل الذين اشتهروا بالاقبال على الأمور العالية المناط بها خير الجمهور . وكلكم تهتفون معي معلنين لقبهم الخاص قائلين : هم كبار الرجال ، هم النوابغ، هم ابطال البشرية .

تلك هي الحقيقة المتجلية لعين المؤرخ الحذق ، المتتبع سياق حوادث الازمان ، وعندها يقف علمه . اما المفكر المدقق ، المتوخي ادراك الامور بعللها ، العالم بان لا مسبب دون مسبب ، فترونه لا يلبث عند منتهى علم التأريخ ، بل يسعى الى ما ورآءه ، باذلا جهده في سبر غور هذه الحقيقة بمقياس الاصول الفلسفية ، ويغوص في اعماق دركاتها مستنيراً بنبراس القواعد الاجتماعية ، قصد وجود ضالته المنشودة ، باطلاعه على تفوق هولآء الابطال ، ابطال البشرية ، وتمكنه من كشف المعمى عن سبب نفوذهم ، واستيلائهم على اهل زمانهم . وهذا ما ينوى اداؤه في هذه المحاضرة .

آراء الفلاسفة في ماهيتهم ، ونفوذهم في الالفة البشرية

نبوغ رجال البشرية الاماثل هو ، كما تقدم ، حقيقة تاريخية لا يختلف فيها اثنان . اما تعليله فلقد كان ولا يزال شغلاً شاغلاً للفلاسفة والمفكرين . فطالما تساءلوا فيما اذا كان بطل البشرية هو وحده ومن ذات ما ازدان به من سمو الذكاء ومضاء العزيمة ، قادراً على الاستيلاء على اهل زمانه ، مما يمكنه من قلب الاحوال من طور الى طور ،

والأخذ باعنة الأمور ، وقيادة الالفة الاجتماعية ، حسب رأيه الخاص ، ومشيئته . ففي حلّ هذه القضية قد تضاربت اراء الفلاسفة ، شأنها في غالب المسائل . فهناك فريق أثبت اطلاقاً ، وهناك فريق انكر بتاتاً .

رأي المغالين في قدرهم واثر فعلهم

فالموجبون هم أولئك الذين يذهبون الى ان أبطال البشرية هم هم ، ولا غيرهم العلة الوحيدة لكل ما قد حاز الجنس الآدميّ من الكمالات على اختلاف اصنافها ؛ وان تأريخ البشرية — عامّه وخاصّه ، قديمه وحديثه — ان هو بالحقيقة الا تأريخ هؤلآء الابطال . فقد كانوا — وهم اليوم — ارباب العالم ، وقادة الورى ، واساتذة البشر . لا بل زيدوا فقولوا ان كل ما بذله القوم من النفس والنفيس ، والغالي والرخيص ، في سبيل ما قد حصلوا عليه من المحسنات فهؤلآء الرجال العظام وحدهم كانوا مبتكريه ، وجالبيه ، ومانحيه . قصارى الكلام ان كل ما يبدو لعيونها في العالم من نافع وشهي ولذيذ ما هو سوى نتاج قرائح دواهي القوم ونوابغهم ، وتحقيق ما دار في خلدهم من الافكار المثلى ، والنيات الفضلى .

رأي المفرطين في الحط من شأنهم

امّا المنكرون فهم المبالغون في الحط من قدر ارباب القرائح ، القائلون بان لا حظّ لكبار الرجال ، بذات نفسهم ، من كل ما يعزى اليهم من كمال وحسن مزايا وخصال ، وانهم ليسوا في شيء مما قد تسمو به الألفة من تقدم وتمدن وعمران . انما الفضل كله للمجتمع الذي يؤثر فيهم ؛ وليس هم المؤثرين فيه . وذلك ان النابغة أو البطل البشري يولد وينشأ ويتدرّج بين ظهراني مجتمع من المجتمعات محدود ،

فيه للوراثة والتربية والعادات والاخلاق العوامل الكبرى . مما لا بد ان يؤثر في تكوّن قريحة ذاك الرجل ونموها وتدرجها . فتراه قبل ان يتمكن من العمل والتصرف في مجتمعه قد سبق المجتمع عينه فطبع فيه طابعاً بليغاً ، فاضحى — هو البطل المقبل — معلول التطور والتحول ، قبل ان يكون علته ومحركه . وان هو سعى في العمل بين قومه ، فلا ذريعة له لاجرآء ذلك سوى عمده الى الوسائل التي تضعها بين يديه الالفة عينها . وعليه فأثر ابطال البشرية لا يكاد يكون شيئاً يذكر . والذي يقدّر فينشر انما ينحصر في قدرتهم — لفضل ما فيهم من الذكآء — على سبق غيرهم في الوقوف على ميل الافكار ، وتطور الاحوال ، ونزعات الاقوام ؛ مما يمكنهم من اعلان اسباب مجاري الامور واتباعها . ففضلهم الوحيد — ان كان هناك فضل — لا يزيد على فضل الروابي التي ، لارتفاعها ، تتلقى انوار الشمس البازغة ، قبل ان تستنير بها الوديان .

بسط البحث في ذات عملهم وقدر نفوذهم في الالفة

غير خافٍ على لبيب ما في هذين الرأين من التطرف الفاحش ، وكيف انهما على طرفي نقيض . اما الحقيقة التي من شأنها الاعتدال فقائمة في وسطهما ، لا تحيد عنه قدر ذرة . وهـا نحن أولآ نشبع الكلام رغبة الايقاف عليها ، فنبحث اولا : عن طريقة اعمال هولآء ابطال البشرية بذاتها ؛ ثانياً : عن كيفية تأثير تلك الاعمال في المجتمع الانساني .

طريقة العمل عند ابطال البشرية

اعمالهم اعمال بشرية صرفاً ، وطريقة مزاولتها لا تتعدى الطرائق البشرية ، بدليل المبدأ القائل : تجري الصنائع مجرى الطبائع . والحال ان ارباب القرائح — مهما فاقوا في المزايا ، وتفردوا في الخصال — فلا يخرجون عن حيز الانسانية ، والا لتغير كيانهم . فهم باقون اذن بشراً من حيث الطبيعة ، ومن ثم في طريقة مزاولة الاعمال .

طريقة العمل البشرية

وكل يعلم ان في مقدمة افعال الانسان افعاله العقلية . اذ الانسان انسان بنفسه العاقلة ، حسب قول الشاعر :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرفٍ من الانسان

مقرر ان النفس جوهر تام ، مستقل بذاته ، روحاني ، اي مجرّد عن المادة ، والتركيب ، مبدأ حيّ ، عاقل ، فعّال ، عامل بالذات ، حرّ ، متصرف في اعماله . بيد ان هذه النفس متحدة بالجسم اتحاداً جوهرياً ، مما يجعلها تفتقر اليه في ابراز بعض افعالها ، اعني في ادراكها الجزئيات .

وتعرف النفس بافعالها ، وهذه الافعال ثلاثة : الشعور ، والتعقل ، والارادة الحرّة . ولا بد لكل من هذه الافعال من قوة تصدر هي (الافعال) عنها .

الفعل الاول : الشعور

وادراك النفس للجزئيات لا يتم الا عن طريق الحواس التي بها يحصل فعلها الاول اعني به الشعور . والحواس على ضربين : حواس

خارجة وعددها خمس : السمع ، البصر ، الشم ، الذوق ، اللمس . وحواس باطنة وهي خمس ايضاً : الحسّ العام ، الخيال ، القوة الواهمة ، المخيلة ، الحافظة .

وادراك النفس للمحسوسات يكمل بالحواس الباطنة . والحواس الخارجة الة لها . والشعور يفترض ثلاثة امور وهي : الاول : وجود سبب مؤثر في الخارج ، وهو الجسم الذي يقع تحت احد الحواس الظاهرة ، فيطبع صورته فيها . الثاني وجود آلة او حاسّة خارجة في الجسم تنقل ذاك التأثير او تلك الصورة الى الداخل عن طريق الاعصاب المختصة بكل واحدة منها . الثالث : وجود قوة باطنة تدرك ذاك التأثير ، او تلك الصورة اي تشعر بها . ومن ثم فلا يتم فعل الشعور الا بانتقال صورة المحسوس مفرداً معيّناً بصفاته . وهذه الصورة لا تحوي شيئاً من الجسم البتة . وقد سميت حسية لان النفس لا تستخدم في ادراكها سوى الحواس .

الفعل الثاني : التعقل

من المحسوسات الجزئية تنتقل النفس الى المعقولات الكلية . وبذلك يكمل فعلها الثاني وهو التعقل ، اعني معرفتها الشيء ، لا بصورته الفردية ، الجزئية ، الظاهرة ، كما الشأن في الشعور ، بل بماهيته وخواصه الذاتية التي يقوم بها . وهذا يحدث بعد ان تكون الصورة الحسية قد عبرت ، عن طريق الاعصاب ، من الخارج الى الدماغ ، مركز الحس العام . فهناك تطالعها النفس ؛ وبقوتها الوهمية تدرك معانيها الجزئية ؛ وبمخيلتها تتصرف بها بالتركيب والتفصيل ؛ وتقيس بعضها على بعض قياساً حسياً لا دخل فيه بعد للعقل ، لكونه عاجزاً عن الفعل مباشرة في الحسيات ، لما هو معلوم من ان موضوعه الكليات .

على انه مقرر ان المدرَك من شأنه ان يندفع نحو المدرِك ؛

وان الفاعل يجب ان يتحد بوجه من الاوجه بالموضوع العامل هو فيه ؛ وان المعرفة لا تنجز الا بوجود المعروف في نفس العارف . فما الحيلة ، والنفس روحانية غرضها الكليات ، والمثل الخيالية جسمانية ، هيولية ، جزئية ؟ الحيلة هينة على النفس لضم هذين المتنافرين ، لما فيها من تلك القوة المفكرة التي تتصرف بالمثل المفردة الحسية ، فتجعلها مطلقة كلية ، بحيث يصير المحسوس الجزئي معقولا كلياً . وهذه القوة المتصرفة يقال لها : العقل الفاعل ، او القوة المجردة ، ويسمى فعلها « تجريداً » . وهي تختلف غاية الاختلاف عن « القوة الشاعرة » كما ان فعلها ، فعل التجريد ، يتميز كل التميز عن الادراك الحسي كتميز الصور الفكرية عن الصور الحسية .

اما موضوع معرفة العقل البشري بنوع عام فهو الموجود المطلق ، وموضوعها الخاص — طالما النفس متحدة بالجسد — فهو الذوات غير المادية ، الكائنة في الموجودات المحسوسة المادية . وهذه الكائنات لا تخلو — وهي في حال التركيب — من ان تكون اما جواهر او اعراضاً . ولا بد من ان تكون متصفة بكم وكيف وزمان ومكان وفعل وانفعال ونسبة اضافية . وهي كلها صفات عامة لها دخل في تكوين الكائنات ، يدركها الانسان لاول وهلة بالبديهة . كما انه بهذه القوة عينها يدرك الضروريات ، وفي جملتها الاوليات والمشاهدات والحسيات والوجدانيات والفطريات والمجربات . وهذه المبادىء الكلية — مع الوجود المطلق الراجعة اليه — هي ركن معارف الانسان الاولية ، وعليه مدار عقله . وهل الفاعل الاول في كل افعاله ، وعند وقوفه عليها ، لا مندوحة له للعدول والاعراض عنها ، شاء ام ابى ، وذلك لما بينها وبين العقل من المطابقة التامة .

بيد اننا نجد من ذاتنا ان العقل لا يقف عند هذا الحد من الكمال ، ل ان فيه خاصة غير تلك ، وهي انه لا يكتفي بادراك صور المعقولات

أو الافكار ادراكاً بسيطاً ، بل يبلغ منه ان يتصرف بها ، مقابلاً بعضها ببعض ؛ ويثبت بقوة حكمه ، تارة تناسبها ، وطوراً تنافرها ، وينتقل بالاستدلال ، من البديهيات الجلية الى معرفة النظريات الخفية ؛ وبالقياس ، من نظريات معروفة الى نظريات مجهولة . وبهذه الطريقة يتوصل الى كشف الحجاب عن مخدرات الحقائق النظرية ، وتوسيع نطاق المعارف والعلوم الاكتسابية .

الفعل الثالث : الارادة الحرة

من الامور التي لا يشوبها ريب ان لكل موجود غاية يتجه اليها ؛ وهي مقصود قواه وافعاله . فللانسان اذن — وهو اشرف الكائنات — غاية يتوخى بلوغها ، ولا يتجه اليها بمحرك خارجي يدفعه الى عمله ، بل بقوة داخلية تحركه الى افعاله ، يقال لها « الارادة » ، على اننا اسلفنا القول ان الانسان يدرك الكليات بعقله ، والجزئيات بحواسه ، ولذا لزم ان يكون فيه ارادة عقلية تدفعه الى السعي ورآء الخير الكلي ، وارادة حسية تحمله على استحصال الخير الجزئي . ومن هنا نجم ان الانسان يحب ما يراه خيراً ، ملائماً له ؛ ويكره ما يجده شراً ، مضراً به . بيد ان هذا الحب وهذا الكره ينشآن فيه عن رضى واختيار وحريّة مطلقة ، فيجد من نفسه انه رب افكاره واشواقه وافعاله . ووجود الحرية في الانسان حقيقة تتضافر في ايضاحها شتى الادلة والشهادات مستمدة من طبيعة الانسان كما حددناه ، وهي اتصافها بالروحانيه او التنزه عن المادة واحوالها كالكمية والحركة والقياس . اذ غير ممكن ان يقال — الا بطريق المجاز — ان النفس او العقل او الفكر مدور او مربع ؛ ابيض او اسود ؛ بارد او حار ؛ عالٍ او واطىء ؛ واقف او جالس . فاذن النفس ممتدة القوى ومتجهة

نحو الأشياء العامّة ؛ ولذلك اتسعت سلطتها على الكائنات . وهذا الاتساع مصدره حريتها .

مزية الابطال في اعمالهم البشرية

اذن هذا هو منهاج العمل عند البشر عموماً ، وعند اهل الذكاء خصوصاً ، مع ما بين الفريقين من التفاوت في درجاته . على ان تلك القوى ، وتلك الافعال — حسية كانت ام عقلية ام ارادية — قد تبلغ في ذوي القرائح الوقادة مبلغاً من الكمال تقصر كل القصور عن التوصل اليه في من سواهم . فمن حيث الشعور ترى الداهية مزداناً بكل ما يقتضي له من حاسات ظاهرة او باطنة ، ولاسيما بما يتعلق بالسمع والبصر خارجاً ، وبالمخيلة والحافظة داخلاً ؛ مما يفترض فيه بدناً حائزاً كل الصفات المقوّمة لكيانه ، من بنية قوية ، واعضاء متناسقة ، وعضلات متينة ، ودم غزير زاخر ، يتدفق من قلب ملؤه الحياة ؛ واعصاب شديدة منتبهة ، ودماغ واسع ؛ مما يجعل الجسم لائقاً لخدمة القوى العليا ، وقادراً على الثبات تحت وقر اعمال النفس العقلية . اما نفس النابغة فحدث عن سموها ورقيها ولا حرج . فانها كاملة الخواص ، مزدانة بقوى عجيبة ، من عقلية شأنها التجريد والاستدلال والقياس ؛ وارادية يقوم فعلها في توخي الغاية ، والبحث عن دواعي العمل ، وتخيّر الذرائع المقتضى اتخاذها للفوز بالمطلوب . وهذ يعلمك الملاءمة التامة الواجب وجودها بين نفس البطل البشري وجسمه . اذ ما الفائدة من وجود آلة بديعة القوام ، وهي الجسم الكامل الصفات ، في يدي فاعل عاجز ، جاهل ، اعني به النفس الجامدة ، الخاملة ؟ واي خير يرجى من وجود فاعل حاذق ، ماهر ، وهو النفس الراقية ، في يده آلة ساقطة ، معيبة ، اعني الجسم النحيف ، الهزيل ، العليل ؟ ولذا فاله در فيلسوف النصرانية الاكويني من قائل : « من شأن الابدان البديعة

الكيان ان تنضم اليها نفوس سامية الذكاء والعرفان . »

وسمو هذه القوة العقلية في نفس الداهية انما يتوقف على ان صاحبها يدرك الامور بمضاء فكر آية في باب الادراك ؛ ويتم ذلك الفعل بخفة يُقضى منها العجب العجاب . فانه يرى حالا وبلحظة عين ما في المقدّمات القياسية من النتائج الجمة التي لا تستخرجها العامة الا بعد العناء الجسيم ، والزمن الطويل . وكاني بفعل تعقله هذا لا يعدّ من قبيل التجريد ، والاستدلال ، والقياس ، بل ضرباً من النظر المحض أو البديهة ؛ وكأني بجميع الحقائق النظرية البعيدة الغور ، العسرة الاستقصاء ليست الا بمثابة مبادىء أوّلية ، يحيط بها عقل العبقري علماً ، وذلك بمجرد القاء النظر عليها .

سرّ تفوّق العبقريّين عقلاً وارادة .

والسر في هذا النمط العجيب من الادراك قائم في هذا الأمر وهو ان الانسان من ذات طبعه وجد في سلم الكائنات وسطاً بين البهائم العجماء والارواح المجرّدة أو الملائكة . وغير خاف عن فهم الالباء ان البهيمة لا تدرك الا ادراكاً حسياً ؛ وان الروح المحض تتمّ معرفته برؤية الحقائق كلها رؤية فوريّة بديهية . أما الانسان ، المركب من جسم ونفس ، الجامع بين طريقة البهيمة وطريقة الروح البسيط ، فتجري المعرفة فيه بقوة المجرّدة التي من شأنها ان تنزع الصفات الجزئية الحسية عن المثل الخيالية ، فتصيرها مثلاً معقولة ، أو افكاراً ، تقابلها بعضاً ببعض ؛ وبعد ان تحكم فيها ، تستخرج منها النتائج بالقياس .

بيد ان الناس ، وان كانوا مشتركين في النوع ، فلا تستوي فيهم المدارك . فادنى افراد البشر متصلون بالبهائم ؛ وهم اوطأ درجة في

تجريد الافكار عن الخواص الحسية ؛ والذين اوسطهم مرتبة ، فالمجرّدة فيهم اقوى وافعل ؛ بيد انها شديدة البطء في العمل . واما ذوو الذكاء الوافر — وهم اهل المرتبة العليا — فالمجرّدة تسمو فيهم سمواً عجيباً ، وتنفذ نفوذاً بليغاً ؛ مما لا تُحسبُ بعدُ معه في شيء من القوة المتعقلة ، بل ضرباً من البديهة ؛ فترفع بذلك اصحابها من طبقات البشر ، الى مصاف الارواح الملائكية .

وشأن الارادة في البطل النابغة شأن عقله . فانها تسمو سموه وتنفذ نفوذه ؛ وذلك لما قد عرفت به من السير على خطواته ، والاستنارة بمصباح نوره البديهي ؛ مما يجعلها قادرة على ان تقف ، بسرعة غريبة ، على الغاية المقصودة ، والطرق المؤدية اليها ، فتجنح اليها كل الجنوح ، ودون تردّد ، بل بعزم وحزم مكين . وكما ان الروح البسيط يعزم بحرّية واختيار ، وبدون توقف ، ولا مراجعة ، فالنابغة البطل ، الجدير بان ينزل منزلة الارواح ، ينوي عازماً ، ويقدم عاجلاً .

الخلاصة ان البطل البشرى يأتي اعماله بطريقة بشريّة ، اعني بالشعور في امر قوة حسه ؛ وبالتجريـــد والاستدلال والقياس في شأن عقله ؛ وبالمراجعة والمفاوضة في ما ينوط بارادته . اما الذي يفرقه عن غيره فهو هذه المزيّة وهي انه في وسعه ان يقبض من ساعته وبخفة عجيبة على ناحية الحد الاوسط من القياس ؛ مما تضطر النتائج معه الى الانقياد اليه خاضعة ، صاغرة ؛ وان يكشف القناع عن الوسائل العملية ، فيعمد اليها بعزم واقدام . وهذ هو السر في نبوغه البطلي بين امثاله ؛ وهذا الذي يفرده عنهم ، ويخصه ببعد النظر ، وغريب البداهة ، ومضاء العزيمة ؛ مما يجعله جديراً بان يلقب ، بكل صواب ، بالحساس الأنبل ، والعاقل الأكمل ، والحازم الامثل .

أثر العبقريّين في احوال زمانهم

قد عرفنا من هم ابطال البشرية ، وما هي مزية اعمالهم بحد ذاتهم . فما القول ، بعد الذي رأيناه ، في قدر فعلهم وتأثيرهم في تطورات مجتمعهم ؟ للجواب عن ذلك جواباً شافياً ، لا بد لنا من تمهيد .

خاصيّة الزمان تقلب احواله

مما ينزل منزلة الامور المثبتة المعززة بشهادة التأريخ الصريحة ان الزمان لا يُعرَف له قرار ؛ فهو دائم التغير ، يتقلب من طور الى طور . وتعليل ذلك هو ان تقلب الاحوال في المجتمع ينشأ عن تقلب الاعمال ؛ والاعمال يغيّرها اختلاف الطرائق ؛ وتباين الطرائق يصدر عن تناقض المذاهب ؛ وتعاكس المذاهب يتولد عن اختلاف الارآء ؛ وتضارب الارآء ينجم عن تمايل الارادة ؛ وجنوح الارادة منبعث عن تردد العقل ؛ وتوقف العقل متأتٍ عن عجزه عن تطبيق ذاته على موضوعه برمّته ؛ وهذا العجز حاصل من حالة طبيعته الناقصة ، طبيعة كل مخلوق .

قلنا ان الزمان في تطور دائم . وتبيانه انه اذ كانت الالفة البشرية مؤلفة من افراد كثيرة ، كان شأن المجتمع شأن الفرد في باب التعقل والمعرفة . على اننا قد تقدم لنا افاضة الكلام في ان عقل الفرد ، اذا وقف بازآء موضوع معرفته ، وهو الحق ، لا يخلو من ان يكون على حالتين ، أولاهما حالة اضطرار ، وثانيتهما حالة اختيار . فحال اضطرار ، عند ادراكه الموجود المطلق وما يرجع

اليه من المبادىء الضرورية ؛ وحال اختيار ، عند استدلاله عن الموضوعات النظرية . وهـــذا الذي يجري عند الفرد هو عينه جار في المجتمع ، لكونه مجموع افراد .

وعليه تراهم عـــلى الاطلاق مجمعي الرأي اضطراراً عـلى التسليم « بالامور الاولية » في كل صنف من اصناف علومهم ومعارفهم ، نظرية كانت ام عملية ، فلسفية ام طبيعية ، اجتماعية ام سياسية . أما الامور النظرية التي تحصل بالقياس بعد العناء وشحذ القريحة ، فتتضارب فيها اقوالهم ، وتتلاكم آراؤهم . والسبب في ذلك ان العقل — سوآء أعتبر في الفرد أم في الجمعية — لا يدرك من تلك الحقائق الا وجهاً من الوجوه ، مما يبقى معه حراً في الاتحاد أو الانفصال عن اي وجه من وجوهها الباقية . وهـــذا هو السر في تولد الآراء ، التي تسمى مذاهب ، اذا نُسقت وبقيت نظرية ، وتدعى طرائق ، اذا وُضعت في العمل . أضف الى ذلك ان الطرائق ، اذا تمكنت في الألفة ، وتنازعت وغالبت بعضها بعضاً ، نشأ عن ذلك التطور ؛ واذا نضج التطور ، كانت عاقبته الانقلاب على اختلاف انواعه ، سواء كان في عالم العلم ، أم الاجتماع ، ام السياسة .

المُشترَط لنفوذ اثر العبقريين في احوال عصرهم

فاذا عرفت هذا ، زدناك علماً ان للبطل النابغة اثراً جليلاً في كل انقلاب يحدث في العالم . وهذا يفترض شرطين ، وهما ان يكون للنابغة ارادة لاجراء ذلك الأثر ؛ وان يجد من ذاته مقدرة على اتيانه .

ارادة النابغة للتأثير في احوال عصره

أمّا نشء مثل تلك النية في صدر النابغة ، فيتطلب سبق وقوفه على عيوب مجتمعه . وما أحراه بذلك من غيره ، لما قد تحققناه فيه

من سمو الطريقة في استطلاع سرائر الامور ؛ وما اجدره ان يرى رؤية جلية ما قد اعترى جيله من الشوائب والمصائب والآفات ؛ مما يحصل له معه صورة واضحة عن الحال المعاكسة ، المرغوب فيها لمجتمعه. فضلًا عن انه اذا كانت الارادة ، كما سبق الاثبات ، ميالة الى الخير الذي يقدمه لها العقل ، فعندما يدرك بطلنا العبقري ، بتوقد ذهنه ، حالة زمانه السيئة أو الناقصة ، ويقف ، بوجدانه ، على ما يقتضي عمله لاصلاح حال قومه وترقيتهم ونقلهم من طور مُضر الى طور يتوسم فيه الخير لهم ، ترى ارادة هـــذا الرجل ، ذي النفس السامية والهمة العالية ، تندفع اي اندفاع الى تلك الغاية المتوخاة ، مائلة اليها ميلًا هذه شدته حتى انها لا يقر لها قرار ، ما لم تفز بذلك الخير المشتهى. فالبطل الصنديد اذن هو من سعى غاية السعي ، وبعزم واقدام ، لا بل بشوق وهيام ، الى ازالة ما يجده في جيله من عيوب ونقائص ، وجلب ما يعرفه جزيل الفائدة ، وكبير العائدة للجمهور.

بيد اننا لنحيد عن جادة الصواب ان اتبعنا اصحاب الراي الاول ، فعزونا قوة ادراك تلك الامور وقصد اجرائها الى هؤلآء النطاحل وحدهم — دون غيرهم — لان الأمر الخاص بهم — بمعزل عن سواهم — هو تفوقهم المذهل في الوقوف على تلك الشؤون ، واقدامهم العجيب على اتمامها — وهذا ما يصدق فيه ارباب القول الاول — أما الموضوع الذي يفعل فيه عقلهم ، وتؤثر فيه ارادتهم ، فيهيئه لهم المنشأ الذي ولدوا فيه ، والالفة التي عاشوا في وسطها ، والتربية التي تهذبوا طبقاً لاصولها ، والمعارف التي تلقنوها — وفي هذا المعنى قد اصاب اصحاب الرأي الثاني —

مقدرة النابغة على التأثير فعلًا في تطورات عصره

أما ما يتعلق بشأن مقدرة النابغة على اجراء ذلك الانقلاب ، فاعلم

ان ليس لارباب القرائح في ذلك الأمر قدرة شاملة ، ولا سلطة مطلقة . اجل ان لهم ، في مثل هذه الاحوال ، من التأثير ابلغه ، ومن النفوذ اعظمه ؛ مما يؤهلهم ، بفضل ما اوتوه من مضاء الفكر ، وقوة استطلاع كنه الامور وشدة العزيمة ، ودراية التوسل بالذرائع الملائمة ، لدفع الجمهور الى ما فيه الخير لهم ؛ فيصبح هؤلاء الرجال العظام الركن الاساسي للعمل ، والمحرك الاول لانشاء المشاريع الكبيرة ، وتدبير الشؤون المهمة . بيد انهم ليسوا في شيء ، من ذات ما عندهم ، في استنباط وابتكار ما يحملون قومهم عليه ، ويسيرون بهم اليه ، لكون موضوعه قد اتاهم من فضل الكمالات المكتسبة قبلاً ، والكامنة في المجتمع ، وفي احوال الجمهور العقلية ، والادبية ، والاجتماعية ، والسياسية .

الخلاصة

النتيجة الشاملة الجديرُ استخراجها من هذه المحاضرة كلها هي ان « ابطال البشرية » فئة من ابنائها قد أنعم عليهم من العلاء بمواهب طبيعية ، اضافوا اليها مزايا اكتسابية ، جعلتهم يفوقون اهل عصرهم في مزاولة اعمالهم . فازدانوا من البدن باقواه واكمله ؛ ومن النفس بابهاها ؛ ومن الشعور بادقه وارقه ؛ ومن العقل بامضاه واثقبه ؛ ومن الارادة باحكمها واحزمها . فكانوا ولا يزالون في كل عصر « اية الله في خلقه » . وذلك باحاطتهم علماً باغوص الامور وابعدها غوراً ؛ مما عجزت العامة عن نيله ؛ فتمكنوا من نقل الألفة من حال سيء الى حال صالح ، ومن حال حسن الى حال أحسن . فجاراهم في ذلك السبيل قومهم ، وانقادوا اليهم عن رضىً وارتياح ، لما توسموا فيهم من الكفاءة لتحقيق ما كانوا هم يدركونه ادراكاً ناقصاً ومبهماً ،

ويسعون في اقتنائه بارادة واهنة .

وعليه يكون « ابطـــال البشرية » أئمة في الأمة ، وقادةً عظيمي النفوذ في الالفة ، لا متحكمين فيها تحكم المسيطرين المستبدّين . وقى الله عباده شر أمثال هؤلآء الطغاة ، واكثر للاوطان من الخدَمة آمنهم ، ومن الزعماء أقدرَهم وانشطهم ، ومن النوابغ أذكاهم وأدهاهم ، ومن الابطال اشجعَهم وأبسلَهم . والسلام .

طبع باذن الروساء

تصويبات

صفحة	سطر	غلط	صواب
٥	٩	اتسم	تسم
٧	٢ من تحت	الحتق	والحق
٨	١٠	الموقعين	الموقنين
١٠	١٥	كاليوم	كالبوم
١٢	١	صنعته	صفته
١٤	١ تحت	الدين	الدين الذي
١٦	٦	الفردية	الفريدة
»	٧	الصبغة	الصفة
١٩	١	الاختبار	الاختيار
٢٠	٢	تحقيق	يخفّف
»	٢ و٣ تحت	فلنقر أن	فلنقرأنّ
٢٢	١٤	اضطراد	اضطرار
٢٤	٧	صبغته	صفته
»	٦ تحت	تمرّد	تمادى
٢٨	٣	واذا	واذ
»	٩	انه	انه لا
»	٤ تحت	الآبآء	آباء
»	٢ »	وتلك	تلك
٣٢	٢ »	لغوق	لفوف
٣٦	٤	التراجع	التراجح
٥٦	٦ تحت	مح	مع
٧٥	٤	حقيقنها	حقيقتها

صفحة	سطر	غلط	صواب
٧٨	٧	دزية	ذرّيّة
١٠٠	٧ تحت	كل	كلا
١٠٥	١٠	بشهد	يشهد
١٠٧	١ تحت	يوجه	بوجه
١٠٩	١٥	من جملة	من جملة ذلك
١١١	٢	اللاثم	لائم
١٢٤	٣	ياسقة	باسقة
١٢٥	٧ تحت	لما	ثمّا
»	٥ »	توقف	تقف
»	٤ »	تصعد	تصدّ
١٢٨	١٣	باسيم	باسم
١٣١	٢ تحت	يين	بين
١٣٤	٢	ملاءته	ملاته
١٤٥	١٤	تتوخى	نتوخّى
»	٣ تحت	لسائر	لسائر
١٤٧	١٠	رمن	ومن
١٥٤	٥	خاصته	خاصةً
»	١ تحت	الكماليات	الكمالات
١٥٧	٧	قصى	قصيّ
١٥٩	٥ تحت	الغنـيّة	الفنـيّة

فهرس الكتاب

	صفحة
كلمة للمؤلف	٣
الدين والروح العصري	٥
الدين والحريّة	١٦
الدين وقوام الألفة الاجتماعيّة	٣١
نفوذ السيّد المسيح في حياتنا الادبيّة	٤٢
نفوذ السيّد المسيح في حياتنا الاجتماعية	٥٤
نفوذ السيد المسيح في حياتنا الدينية	٦٥
ضرورة النعمة	٧٥
ينبوع النعمة	٨٦
مفاعيل النعمة وموقفنا تجاهها	٩٧
علاقة القديس عبدالاحد بالكنيسة المقدسة	١٠٨
الاخاء	١٢٥
العلاقات بين الأسرة والالفة الاجتماعية	١٣٩
الاخلاق والمعارف	١٥٥
همّة الرجال تقلع الجبال	١٦٥
العصر وشهامة الاخلاق	١٧٧
العقل السليم بين التصوّريين والماديين	١٩٥
الملكيّة الفرديّة	٢١٢
أبطال البشريّة	٢٣٣
تصويبات	٢٤٩

892.75
مرمرجي، ا. س. (الاب)
محاضرات مختارات في الدين والفلسف
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01042490

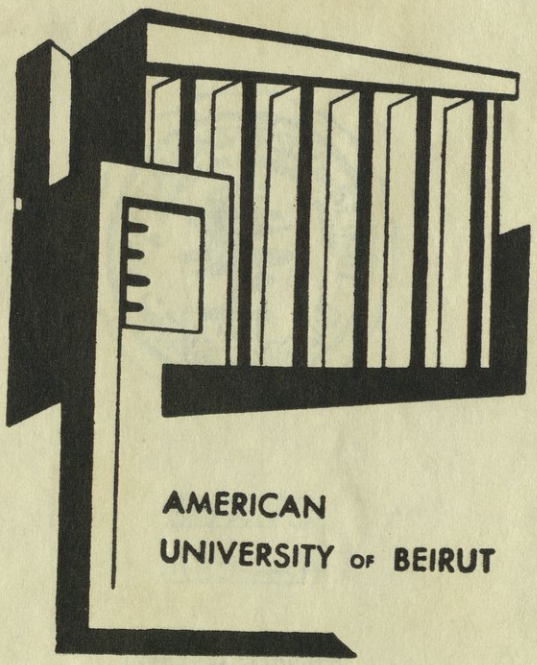

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT